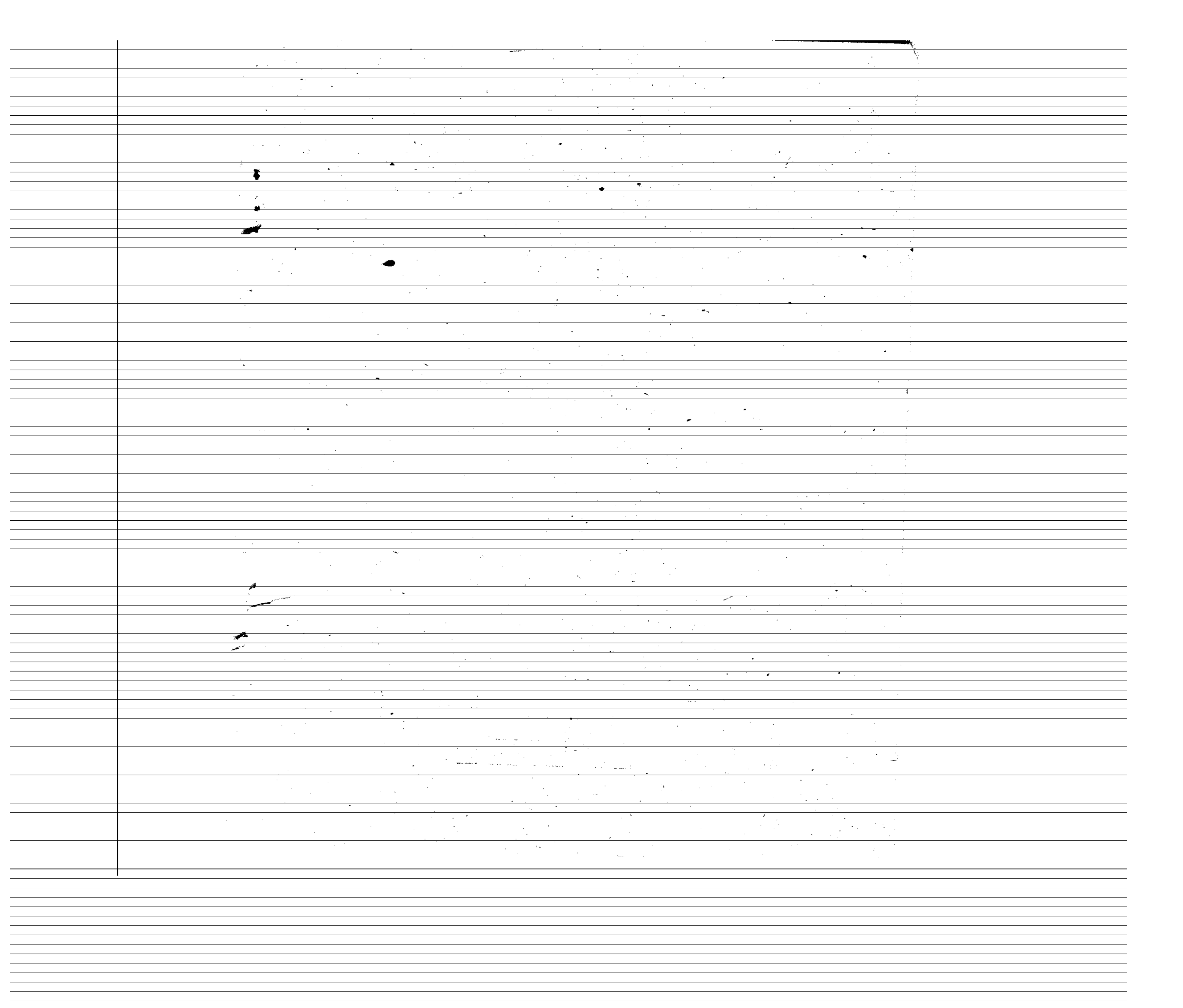
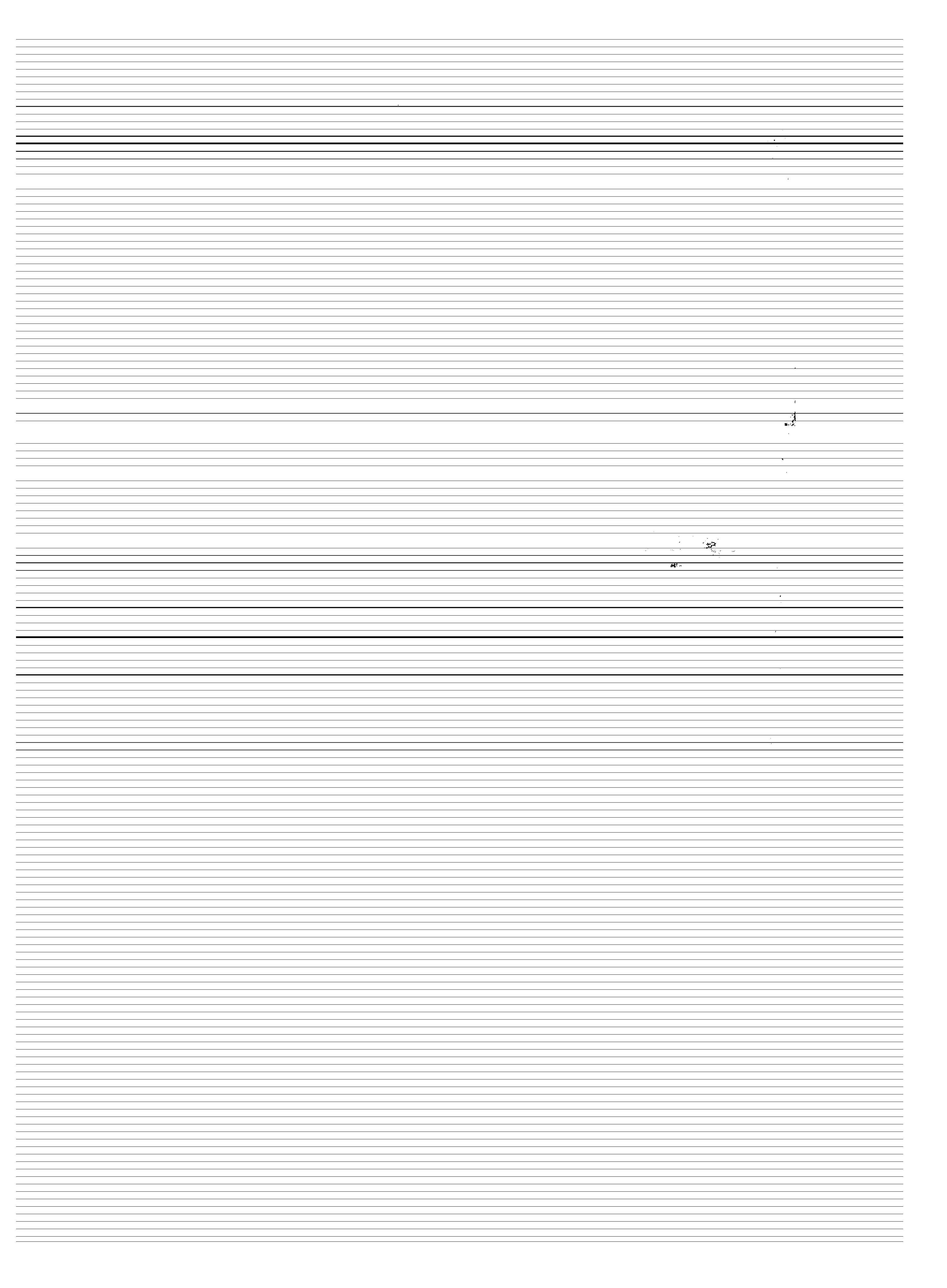




الناشر دار الإسلام بالقاهرة

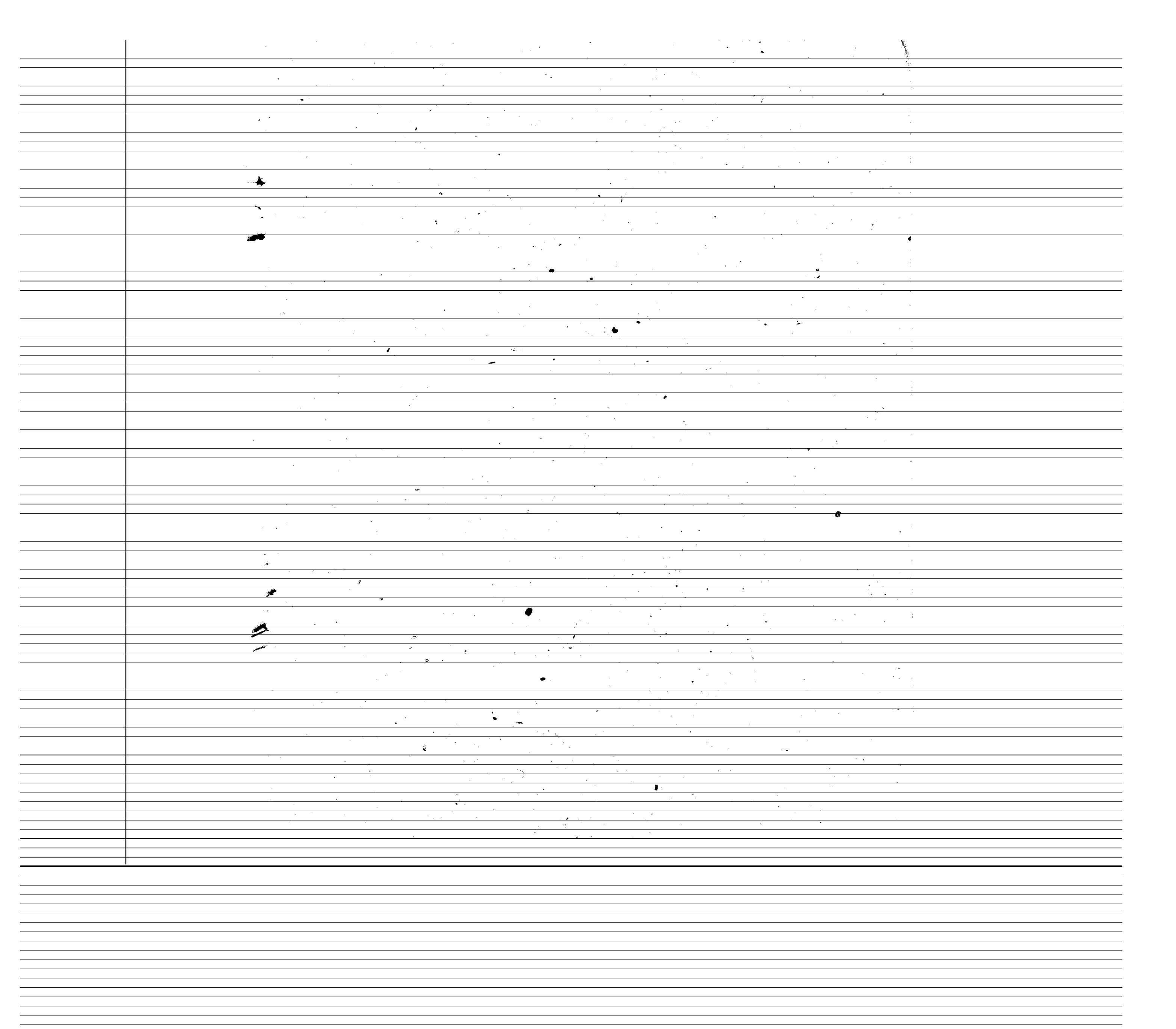


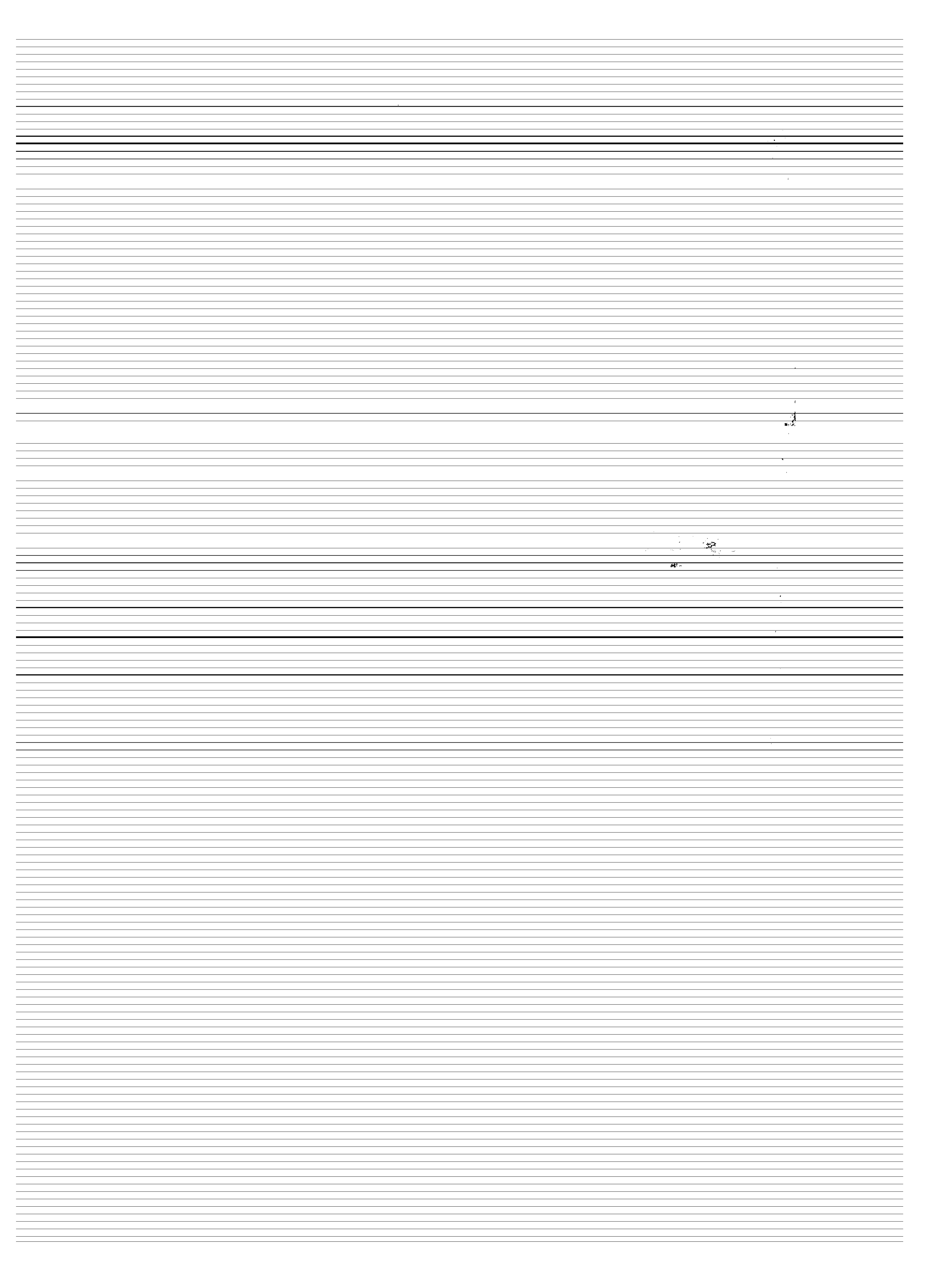


بسم الله الرحمن الرحيم

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم . ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

صدق الله العظيم





مقـــدمة

حظيت مكة منذ القدم باول بيت وضع للناس « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . وقد اكسبها هذا البيت من الخصائص والميزات ما سجله القرآن المجيد على لسان ابراهيم عليه السلام : « ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وقد استجاب الله العلى القدير دعوة خليله ابراهيم ، فبارك جلت قدرته حولها . وشاد فى القرآن بذكرها ، فجعلها مثابة للناس وامنا وملاذا للاسلام وحصنا ، حييت به الأمة الاسلامية وذاع صيتها فى أنحاء المعمورة ، وطهرت به النفوس من أوزارها وضرعت فيه الى ربها فأفاض عليها من الهدايات الروحية والكمالات الخلقية والمنافع الدنيوية والأخروية ، ما لا يدخل تحت الضبط ولا يحصره العد ....

كان محمد رسول الهدى ، يرى وطنه الجريح تمور فيه الأحقاد ، تمزقه الحروب والمنازعات القبلية ، ويرى قومه غارقين فى حمأة الجهالة ، متمسكين بأهداب الخرافات والطقوس المنحطة ، ويراهم قوما قساة القلوب ، لا يرعون حرمة لقانون ، مع كل ما يتحلون به من الفضائل البدوية ، وقد شاهد بنفسه فى أثناء الرحلتين اللتين قام بهما الى الشام ، مظاهر الفقر الخلقى والاجتماعى الذى يقصر البيان عن وصفه ، وشاهد الطوائف والمذاهب الدينية المتعارضة التى كانت تتناحر وتتنازع على جسم الاله الذى يدعون انهم يعبدونه وسرت عدوى نزاعها الى قلب الجزيرة العربية فى بوادى الحجاز

وحواضره فمزقت شمل المدن العربية بما بثتفيها من البغضاء والشقاق وكانت الصورة التى ارتسمت أمامه صورة قاتمة اذ كان لأهل مكة ولع شديد بالخمر والميسر ، واحترف الرقص والغناء طائفة من الجوارى يقال لهن القيان صار فجورهن مضرب الأمثال ، ومع ذلك كانت لهن منزلة رفيعة عند القوم !! .

وكان من عادة العربى أن يتزوج ما طاب له من النساء دون عدد محدد ، كما كان الابن يرث أرملة أبيه — غير الأم — فيما يرث من تركته بعد وفاته ، ومن عاداتهم وأد البنات أحياء !!

وكانت مكة اذ ذاك مركزا لوثنية واسعة النطاق تتشعب فروعها فى سائر قبائل جزيرة العرب . واتخذت كل قبيلة أصناما لهم وجعلوا لها طواغيت خاصة ، وكان سدنة هذه الطواغيت وكهنتها يتلقون من أتباعهم القرابين العظيمة ، وكثيرا ما كانت المعارك الدموية تنشب بين عبدة هذه الأصنام ، ولكن مكانة الكعبة ظلت مصونة فى قلوب الجميع حتى لقد كان اليهود والصابئون يقدمون لهـا القرابين ، وتنافست القبائل العربية على سدانة البيت لأنهم كانوا يرونها أشرف الوظائف فضلا عما تغدقه على السدنة من المزايا الجليلة ، وكانت سدانة البيت فى أهل الرسول الكريم حين مولده ، كما كان جده الوقور على رأس الحكومة الدينية التى تألفت حول الكعبة .

جاء محمد يدعو الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومضى يشق طريقه وسط الأشواك ، لا ينى فى دعاء قومه الغارقين فى حمأة الآثام الى الاقلاع عن اتيان الخبائث والمنكرات ، وهو فى كل ذلك يقرع الأسماع بزواجر وعظة ، يخلب الألباب بألفاظ حسان تتفتح لها القلوب قبل الآذان ، فيقص عليهم كيف كانت عاقبة عاد وثمود الذين كذبوا بالوعيد ، ويحدثهم عن غضب السماء على قوم نوح

الذين كسبوا السيئات ، ويقسم لهم بعجائب الآيات الكونية ، طورا يقسم بالضحى والليل اذا سجى ، وتارة يقسم بالليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى ، لعلهم يصيخون الى صوت النذير ، قبل ان يحل بهم ما حل بغيرهم من الهلاك ، ثم يذكرهم بيوم الدين ، يوم توزن اعمال العباد أمام أحكم الحاكمين ، يوم تسأل الموءودة بأى ذنب قتلت ، يوم تبدل الأرض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار . ويذكر لهم ما فى الآخرة من ثواب وعقاب .

دخل الناس فى الاسلام افواجا ، واستحوذ الفزع على قريش اذ ايقنوا ان الدعوة المحمدية انما هى حركة ثورية خطيرة (١) توشك ان تطيح بما لهم من نفوذ ومكانة ، اذ كانوا حراس الأصنام التى يهدد محمد بتحطيمها ، وسدنة العبادة التى يعلن النكير عليهـا ، وكانت حياتهم نفسها رهنا ببقاء الأوضاع القديمة دون أن تمس ، ولو صح ما يتنبأ به محمد لامحى نفوذهم ، اذ كان الداعى الجديد ديمقراطى النزعة ، يقول بأن الناس سواسية أمام الله ، وهـذه المساواة تتنافى مع جميع تقاليدهم ، فلم يكن لديهم الاستعداد لقبول شىء منها ، اذ كانت تنذر بزوال ما يتمتعون به من امتيازات خاصة ، ولذلك رأوا أن الضرورة تقضى باتخاذ وسائل عاجلة لخنق هذه الحركة قبل استفحالها . فخفت الأرستقراطية القرشية بقضهـا وقضيضها ، لاطفاء هذه الشعلة قبل امتدادها .. وراحت قريش تتهكم على الرسول الكريم ، وتسخر منه ، وتسأله عن معجزاته التى تثبت رسالته ، فماله لا يحيل الصفا والمروة ذهبا ، ولا ينزل عليه الكتاب الذى يتحدث عنه مخطوطا من السماء ، ولم لا يحيى الموتى ، ولا يسير الجبال حتى لا تقل مكة حبيسة بينها ، ولم لا يفجر ينبوعا أعذب من زمزم ماء .

---

(١) روح الاسلام تأليف سيد امير على وترجمة امين محمود الشريف ص ١٠٤ .

فرد الوحى لجاجهم بما أنزل على محمد من قوله تعالى :

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون (١) » .

وجعل الاسلام يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين .

ولمـا راى الرسول ما اصاب اصحابه من البلاء ، اذن لهم رحمة بهم وشفقة عليهم بالهجرة الى الحبشة .

وجدت دعوة الرسول بيئة صالحة فى يثرب ، وفتحت المدينة قلبها وعقلها لدعوة الحق الذى جاء به محمد من عند ربه ، واخذ المسلمون يهاجرون سرا الى يثرب ، وهم على ثقة بأن الله معهم ، يؤيدهم بنصره ..

وما كانت الهجرة فى نظر الرسول ، ولا فى نظر اصحابه ، ركونا الى الدعة والهدوء ، أو ميلا الى الراحة والسكون ، وانما كانت محاولة مصممة على قيادة المعركة فى سبيل الله ، من جبهة اخرى .
وخاض المسلمون عدة معارك ضد أعداء الحق .. والحياة الجديدة الطاهرة التى يدعو اليها محمد .. وانتصر الحق .. وزهق الباطل.
وانتشر الاسلام فى كل بقاع الأرض .

* * *

وهذا الكتاب يلم بتاريخ مكة منذ اقدم العصور الى اليوم ، ويرسم صورة واضحة القسمات لمجتمع مكة الذى كانت تمزقه الحروب والفتن ، والذى كان يرسف فى أغلال الظلام ، والتاخر ، والانحلال .

---

(٢) سورة الاعراف : ١٨٨ .

ولما بعث الرسول الكريم ، تبدد الظلام ، وأشرق نور الهداية والحق . بيد ان اعداء الحياة حاولوا جهدهم اطفاء الشعلة المقدسة التى تنير الطريق للانسان ليتحرر من الأوهام والخرافات . وقد واجه الرسول ، والذين آمنوا معه مؤامرات الارستقراطية القرشية واليهود ، حتى يظهر الله الدين القيم ويتم نعمته على الناس أجمعين .

ويتحدث الكتاب عن الأماكن المقدسة فى مكة : الكعبة المعظمة . فيروى تاريخ الكعبة منذ قيامها على يد ابراهيم وولده اسماعيل بأمر من الله عز وجل . وقد اصبحت الكعبة بيتا لله ومركزا لعقيدة التوحيد .

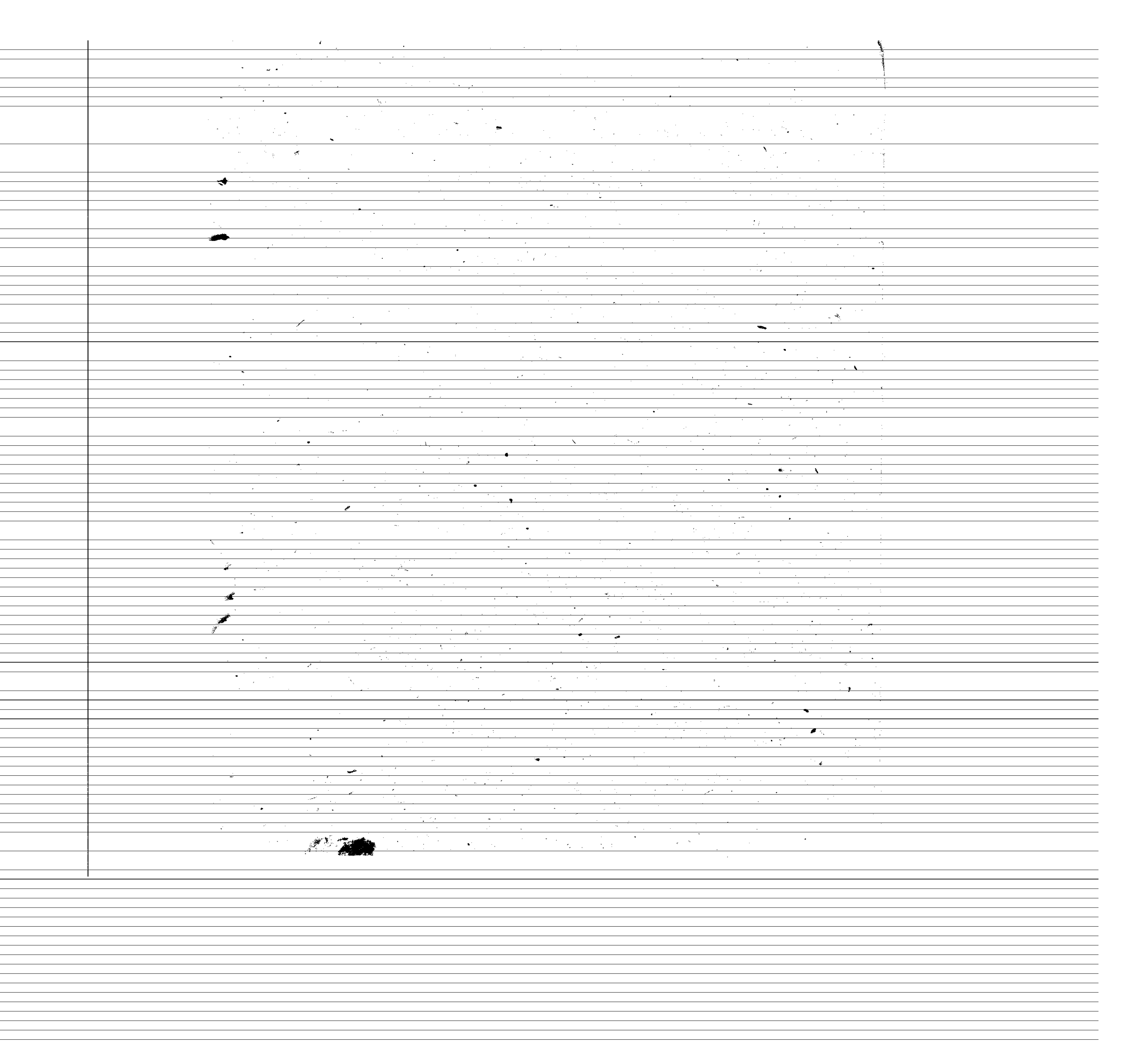
ودرسنا دور الكعبة فى تطور مدينة مكة وحضارتها ، وارتفاع شأن قريش فى الجزيرة العربية ، ثم تكلمنا عن الأحداث التاريخية التى ادت الى ظهور الوثنية ، ثم شهدنا شروق شمس الاسلام التى أنارت أرجاء الجزيرة العربية ، وعم نورها انحاء المعمورة كلها . فبدأت الكعبة تدخل فى دور جديد وعادت كما كانت بيت الله الحرام ، ومقصد الحجاج المسلمين . ويتحدث الكتاب أيضا عن المسجد الحرام ، والحجر الأسود ، ويدحض الزعم القائل بأن الحجر الأسود من بقايا عهد الوثنية .

ويلم الكتاب بآثار مكة ومساجدها : بئر زمزم ، ومولد الرسول الكريم ، ودار خديجة رضى الله عنها ، ودار الأرقم ، وغار حراء ، وغار ثور ، ومسجد الخيف ، ومسجد الكوثر ، ومسجد الكبش ، ومسجد البيعة ، ومسجد منى ، ومسجد نمرة ، ومسجد الصخرات .

ويتحدث الكتاب عن الحج ومناسكه فى الاسلام .

أرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت اليه ، والله ولى التوفيق .

محمود على الشرقاوى



الفصل الأول

مكة المكرمة

مكة مدينة قديمة ، وقد فسر المؤرخون واللغويون العرب اسم مكة تفسيرات كثيرة لغوية وغير لغوية استنبطوها من مكانة الكعبة وقدسيتها فى نفوس العرب (١) .

قال ياقوت فى معجمه :

(انما سميت مكة لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى ناتى مكان الكعبة فنمك فيه أى نصفر فيه صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم اذا طافوا بها ، والمكاء « بتشديد الكاف » طائر يأوى الرياض) .

وقال الأصمعى :

(.... انها من تمككت المخ اذا استخرجته لأنها تمك الفاجر عنها او انها « بكة » لأن الناس يبك بعضهم بعضا فيها اى يتدافعون ويتزاحمون ومن ذاك قول الشاعر :

اذا الشريب اخذته اكه　　فخله حتى يبك بكه (٢)

وقيل فى اسم مكة ان أصله (امتك) الفصيل ما فى ضرع أمه اذا لم يبق فيها شيئا ، فسميت القرية مكة لقلة مائها ، كما سميت المعطشة ، وسميت فى القرآن بكة — لأنها تبك أعناق الجبابرة اى تدقها (٣) .

---

(١) السهيلى : الروض الأنف ج ١ ص ٨١ .
(٢) الاكة : الشدة ، وقيل : هى شدة الحر ، وقيل شدة الالم ، واكاك الدهر : شدائده .
(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٤٩ .

ومن أسمائها أيضا : أم القرى — والبلد الأمين — وام رحم، لأن الناس يتراحمــون فيها ويتوادعون ، والباسة ، لأنهــا تبس الظالم أى تحطمه — والناسة لأنها تنس الملحد فيها أى تطرده — والحاطمة لأنها تحطم الظالم ، والراس ، وكوثى ، وأم كوثى، والقدس والقادس والمقدسة،وفاران ، والوادى،والحرم ، والعرش، ومعاد ، وطيبة . قال النووى « لايعرف فى البلاد بلدة اكثر اسماء من مكة والمدينة » وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، ولا عجب فان الاسلام جعل لمــكة والمدينة من الشهرة ماجعل المؤرخين يتبارون فى التدليل عليها بكثرة الأسماء .

وقد ورد اسم مكة فى المصادر اليونانية والرومانية القديمــة ، فذكرها بطليموس الاسكندرى باسم ماكورابا Macoraba

ولما كانت قبائل الجنوب هى أول من ســكن هــذا الوادى فالأرجح أن اسمها أخذ من لغة الجنوب مستندا الى البيت الحرام، فمكة أو « مكرب » كمــا ذكرها بطليموس كلمــة يمنية مكونة من « مك » و « رب » ومك بمعنى بيت فتــكون مكرب بمعنى « بيت الرب » ومن هذه الكلمة اخذت مكة أو بكة بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب .

ويقول المؤرخ بروكلمان :

(.... انها مأخوذة من كلمة « مقرب » العربيــة الجنوبية ومعناها الهيكل ، وفى التعليق على هــذه الكلمة يقول صــاحب الحاشية « لقد سمى القرآن مكة بكة ، وبكة هى الوادى ومكة لغة اخرى ، ومنه « بعلبك » بمعنى وادى البعل . وهذا أدل على مركز مكة ، لأن مكة فى واد غير ذى زرع ، ثم ان « ماكورابا » — أو على الأصح « ماكارابا » حسب اللهجة الآرامية الشرقيــة

لا السريانية الغربية — يصح ان تعنى الوادى العظيم أو وادى الرب ولعل بطليموس اخذ الاسم من طريق الآراميين (١)) .

ومن المعروف ان القرآن الكريم ذكرها بعدة أسماء فهى :

بكة : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهـدى للعالمين » .

وهى مكة : « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم » .

وهى أم القرى : « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيـا لتنذر أم القـرى ومن حولها » وهى البـلد الأمين : « والتين والزيتـون وطور سينين وهذا البلد الأمين » وهى البلد : « لا اقسـم بهـذا البلد . وانت حل بهذ البلد (٢) »

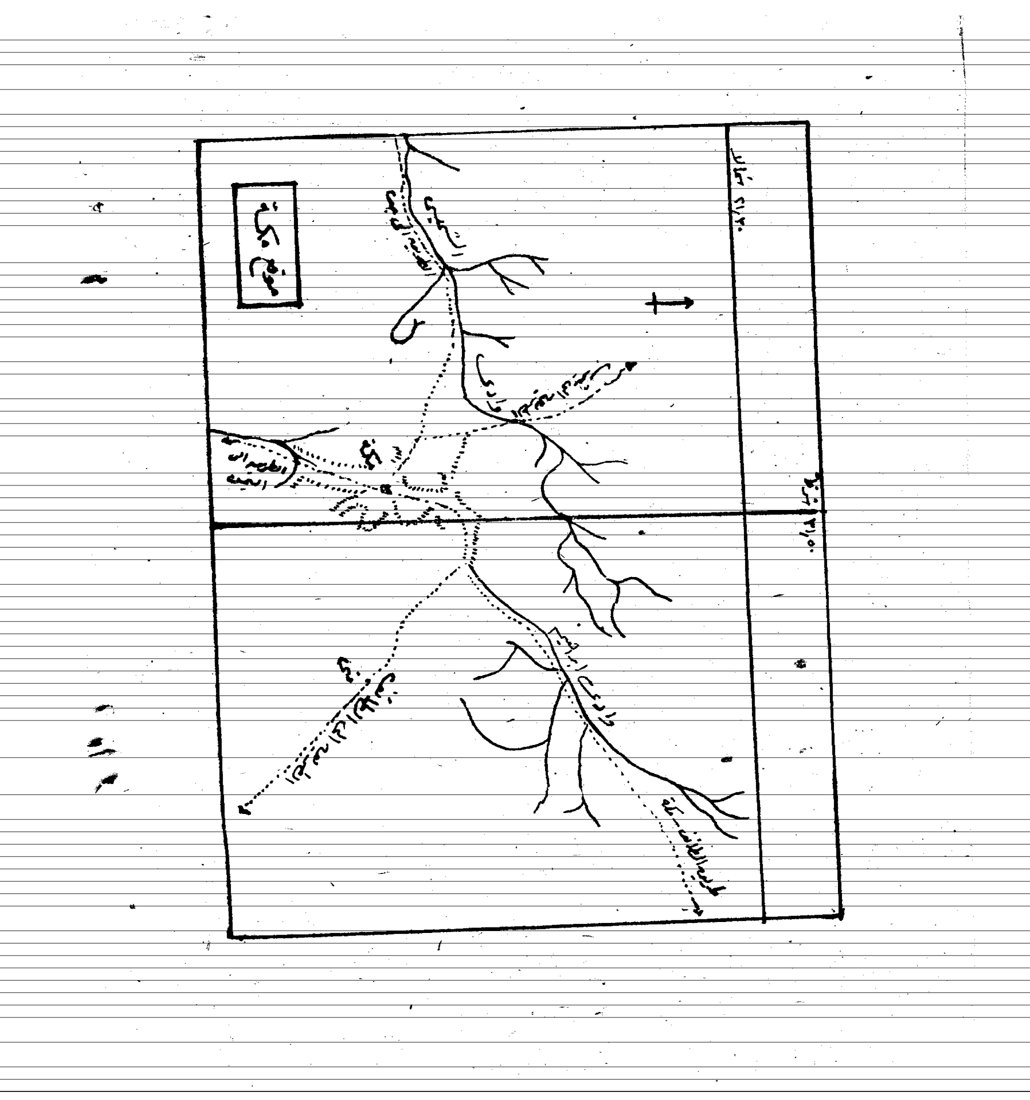
* * *

فى منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام ، تقـوم مكة المكرمة فى واد لا زرع ولا ضرع فيه تكتنفها من كل جهاتها جبال صخرية جرداء متباينة الارتفاع : وهى تقع عند تقاطع خط عرض ٢١ ونصف شمالا بخط الطول ٣٩ ونصف شرقا ، وتمتد من الغرب الى الشرق على مسافة ثلاثة كيلو مترات طولا وما يقرب من نصف ذلك عرضا فى واد مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبـال تكادان تتصلان ببعضهما من جهـة الشرق والغرب والجنوب أعنى على ابواب مكة الثلاثة ، ولذا لا تشـاهد

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ٣٣ .

(٢) اقسم بمكة لتفخيم شانها ، وصرح بذكرها — على طريق الاشارة اليهـا مرتين — لزيادة التفخيم واتى بجملة — « وانت حل بهذا البلد » واعترض بها بين العاطف والمعطوف ليفيد ان مكة عظيم شانها جليل قدرها فى جميع الاحوال (راجع تفسـير جزء عم للاستاذ الامام محمد عبده) .



ابنيتها للقادم عليها الا وهو على ابوابها ، والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج غربا ثم جبل قعيقعان ثم جبل الهندى ثم جبل لعلع ثم جبل كداء وهو فى اعلى مكة ومن جهته دخل الرسول صلى الله عليه وسلم البلد حين الفتح . أما الجنوبية فانها تتركب من جبل أبى حديدة غربا ثم يتلوه جبلا كدى وكدى بانحراف الى الجنوب ثم جبل أبى قبيس الى شرقيها ثم جبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم عامرة بالبيوت والمساكن التى تتدرج عليها الى قلب الوادى . وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة ، فهناك دار ابن عباس فى المسعى على يمين السالك الى المروة وفى الشرق الشمالى للحرم آثار دار أبى سفيان المشهورة فى الجاهلية والاسلام ، وقد جعل لها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الفتح شانا عظيما حيث جعلها حرما محترما كل من دخلها من المشركين كان آمنا .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلا الى الجهة الجنوبية مما يلى جبل أبى قبيس وفى هذه الجهة دار الخيزران يتلوها شرقا شعب بنى هاشم ويسمونه شعب على ثم شعب المولد ثم شعب بنى عامر وفى هذه الجهة كانت مساكن بنى عبد المطلب . أما باقى قريش فكانوا فى الجهة الأخرى من الحرم خصوصا جهة الشمال ومن دونهم باقى أهل مكة .

وجو مكة شديد الحرارة قليل الأمطار ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التى تنزل بكثرة فى الجبال العالية المحيطة بالطائف . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أقام فى شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن المدينة وانصرافها الى الجهة الشرقية نحو المسفلة ومنها تسير الى خزان كبير فى الجهة الجنوبية يسمونه بركة ماجن وتستعمل هناك للأعمال

الزراعية وكثيرا ما كانت لهذه السيول اضرار جسيمة بمكة ومبانيها (١) .

ويشرب أهل مكة من ماء الآبار التى فيها مثل زمزم أو التى فى ضواحيها مثل الزاهر والعشقلانى وغيرهما أو من الصهاريج التى تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع أو من عين زبيدة التى يجرى ماؤها الى المدينة فى قنوات تحت الأرض لها خزانات فى شوارعها تسمى البازان . وهذه العين لها أهمية عظيمة ، وهى من أجل الآثار التى تنسب الى السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد. وكان السبب فى انشائها أن هذه السيدة رأت فى حجها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد لقلة الماء فى تلك الانحاء فأمرت باجراء الماء الى أم القرى من عين حنين التى توجد فيما وراء عرفة الى جهة الشمال على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلو مترا من مكة . وهذه العين تخرج من جبال طاد وتسير فى وادى حنين (الذى حصلت فيه فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة تلك الواقعة المشهورة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من هوازن وثقيف وثبت فيها الرسول ثباتا عظيما كما أبلى المسلمون فيها بلاء حسنا) .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الجليل اهتماما كبيرا . وارسلت اليه العمال من جميع انحاء البلاد الاسلامية فبنوا لهذا الماء مجرى عظيما واوصلوا به مجرى آخر من وادى النعمان من الماء الذى ينزل اليه من جبال كدى التى تبعد عن عرفات شرقا الى الجنوب بنحو عشرة كيلو مترات وسيروا اليه سبع قنوات اخرى من الجهات التى تسقط اليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الأصلى

---

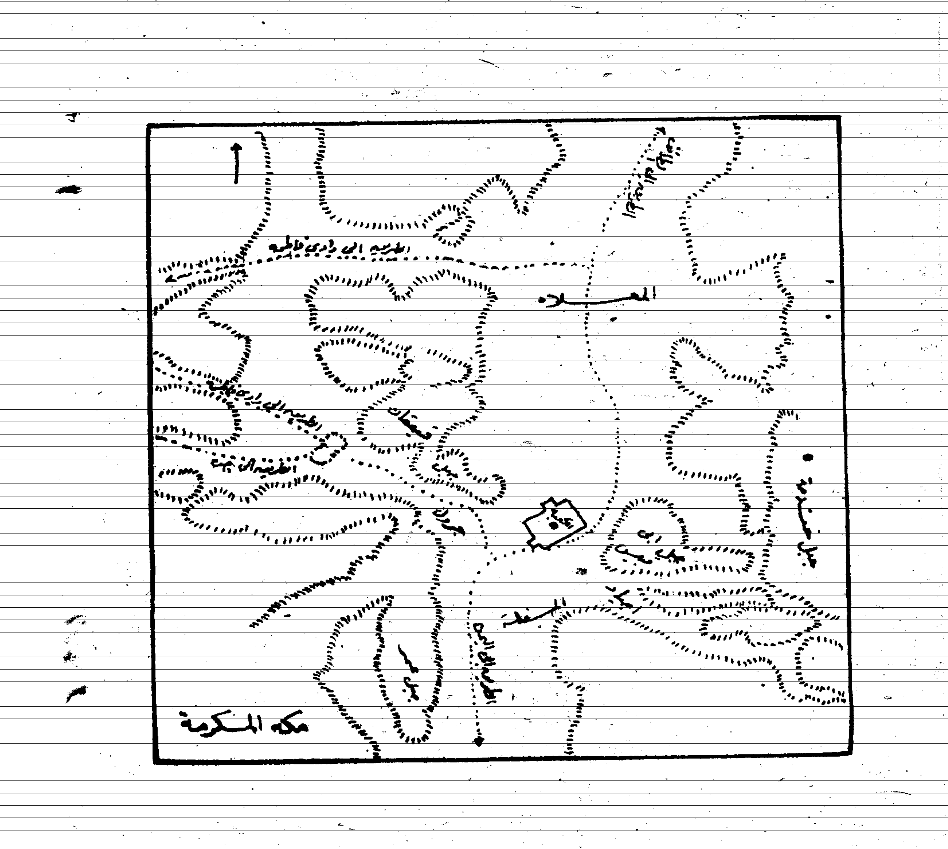
(١) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٦٦ .

الذى وصل الى جنـــوب منى وحفر له هناك بئر كبير فى الصـــخر يصب فيه يسمى بئر زبيدة . ومن هذا المجرى امتد فرعان واحـــد الى عرفات والآخر الى مسجد نمرة يسير الماء فيهما زمن الحج .

ويقول مؤلف « الرحلة الحجازية » (١) : « ولم يعرف الناس قيمة هذه العين المباركة الا فيما بين سنة ٩٣٠ وسنة ٩٧٠ فانها اهمل امرها فى هذه الآونة فطم مجراها وتهدم بنيانها وسدت منافذها وانقطع ماؤها ونال الناس من الأهوال شىء ما كان يخطر على البال وقد بلغ ثمن زق الماء (قربة صغيرة تسع ٣ لترات تقريبا) فى عرفة فى غضون هذه المدة ليرة ذهبية . وسبب اهمال هذه العين فى هذه المدة ان ملوك مصر هم الذين كانوا يعتنون بها ويقومون بعمارتها فى الغالب فلما تغيرت الأحـــوال ودخلت مصر مع أرض الحجاز سنة ٩٢٣ ضمن املاك الدولة العثمانية التى كانت تشغل كل وقتها كثرة حروبها الخارجية أهملت الدولة ترتيبهـــا لداخلية حكومتها خصوصا ما كان بعيدا عنها ، ولكن أهل الحرمين الشريفين قاموا فى سنة ٩٦٩ والتمسوا من السلطان سليمان اصلاح العين المذكورة وهنالك رجته كريمته مهرماه سلطان أن يشرفها باجراء هـــذا العمل من مالها الخاص وعينت مديرا للقيام بهـــذه المهمة . فسافر من وقته الى مكة .... وأمر بحفر القناة وتنظيف فروعها وبناء ما تهدم من مجراها ولـــا وصل الاصلاح الى بئر زبيدة بمنى اراد أن يســـير به الى مكة فاضـــطر الى النزول فى هـــذا الجبل الصخرى على مسافة نحو خمسة وعشرين مترا من سطح الأرض فى مســـافة طولها أكثر من كيلو متر ثم سيرها فى حضن الجبل القبلى حتى أوصلها الى مكة سنة ٩٧٩ . وفضل ماء زبيدة يســـير

---

(١) ص ٦٨ .



الطريق الى وادي فاطمه
المعلاه
الطريق الى جدة
جبل عمر
المسفلة
جبل خندمة
مكة المكرمة

الى المسفلة حتى يصب فى بركة تسمى ماجن وهناك يستعمل فى سقى بعض البساتين والمزروعات » .

وقد وصف ياقوت فى معجمه مكة المكرمة فقال :

« هى مدينة فى واد والجبال المشرفة عليها من جميع النواحى محيطة حول الكعبة وبناؤها من حجارة سود وبيض ملس وعلوها آجر كثيرة الأجنحة من خشب الساج وهى طبقات لطيفة بيضة حارة فى الصيف الا أن ليلها لطيف . وقد رفع الله عن أهلها مؤونة الاستدفاء وأراحهم من كلف الاصطلاء .

وما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة وعرضها سعة الوادى . والمسجد فى ثلثى البلد الى المسفلة . والكعبة فى وسط المسجد . وليس بمكة ماء جار . « الا ماء زبيدة » ومياهها من السماء وليست لهم آبار يشربون منها هكذا ! ! .

واطيبها بئر زمزم ولا يمكن الادمان على شربها لكثرة أملاحها وليس بجميع مكة شجر مثمر الا شجر البادية ، فاذا جزت الحرم ، فهناك عيون وآبار وحوائط كثيرة وأودية ذات خضر ونخيل ، وأما الحرم فليس به شجر مثمر الا نخيل يسيرة متفرقة » .

ووصف ابن جبير ، مكة ومناحيها المختلفة ، وخيراتها وثمارها ، ومما قاله فى ثرواتها الاقتصادية : [وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب . وقد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق ، وضرب نواحى الاقطار ، أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا ، وما ذاك — والله أعلم — الا لبركة مراعيها ، هذا على افراط سمنة ، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهى الى ذلك المنتهى فى السمن للفظته الأفواه زهما ، ولعافته وتجنبته . .

والأمر فى هذا بالضد ، كلما ازداد سمنا زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولا ، فنجده هنيئا رخصا ، يذوب فى الفم قبل أن يلاك مضغا ، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاما] » .

وقال فى وصف ما اشتهرت به مكة من رطب جنى حتى طار صيته فى الآفاق :

« ومن أغرب ما الفيناه ، فاستمتعنا بأكله . وأجرينا الحديث باستطابته — ولا سيما لكوننا لم نعهده — الرطب ، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجرة . يجنى ويؤكل .

وهو فى نهاية من الطيب واللذاذة . لا يسأم التفكه به ، وابانه عندهم عظيم ، يخرج الناس اليه كخروجهم الى الضيعة ، او كخروج اهل المغرب لقراهم ايام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عند تناهى نضجه ، يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلا ، ثم يركم بعضه على بعض فى السلال والظروف ويرفع » .

اليمامة ريف مكة :

حين أسلم ثمامة بن اثال الحنيفى سيد بنى حنيفة خرج الى مكة يعتمر فى العام الخامس للهجرة ، فلما قدم على قريش قالوا : صبوت يا ثمامة . قال : لا والله ولكنى اسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم .. لا والله ما يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله . وانصرف الى بلاده ومنع الحمل الى مكة حتى جهدت قريش وكتبوا الى رسول الله يسألونه بأرحامهم ان يكتب الى ثمامة يخلى اليهم حمل الطعام ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من هذا النص يستدل على ما كان بين مكة واليمامة من علاقات تجارية أساسها حاجة مكة لحنطة اليمامة ووفرة انتاج الحنطة فى اليمامة .

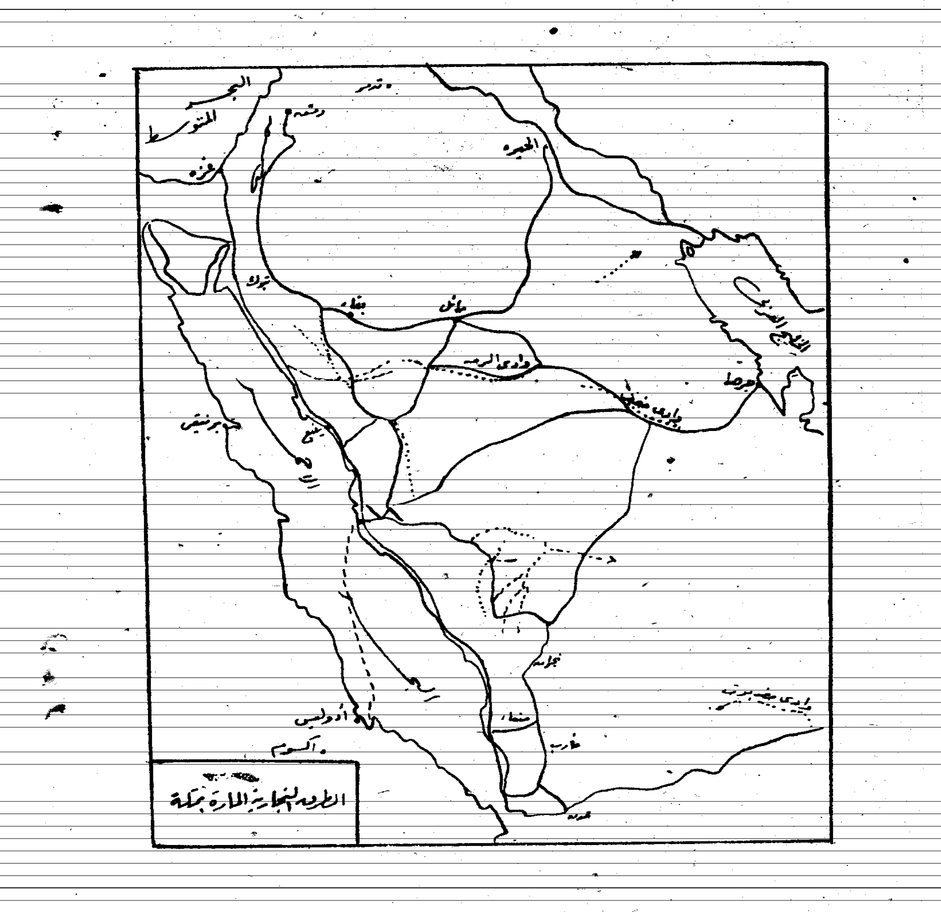
وتقع اليمامة فى سمت الشرق من مكة وهى فى مستوى من الأرض ووادى اليمامة به الحنطة والشعير والتمر وقصبة اليمامة وأم قراها « حجر » حيث كان يقام سوقها وهى مصر اليمامة عامة وفى وسطها .

ومن اليسير أن ندرك السبب فى اختصاص اليمامة بوفرة الانتاج الزراعى ، اذا ما عرفنا انها تقع فى مغيض وادى حنيفة ذى الروافد العديدة والتى تصل منابعها ما بين جبال طريق غربا وهضبة العرمة شرقا بين خطى عرض ٢٤° ، ٢٦° شمالا . ويبلغ طول وادى حنيفة ٢٥٠ ميلا ويجرى موازيا له من الشمال الى الجنوب عدة اودية . وهذه الوديان جميعها تنتهى فى منطقة الخرج أو منطقة اليمامة . وعلى هذا الوادى وفروعه قامت الكثير من القرى والواحات التى استطاعت بفضل المياه السطحية السارحة والتى تجرى فى الوديان عقب سقوط الأمطار أن تقيم زراعات الحنطة والشعير والنخيل ، ويعد وادى حنيفة من اهم وأطول أودية الجزيرة العربية ولا تقتصر موارد المياه فى هذه المنطقة على المياه السطحية بل هناك عدة آبار لرفع المياه الجوفية السطحية والأخرى العميقة . وعلى هذا فقد توافر للانتاج الزراعى المياه الوفيرة — وهى أهم مشاكل الانتاج فى النطاق الصحراوى — وكذلك السطح المستوى والتربة الغنية بفضل ما تجرفه الوديان من مفتتات الصخور .

وقد كانت اليمامة تصدر الحنطة الى اجزاء أخرى من الجزيرة العربية غير مكة وخاصة جهات الاحساء .

الطائف ريف مكة :

تقع فى جنوب شرقى أم القرى وعلى ارتفاع يبلغ ٥ آلاف قدم وعلى بعد ٧٥ ميلا من مكة حيث تأخذ سلسلة المرتفعات الغربية



الطرق التجارية المارة بمكة

فى الجزيرة العربية فى الارتفاع والاتساع مع التعقيد فى السطح وكذلك مع زيادة مطردة فى المطر.

والطائف صالحة للزراعة ، وطيبة الهواء . وقد اشتهرت منذ القدم انها بستان مكة . ورغم كثرة أنواع شـجرها المثمرة الا أن اكثر ثمارها الزبيب لما يزرع فيها من الأعناب وان كان من حاصلاتها الرمان والتين والموز والبطيخ والزيتون والسفرجل ومن ورودها كانت مكة تأخذ حاجتها من الطيب .

والطائف بهذا كله واحة خصيبة تشتهر الى جانب بساتينهـا بالخضر والقمح والشعير .

وقد كان لقربها من مكة اثره فى انها كانت من ريف مكة . وكان اهل مكة يستهلكون كثيرا من أعناب الطائف ورمّانها ويجلبـون منها الخمور والزبيب والأدم (الجلود المدبوغة) . وتتصل مـكة بالطائف عن طريقين احدهما يمر بالزيمة والسيل الكبير (الطريق الشمالى) والثانى يمر بمنى والمزدلفة وعرفة .

وقد كان لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها على ما ذكر البلاذرى فى فتوح البلدان . وقد كان للعباس — عم الرسول صلى الله عليه وسلم — أرض بالطائف .

وكانت هناك علاقات طيبة بين قريش فى مكة وثقيف فى الطائف حيث تجمع بينهما المصالح المشتركة فقد كان الثقفيون يشـاركون فى قوافل مكة التجارية .

وادى فاطمة والوديان المتصلة به :

يتكون وادى فاطمة من التقاء وادى نخلة اليمانية الذى ينحـدر من السيل — قرب المنازل قديما — فى الطريق الشمالى بين مـكة والطائف — فيمر بقرية الزيمة حيث يجتمع عند سولة بوادى نخلة

الشامية الذى يأتى من الشمال الشرقى فيكونان من الظهـــران وادى فاطمة الآن) ويتجه الوادى بعد ذلك الى الغرب فى شكل قوس يبعد عن شمال مكة ثم يتجه الى الجنوب الغربى قاطعا المسافة بين مكة وساحل البحر الأحمر عند بلدة جدة بعد أن يأتى من الشرق فى هذه المنطقة رافده وادى الشميسى الذى يبدأ شمال مكة ويمثل الطريق الطبيعى المسلوك بين مكة والساحل . ثم يتجه الوادى بعد جدة فى اتجاهه المذكور حتى ينتهى جنوب جدة حيث يصب غير بعيد من مكان الشعيبة عند الراس الأسود عند بلدة خمرة .

ويوجد فى وادى فاطمة عدد من الينابيع على طول امتـــداده وبخاصة على الجانب الشمالى وتتوفر به أيضا مقادير كبـــيرة من المياه تحت الرواسب الفيضية نتيجة لتسرب المياه الآتية من الينابيع أو السيول التى تنحدر من جبال الحجاز ، وهناك مساحات كبيرة من الأراضى الخصبة على جانبى الوادى يروى بعضها بالينابيع دون حاجة الى رفع المياه .

ومن هذه الأراضى الزراعية ما يوجد فى الزيمة وبطن مر وهى بقعة فيها عدة قرى ومياه تجرى ونخيل كثير . وهى تبعد عن مكة مسيرة يوم وهى على طريق مكة ــ المدينة الداخلى . والنخيـــل متصل من بطن مر الى وادى نخلة ومنهما ومن الطائف تجلب الخضر والثمار الى مكة . ومنه تحمل المياه عند الحاجة ــ الى مكة ــ أيام الحج .

وهناك جهات أخرى فى هذا الوادى بها مساحات زراعية مثل جـــــدة .

والوادى وروافده من أرباض مكة كانت من ظهير مكة لقربهـــا المكانى .

* * *

واهل مكة كلهم مسلمون ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التى نزلت فيها الآية الكريمة :

[ياايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] .

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه ينادى فى الموسم الذى أعقب نزول هذه الآية الكريمة : « الا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك »

وكان الهدف من ذلك منعهم من الحج وعدم دخولهم البلد الحرام التى بها تتم مناسكه لأنهم مع ما كانوا عليه من وساخة الضمير وخبث الطوية كانوا يلقون الشقاق بين قبائل العرب المسلمين ويوغرون صدورهم ويلقون الغل الى بطونهم بقصد التفرقة التى يكون من ورائها الضعف والوهن .

فلما أختار الرسول الرفيق الأعلى ، ارتدت العرب فى أطراف الجزيرة بعد عشرة أيام من بيعة ابى بكر وذلك بتأثير المشركين منهم حتى بلغ من أمر هؤلاء ان ادعى منهم طليحة بن خويلد النبوة فى الشمال والأسود العنسى فى اليمن ومسيلمة الكذاب مع سجاح فى اليمامة وغيرهم فى وسط البلاد .

واجه ابو بكر كل هذه الصعاب بما عرف عنه من حزم وعزم وغيرة على الدين . فبادر الى تسيير الجيوش الى المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، وعقد اللواء لقتالهم على إحد عشر قائدا فى وقت واحد (١) وهم :

١ — خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد ، فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٠ .

٢ ــ عكرمة بن ابى جهل ووجهته مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة .

٣ ــ المهاجر بن ابى امية ووجهته الأسود العنسى باليمن ومعونة الأبناء على قيس بن العاص .

٤ ــ عمرو بن العاص ووجهته قضاعة ووديعة والحارث .

٥ ــ سعيد بن العاص ووجهته الحمقتان من مشارف الشام .

٦ ــ حذيفة بن محصن الفلفانى وأمره بأمر دبا .

٧ ــ عرفجة بن هرثمة ووجهته مهرة .

٨ ــ شرحبيل بن حسنة بعثة فى اثر عكرمة بن ابى جهل علي أن يلحق بعمرو بن العاص اذا فرغ من بنى حنيفة فى اليمامة .

٩ ــ طريفة بن حاجز ووجهته بنو سليم ومن معهم من هوازن .

١٠ ــ سويد بن مقرن ووجهته تهامة باليمن .

١١ ــ العلاء بن الحضرمى ووجهته البحرين .

وأمر ابو بكر كل قائد بالمسير الى ناحية من نواحى بلاد العــرب بعد ان كتب له عهدا ، يأمره فيه :

« بالجد فى امر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى امانى الشيطان » وأمره « ان لا يرد المسلمين عن قتال عدوهم » وان « لا يقاتل الا من كفر بالله ورسوله » ، ثم نصحه « بأن لا يدخل فى المسلمين حشوا حتى يعرفهم ويعلم ماهم ، حتى لا يكونوا عيونا ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم (١) » .

واذاع ابو بكر فى الناس ، من اهل الجزيرة كتابا ، اشار فيــه الى وفاة الرسول فقال :

« انك ميت وانهم ميتون » وقال : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون » .

(١) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٢٢٧ .

وقال : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

اراد الصديق بتلك الآيات ، أن يرد بها على الفتنة التى شاعت فى الجزيرة حين قالوا : ان محمدا ان كان رسولا حقا ما مات !!

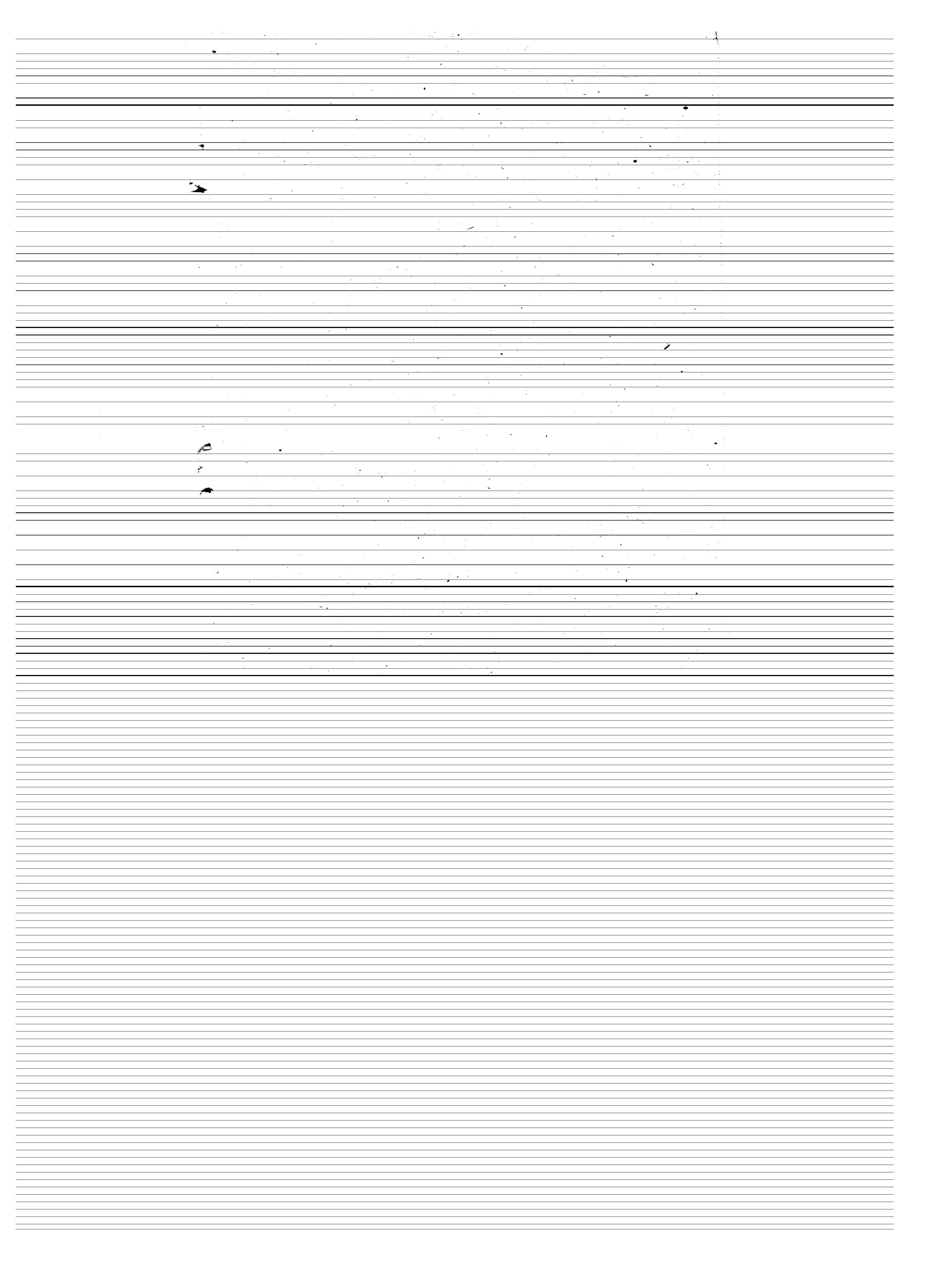
ثم قال فى كتابه : « وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن اقر بالاسلام وعمل به ، اغترارا بالله عز وجل ، وجهالة لأمره ، واجابة للشيطان .. وانى قد انفذت اليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار ، والتابعين باحسان ، وأمرته الا يقاتل احدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه واعانه عليه ، ومن ابى ان يقاتله على ذلك ، ولا يبقى على احد منهم قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد الا الاسلام ، فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد امرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم ، والداعية الاذان . فاذا اذن المسلمون فأذنوا ، كفوا عنهم ، وان لم يؤذنوا عاجلوهم ، وان اذنوا سالوهم ما عليهم ، فان أبوا عاجلوهم ، وان اقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى لهم (١) » .

بعث ابو بكر هذه الكتب مع الرسل الى المرتدين امام الجنود ، وخرجت الأمراء ومعهم العهود . وكان النصر للحق، وعلت كلمة الدين من جديد .

وبعد وفاة ابى بكر سار عمر بن الخطاب على نهجه فى تطهير بلاد العرب ممن كان على غير دين الاسلام .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .



الفصل الثانى

تاريخ مكة

يرجع تاريخ مكة الى ابراهيم صلوات الله عليه ، فقد أوحى الله اليه وهو فى خبرون بفلسطين أن خذ هاجر واسماعيل واخرج الى حيث أريك ، فحمل هاجر واسماعيل وهو رضيع وانطلق الى الجنوب الى الأرض التى أراد الله أن يبارك فيها للعالمين .

ونزل ابراهيم وهاجر واسماعيل بواد غير ذى زرع يطل عليه جبل قبيس ، لاماء ولا شجر ولا أنفاس حياة .

ونظر ابراهيم فاذا بربوة ، انها بيت الله المحرم قد اتى عليه الطوفان ، فأنزل هاجر واسماعيل فوق الربوة وراح يصنع لهما سكنا . ومكث ابراهيم معهما ما شاء الله ان يمكث ثم وضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاة فيها ماء وذهب منطلقا ، فتبعته هاجر وقالت :

ــ يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه انيس ولا شىء ؟

وسار ابراهيم لا يلتفت اليها ، وراحت هاجر تهرول خلفه وتقول :

ــ يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه انيس ولا شىء ؟

ولم يحر ابراهيم جوابا فهو ذاهب الى الله وانه يتركها لله لتتحقق مشيئته ، ان الله فعال لما يريد .

وانطلق ابراهيم لا يلوى على شيء . كان قلبه يفيض بالرحمة وهاجر تحرك شجونه وهى تهرول فى أثره وتقول له :

— يا ابراهيم اين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شيء ؟

وجعل ابراهيم لا يلتفت اليها حتى اذا ما عاد نور الله الى فؤادها قالت : آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

فقالت فى ثقة : فاذا لا يضيعنا .

وانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يريانه استقبل بوجهه البيت ورفع يديه وقال :

— « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

راحت هاجر تأكل من جراب التمر وتشرب من الماء ، حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها . ونظرت اليه وهو يتلوى من العطش فأحست بألم عميق ، وكاد عقلهـا يطيش ، وجعلت تتلفت فوجدت الصفا أقرب جبل اليها فهرعت اليه وقامت عليـه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سـعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ؟

وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات تتلهف على رؤية أحد ينقذ ابنها من الموت عطشا ، وما دار بخلدها فى تلك اللحظة التى استولى عليها فيها الجزع والهلع أن ملايين المؤمنين على

مر السنين سيسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تخليدا لذكرى ما كان فى ذلك السعى من بركة .

ولما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه !

تريد نفسها ، ثم أصاخت السمع فسمعت الصوت أيضا ، فانطلقت الى حيث كان ابنها فاذا بالماء قد ظهر عند قدميه ، فجعلت تخوضه فى فرح وتغرف الماء فى سقائها .

وشربت وأرضعت ولدها واذا بالملك عند زمزم فقال لها :

— لا تخافى الضيعة فان هذا بيت الله الحرام ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله .

ونزلت رفقة من جرهم فى طريق أسفل مكة فرأوا الطير على الجبل . فقالوا : ان هذا الطير لحائم على ماء ، فأشرفوا فاذا هم بالماء . فقالوا لهاجر : ان شئت كنا معك فآنسناك والماء ماؤك . فأذنت لهم . ، فنزلوا معها وهم أول سكان مكة ، فلذلك كانت العرب تقول فى تلبيتها :

لاهم ان جرهما عبادك الناس طارف وهم تلادك
وهم قديما عمروا بلادك (١)

وتزوج اسماعيل صدا بنت سعد وهى فتاة جميلة من العماليق ومرت الأيام واذا بالزوجة برمة بعيشها ، لا تطيق ما هى فيه من حرمان . فقد كانت تبحث عن السعادة فى زينة الحياة الدنيا

وكان الوادى الذى تعيش فيه جافا نضبت فيه متع الحياة .

وجاء ابراهيم يزور هاجر وابنه وزوجة ابنه ، ووقف ابراهيم أمام بيت اسماعيل وقال :

---

(١) الثعلبى : العرائس ص ٨٢ .

— السلام عليكم يا أهل البيت .

فلم ترد عليه صدا .

قال لها : هل من منزل ؟

— لا .

— كيف طعامكم ولبنكم وماشيتكم ؟

— نحن فى ضيق . أما الطعام فلا طعام ، وأما الشاة فلا تحلب الشاة بعد الشتاء المضير « اللبن » ، وأما المساء فعلى ما ترى من الغلظ .

— فأين رب البيت ؟

— فى حاجته .

— فاذا جاء فأقرئيه السلام وقولى له : غير عتبة بابك .

رأى ابراهيم أن زوجة اسماعيل فظة غليظة القلب لا تصلح أن تكون أما للذرية الصالحة التى سوف تحمل رسالة الله الى المشارق والمغارب ، فأمر ابنه أن يغير عتبة بيته ، أن يطلقها .

وطلق اسماعيل صدا بنت سعد ، وتزوج فتاة من مصر (١) .

وذات يوم أقبل ابراهيم لزيارة ابنه فانطلق الى بيته فألفى زوجه فقال :

— السلام عليكم ياأهل البيت ورحمة الله .

— وعليكم السلام . تفضل .

— هل من منزل ؟

— نعم ان شاء الله ، أنزل رحمك الله فاطعم واشرب .

— ما طعامكم ؟

---

(١) جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من التوراة : « واخذت له أمه زوجة من مصر » . وقال ابن هشام انها عاتكة بنت عمرو الجرهمى وقال الواقدى انها شامة بنت مهلهل .

ـــ اللبن واللحم .
ـــ فما شرابكم ؟
ـــ اللبن والماء .
ـــ هل من حب ؟
ـــ يكون ان شاء الله ونحن فى نعم .
ـــ بارك الله فى طعامكم .

وهبط ابراهيم وانطلق معها الى زمزم فأخذت تغسل له رأسه فقال لها : ـــ أين اسماعيل ؟

ـــ خرج مع امه يرعيان الغنم .

وعاد معها الى الدار ، حتى اذا انقلب اسماعيل الى أهله ورآه اباه هرع اليه يضمه ويرحب به . وقال ابراهيم لابنه :

ـــ اثبت عتبة بيتك فانها صلاح المنزل .

ورجع ابراهيم الى قومه وبقى اسماعيل فى خدمة البيت حتى مات وعمره ١٣٧ سنة ، ودفن فى المسجد الحرام ، فى الحجر حيال الموضع الذى كان فيه الحجر الأسود ، على مقربة من قبر أمه هاجر (١) .وبعد وفاة اسماعيل ، قام بالاشراف على الكعبة ابنه نابت ، ثم انفرد بالاشراف عليها بعض زعماء جرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد اسماعيل .

يروى ابن هشام ماحدث لأولاد اسماعيل بعد ازدياد عددهم فيقول :

« ثم نشر الله ولد اسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرهم ، ولاة البيت والحكام بمكة ، لا ينازعهم ولد اسماعيل فى ذلك لخئولتهم وقرابتهم ، واعظاما للحرمة ، أن يكون بها بغى او قتال ، فلما

---

(١) الطبرى : ج ١ ص ٢٢١ .

ضاقت مكة على ولد اسماعيل انتشروا فى البلاد فلا يناوئون قوما الا اظهرهم الله عليهم بدينهم ، فوطئوهم (١) » .

لبثت ولاية البيت فى جرهم حتى كبر سلطانهم وعظمت شوكتهم ، فعاثوا فى الأرض ، واستحلوا أموال الكعبة ، واضطهدوا من دخل مكة من غير أهلها (٢) .

ولما قدمت خزاعة من اليمن بعد تهدم سد مأرب ، احتكت بجرهم فتقاتلت القبيلتان وانتصرت خزاعة ووليت أمر البيت ، وخرجت عن هذا الوادى جرهم كما خرج أولاد اسماعيل حيث تفرقوا حول مكة وفى تهامة (٣) .

وقد بدأت مكة تتطور أيام خزاعة ، فقد عمل زعيم خزاعة « عمرو بن لحى » على تنشيط الحج الى مكة ، بعد أن كان أمر مكة قد تدهور ، والحج اليها قد قل بسبب بغى جرهم واعتدائها على القوافل والتجار والحجاج الذين يمرون بمكة أو يفدون اليها للتجارة والحج ، وبعد اهمال بئر زمزم التى يسرت المقام فى هذا الوادى القفر ، فأخذ عمرو بن لحى يطعم الفقراء من الحجيج ، ويجلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة ، ونال بذلك منزلة كبيرة بين قومه وبين القبائل الضاربة حول مكة (٤) .

ويروى المؤرخون أن عمرو بن لحى هو الذى أدخل عبادة الأصنام فى مكة ، فيروون أنه لما ساد قومه فى مكة وأصبحت له الولاية على الكعبة ، رحل الى مدينة البلقاء بالشام فى بعض أموره ، وبها يومئذ العماليق ، فرآهم يعبدون الأصنام .

---

(١) ابن هشام : ج ١ ص ١٢٥ .
(٢) الازرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ص ٣٦ .
(٣) الطبرى : ج ١ ص ١٨٧ .
(٤) ابن كثير : ج ٢ ص ١٨٧ .

فقال لهم : ماهذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟

قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا .

فقال لهم : افلا تعطوننى منها صنما فأسير به الى أرض العرب فيعبدونه ؟

فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة ، فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه (١) ويبدو أن الحنيفية دين ابراهيم كان قد ضعف أمرها حتى بين أبناء اسماعيل أنفسهم ، فقد ذكر اليعقوبى أن « الياس بن مضر وقد شرف وبان فضله ، كان أول من أنكر على بنى اسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم (٢) » . ووجد عمرو بن لحى استجابة وموافقة لفعله بين القبائل العربية.

وظلت خزاعة فترة طويلة من الزمن — قدرها بعضهم بخمسمائة سنة (٣) — تلى أمر مكة وتقوم على سدانة البيت ، وتعشر التجارة المارة بمكة ، وان ظلت بعض مناصب الحج فى يد بطون كنانة التى تنتسب الى اسماعيل والتى بقيت حول مكة (٤) .

استمرت خزاعة على ولاية البيت حتى قويت قريش وتغلبت عليها فى القرن الخامس الميلادى ، وكانت على درجة كبيرة من الرقى . فاستولى قصى بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٤٠ م من يد خزاعة وأجلاهم عنها بما كان له من العصبية ،

---

(١) ابن هشام : ج ١ ص ٨٢ .

(٢) اليعقوبى : ج ١ ص ١٨٧ .

(٣) ابن كثير : ج ٢ ص ١٨٣ .

(٤) ابن هشام : ج ١ ص ١٣١ .

فرحلت ونزلت فى بطن مر « وادى فاطمة » ومن ثم عظم نفـوذه واجتمعت له السقاية والحجابة والرفادة واللواء ولم تجتمـع فى رجل قبله (١) .

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشا الذين منهم قصى بن كلاب ، الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم ، هم من ولد كنانة ، الذى يرجع نسبه الى عدنان وينتهى الى اسماعيل عليه السلام . والى ذلك يشير الحديث الذى أثر عن الرسول : « اختار الله من اسماعيل كنانة ، واختار قريشا من كنانة ، واختار بنى هاشم من قريش ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار ».

ويذهب بعض الأخباريين الى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة الى أن تولى قصى أمرها ، ويعللون ذلك بأن جرهم وخزاعة لم يريدوا أن يكون الى جوار بيت الله بيت غيره ، وانهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم وانما كانوا يذهبون الى الحل (٢) . فلما تم الأمر لقصى جمع قريشا وأمرهم أن يبنوا بها ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت امرته ليتشاوروا فى أمور بلدهم . فقد كان من عاداتهم الا يتم أمر الا باتفاقهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل الا فى هذه الدار . وبنت قريش بأمر قصى حول الكعبة دورها ، وتركوا مكانا كافيا للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقا ينفذ منه الى المطاف .

ان من العسير أن نتصور بقاء بلد له ما لمكة وبيتها العتيـق من القدسية فى حالة البادية مع ما يثبت التاريخ من أن أمر البيت بقى بعد اسماعيل فى يد جرهم أخوال بنيه أجيالا متعاقبة أقاموها حوله ، ومع أن مكة كانت ملتقى طرق القوافل الى اليمن والى الحيرة

(١) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٥٢ .
(٢) اليعقوبى : ج ١ ص ١٩٧ .

والى الشام والى نجد ، كما كانت تتصل من البحر الاحمر القريب منها بتجارة العالم — عسير أن نتصور بقاء بلد له هذه المكانة من غير ان يدنيه اتصاله بالعالم من مراتب الحضارة . فمن الحق لذلك أن نقدر أن مكة ، وقد دعاها ابراهيم بلدا ودعا الله له أن يكون آمنا مطمئنا ، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالا طويلة قبل قصى .

كان عبد الدار اكبر أبناء قصى ، لكن اخاه عبد مناف كان قد تقدم عليه أمام الناس وقد شرف فيهم . فلما كبر قصى وضعف بدنه ولم يعد قادرا على تولى أمور مكة جعل الحجابة لعبد الدار وسلم اليه مفتاح البيت ، كما أعطاه السقاية واللواء والرفادة . وكانت الرفادة قسطا تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه الى قصى يصنع منه فى موسم الحج طعاما ينال منه من الحجاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد . وكان قصى أول من فرض الرفادة على قريش حين جمعهم واعتز بهم وأخرج وإياهم خزاعة من مكة . فرضها عليهم وقال لهم: « يا معشر قريش ، انكم جيران الله واهل بيته واهل الحرم ، وأن الحاج ضيفان الله وزوار بيته ، وهم احق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم (١) » .

وتولى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر أبيه وتولاها أبناؤه من بعده . لكن ابناء عبد مناف كانوا أشرف فى قومهم واعظم مكانة . لذلك اجمع هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدى أبناء عمومتهم . وتفرق رأى قريش : تنصر طائفة هؤلاء وأخرى أولئك . وعقد بنو عبد مناف حلف المطيبين لأنهم غمسوا أيديهم فى طيب جاءوا به الى الكعبة واقسموا لا ينقضون حلفهم . وعقد بنو عبد الدار حلف الأحلاف . وكان هؤلاء وأولئك

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٤١ .

يوشكون أن يقتتلوا فى حرب تذيب قريشا لولا أن تداعى الناس الى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وان تبقى الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار . ورضى الفريقان بذلك ، وظل الأمر عليه الى أن جاء الاسلام (١) .

وكان هاشم كبير قومه ، وكان ذا يسار ، فولى السقاية والرفادة، ودعا قومه الى مثل ما دعاهم اليه قصى جده ، دعاهم الى أن يخرج كل منهم من ماله ما ينفقه هو فى اطعام الحاج اثناء الموسم ، فقال : « يا معشر قريش ، انكم جيران الله واهل بيته ، وانه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته فهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك واكرمكم به ، وحفظ منكم افضل ما حفظ جار من جاره ، فاكرموا ضيفه وزواره ، يأتون شعثا غبرا من كل بلد على ضوامر كانهن القداح ، قد ازحفوا وتفلوا وقملوا وأرملوا ، فاقروهم واسقوهم (٢) » .

لم يقف أمر هاشم عند هذا الحد ، بل اتصل بره وكرمه باهل مكة انفسهم . أصابتهم سنة ، فجاء لهم من الطعام وثرد لهم الثريد بما جعلهم ينظرون من جديد الى الحياة بوجه باسم . وهاشم هو كذلك الذى سن رحلتى الشتاء والصيف : رحلة الشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف الى الشـــام .

ازدهرت مكة وسمت مكانتها فى أنحاء شبه الجزيرة جميعا ، واعتبرت العاصمة المعترف بها .

وطوع هذا الازدهار والرقى لأبناء عبد مناف ان يعقدوا مع جيرانهم معاهدات أمن وسلام :

---

(١) هيكل : حيــاة محمد ص ٩٥ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٤٥ .

عقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع أمير غسان معاهدة جوار وحسن مودة ، وحصل من الامبراطور على الاذن لقريش بأن تجوب الشام فى أمن . وعقد عبد شمس مع النجاشى معاهدة تجارية ، كما عقد نوفل والمطلب حلفا مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين فى اليمن . وكذلك ازدادت مكة منعة وجاها كما ازدادت يسارا ، وبلغ أهلها من المهارة فى التجارة أن أصبحوا لا يدانيهم فيها مدان من أهل عصرهم .

كانت القوافل تجىء اليها من كل صوب وتصدر عنها فى رحلتى الشتاء والصيف ، وكانت الأسواق تنصب فيما حولها لتصريف هذه التجارة فيها . ولذلك مهر أهلها فى الربا والنسيئة وفى كل ما يتصل بالتجارة من أسباب المعاملات (١) .

وظل هاشم تتقدم به السن وهو فى مكانته على رياسة مكة لا يفكر أحد فى منافسته ، حتى خيل لابن أخيه أمية بن عبد شمس انه قد بلغ مكانا يسوغ له هذه المنافسة ، لكنه لم يقدر وغلب على أمره ، وبقى الأمر لهاشم . وترك أمية مكة الى الشام عشر سنوات كاملة .

وان هاشما لفى رحلته يوما عائدا من الشام مارا بيثرب اذ رأى امرأة ذات شرف وحسب تطل على قوم يتجرون لها ، تلك سلمى بنت عمرو الخزرجية ، وقد أعجب هاشم بها وسأل :

أأيم هى أم ذات زوج ؟ فقيل له : أيم . وكانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها ، فخطبها هاشم ، فعرفت شرفه ونسبه فزوجته نفسها (٢) . وأقامت معه بمكة زمنا عادت بعده الى المدينة حيث ولدت له ولدا دعته شيبة ظل فى حضانتها بيثرب .

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٩٦ .
(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٤٦ .

ومات هاشم بعد سنين من ذلك بغزة اثناء احدى رحلات الصيف. فخلفه اخوه المطلب فى مناصبه . وكان المطلب اصغر من اخيه عبد شمس ولكنه كان ذا شرف فى القوم وفضل ، وكانت قريش تسميه الفيضى ، لسماحته وفضله . وطبيعى ، وذلك مكان المطلب من قومه ، أن تبقى الأمور تسير سيرتها مطمئنة .

وفكر المطلب يوما فى ابن اخيه هاشم . فذهب الى يثرب وطلب الى سلمى ان تدفع اليه الفتى وقد بلغ اشده . وأردف المطلب الفتى على بعيره ودخل به مكة ، فظنته قريش عبدا له جاء به ، فتصايحت : عبد المطلب . قال المطلب : ويحكم ! انما هو ابن أخى قدمت به من يثرب (١) .

على ان هذا اللقب غلب على الفتى فدعى به ونسى الناس اسم شيبة الذى دعى به منذ ولد .

وأراد المطلب أن يرد على ابن إخيه أموال هاشم . لكن نوفلا أبى ووضع يده عليها . فلما اشتد ساعد عبد المطلب استعدى أخواله بيثرب على عمه كى يردوا عليه حقه . وأقبل ثمانون فارسا من خزرج يثرب لنصرته ، فاضطر نوفل الى رد ماله اليه . وقام عبد المطلب فى مناصب هاشم ، له السقاية والرفادة من بعد عمه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه احد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم (٢) .

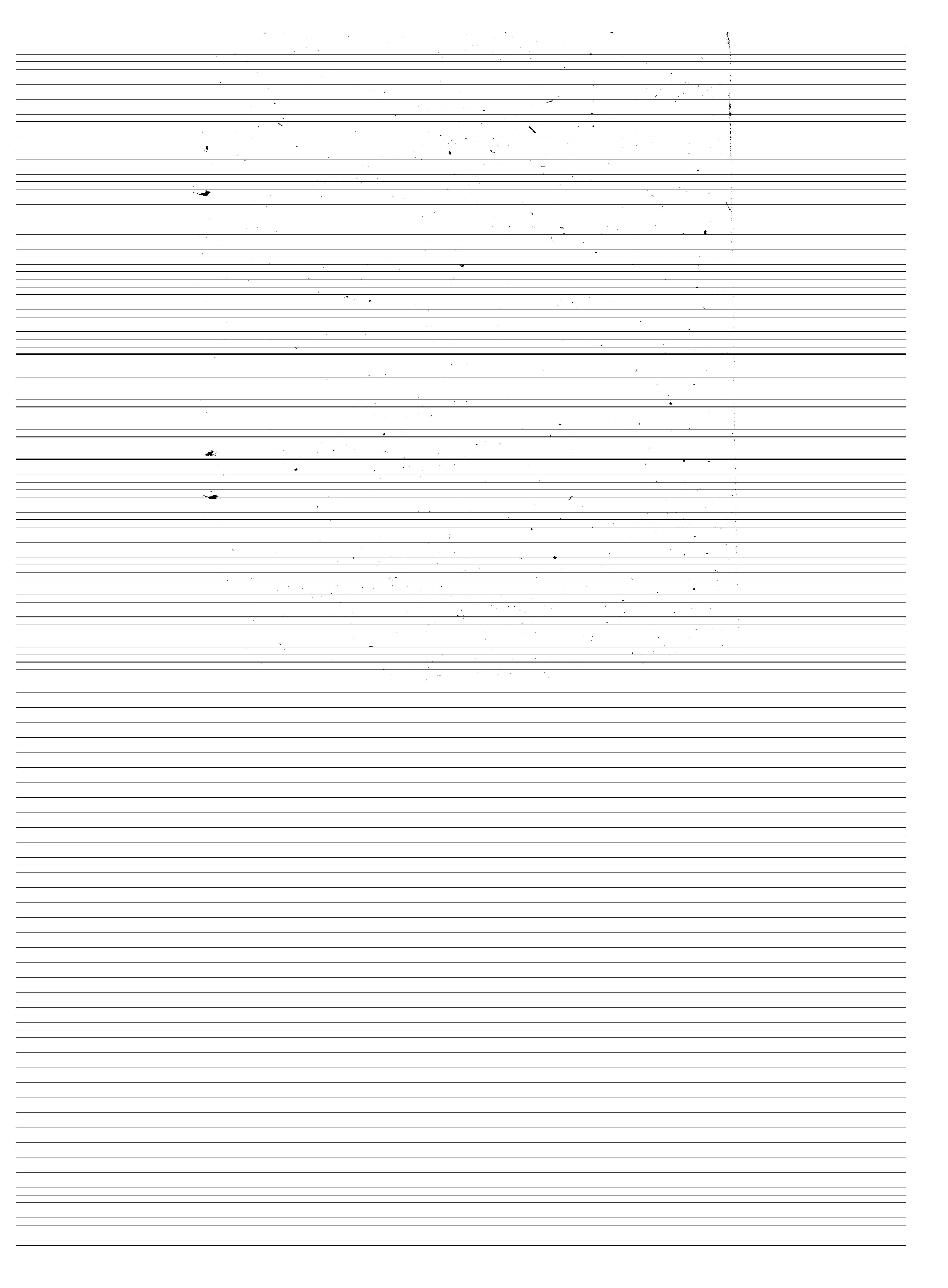
وابرز شخصية من رجال مكة ظهرت بعد عبد المطلب ابن هاشم هو ابو سفيان بن حرب بن امية ، ولم يكن لبنى امية

---

(١) ابن هشام : جـ ١ ص ١٤٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

من مناصب مكة الا منصب واحد هو « العقاب » وهو راية قريش .
ولم يكن ابو سفيان من رجال قريش المشهورين بالجود والكرم، وانما كان يغلب على طبيعته الشح(١) ، وكل ما اشتهر به انه كان تاجرا قاد بعض القوافل التجارية لقريش نحو الجنوب والشمال والشرق . وقد تعرضت احدى القوافل الكبرى التى كان يقودها الى الشام لتصدى المسلمين لها بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة بسنتين فاستطاع ابو سفيان بمهارته ان يتجنب الخطر وان يعود بالقافلة سليمة الى مكة ، بيد ان هذا التصدى أدى الى وقوع معركة بدر التى قتل فيها معظم زعماء قريش البارزين ، ولم يبق الا الزعماء الثانويون ، وكان أبرزهم جميعا ابا سفيان الذى ابدى كثيرا من ضروب المهارة فى نجاة القافلة ، وفى جمع شمل القبيلة بعد هذه المعركة وتعبئة كل قوتها للاخاذ بثارها من المسلمين ، ومن ثم كتبت له الزعامة فى قريش واخذ على عاتقه تنظيم القبيلة وقيادة جيوش مكة فى حروبها ضد المدينة ست سنوات بعد ذلك انتهت بفتح مكة وتغيير الاوضاع كلها .

(١) اسد الغابة ج ٥ ص ٥٦٢ .



الفصل الثـــالث

مجتمع مكة

كان مجتمع مكة يتألف من طبقات ثلاث :

طبقة لها كل الحقوق وهى قريش تستند حقوقها الى ما كانت ترى من شرف محتدها اولا ومن انها صاحبة البيت ثانيا . وكانت هذه الطبقة المستأثرة بالحقوق كلها تنقسم فى نفسها الى فئة الأغنياء أولى الثراء العريض . وفئة الذين يملكون من المال ما يتيح لهم أن يتجروا ، سواء سافروا للتجارة او اكتفوا باعطاء أموالهم للمتجرين .

وفئة اخرى فقيرة قد تملك القليل وتتجر فيه وقد لا تملك شيئا فهى مضطرة الى ان تعمل لتعيش .

وهذه الفئات الثلاث من قريش كلها متساوية فى الشرف وفى الاستمتاع بالحقوق وهى من اجل ذلك تكون فئة ممتازة لطبقـــة السادة (١) .

وتأتى بعدها طبقة اخرى هى طبقة الحلفـــاء وهم ناس من العرب على اختلاف قبائلهم آووا الى مكة ليأمنوا فيها ، فهى مدينة حرام يأمن اللاجىء اليها مهما تكن جنايته وجرائره على قومه ، وناس من العرب آخرون تسامعوا بغنى قريش ودعة الحياة فى مكة فاقبلوا يبتغون فضلا من رزق وكان هؤلاء وامثالهم لم يكن يتاح لهم المقام المطمئن فى مكة الا اذا حالفوا حيا من أحياء قريش أو فردا من افرادها .

---

(١) د. طه حسين : مرآة الاسلام ص ١٨ .

وقد كان الحليف يرث حليفه اذا مات ، بهذا الحلف ، في الجاهلية ثم استمر في الاسلام . « ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالـدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فاتوهم نصيبهم ان الله كان على كل شيء شهيدا (١) » . حتى نسخ بايات الميراث : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله (٢) » وكان قد جعل له السدس في جميع المال في أول الاسلام ، ثم نسخ ونقل من الارث الى الهبة(٣) وبقيت عليهم النصرة والنصيحة والرفادة والعقل والولاء والمشورة.

ومن الأحلاف التي ذكرها التاريخ في مكة حلف المطيبين وحلف الاحلاف ، وحلف الفضول (٤) وحلف الحمس بين قريش وكنانة وخزاعة . وكذلك حلف قريش والأحابيش . وقد منع الاســلام قيام أحلاف جديدة ولكنه اكد الاحلاف التي تمت في الجاهلية .

وطبقة ثالثة : هي الرقيق وكانت هذه الطبقة محرومة مما نسميه الآن الحقوق المدنية ، فليس لها حقوق الملكية والمقاضاة وليس للعبد أن يتزوج الا باذن سيده على أن يتزوج رقيقا مثله ، وسيده يملك أن يحرره بالعتق كما يملك أن يبيعه أو يهبه ، كما يملك أن يعاقبه اشد العقوبة وايسرها وله عليه حق الموت والحياة، ولكن قريشا لم تكن تغلو في استعمال هذا الحق .

والى جانب هذه الطبقات الثلاث كان يعيش بمكة جاليات اجنبية ، سورية ، ومصرية ، وحبشية ، ورومية وعراقية ، وكان كثير منهم يمارس الوانا من الأعمال الصناعية وكانوا نواة لطبقات من الاصناع المحليين .

---

(١) سورة النساء : ٣٣ .
(٢) سورة الانفال : ٧٥ .
(٣) سورة الاحزاب : ٦ .
(٤) ابن هشام : ج ١ ص ١٤٣ .

كانت مكة جمهورية تجارية بيد الأغنيـــاء (١) ، ولم يكن أمـــر حكومتها واضحا لـمـا كان يقـــع من تألب افخاذها على من يحاول السيطرة عليها ومن يود انتحال سيادتها .

وكان يمارس شئون مكة العامة ، مع ذلك ، كبراؤها ، وكان هؤلاء الكبراءيجتمعون في دار الندوة اذا ما اشتدت الأمور للتشاور . وكان لا يسمح بدخولها الا لمن بلغ الأربعين (٢) وكان حى اشراف مكة فى البطحاء التى بنيت الكعبة فى جوفها ، وكان يتفرع من البطحاء شعاب مسماة بأسماء بطون قريش ، وكان يسكن هنالك بنـــو امية الذين كان لهم سلطان كبير فى أمور المـــال ، وبنـــو مخزوم الأغنياء ، وبنو نوفل وبنو اسد وبنو زهرة وبنو سهم وبنو عبد الدار الذين كان لهم اللواء ، وبنو تيم وبنو عدى ، ظهر منهم الخليفتان أبوبكر وعمر رضى الله عنهما بعد اختيار الرسول الرفيق الأعلى ، وبنو هاشم الذين هم آل محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان يقيم حول ذلك الحى المركزى « قريش الظواهر » اى العوام العاطلون من الجاه والمال والذين تجمع منهم الجنود ، ثم كان يسكن ضواحى مكة أخلاط الزمر والأحابيش والمحترفون من الموالى .

وكانت أهم الأعمال تتم فى البطحاء وخاصة فى مجلس الكعبة ، فكان أشراف قريش يتسامرون فيه ويتحادثون ويسمعون الاخبـــار ويتشاورون ، وكان أبو سفيان وأبو جهل وعبد المطلب وعتبة والوليد ابن المغيرة وصفوان بن امية ومن اليهم يجلسون القرفصاء فى فنـــاء الكعبة لابسين أرديتهم ، وكانوا يهيئون فى ذلك المكان رحلة الشتاء والصيف ، وحميا العمل والكسب والمضاربة كانت تتجلى فى مـــكة وضواحيها بادئة بالباعة الجائلين وأصحاب الحوانيت الصـــغيرة

---

(١) حياة محمد تأليف اميل درمنجم وترجمة عادل زعيتر ص ٢٤ .

(٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ص ٥٣ .

لتنتهى الى كبار التجار ورجال المال الذين كان يمسك دفاترهم عدد غير قليل من الكتبة .

وقد أثرت قريش من التجارة ثراء عظيما ، وظهر فيها كثير من الأثرياء كأبى سفيان ، والوليد بن المغيرة وعبد الله بن جدعان الذى استطاع أن يسلح فى حرب الفجار مائة رجل بالسلاح الكامل .

وكان القرشيون بمثابة الوسطاء بين أقليم البحر المتوسط فى الشمال ، حيث الشام وفلسطين وسواحل آسيا الصغرى ومصر الشمالية ، وبين ذلك الاقليم الموسمى الذى تكثر فيه الخيرات المعروفة من توابل وحاصلات أخرى هامة .

وقد افادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وادبية على جانب كبير من الأهمية .

وساعد اشتغالهم بالتجارة وكثرة اسفارهم الى الشام والحبشة ومصر وغيرها ، ومخالطتهم أقواما مختلفين كالفرس والروم ، من ذوى المدنيات القديمة ، على معرفة أحوال هذه الأمم السياسية والاجتماعية والأدبية ، مما كان له أثر عميق فى رقى مداركهم وتثقيف عقولهم ، حتى وصلوا الى مستوى فكرى لم يصل اليه أهل البدو وسكان الواحات ، وكانوا يعرفون الكتابة والقراءة والحساب ، كما كانوا على علم بأحوال الأمم المجاورة لهم من سياسية وغيرها مما ظهرت آثاره بعد فى الفتوح الاسلامية . ولكل ذلك حسنت ادارتهم لشئون الكعبة، وسهلوا على الناس القدوم اليها وشجعوهم على الحج الى بلدهم (١) .

واذا كانت تجارة قريش الخارجية قد اتسعت بحيث ضمنت للطبقات الغنية التى تشارك فيها ثروة طائلة ، فان رجال قريش قد

---

(١) المصدر السابق ص ٦٤ — ٦٥ .

حرصوا على سلامة التجارة الداخلية حتى تضمن للعشائر التى لم تشارك بصورة قوية فى التجارة الخارجية ما يضمن لها أسباب الرزق فى التجارة الداخلية . لذلك وقفوا فى وجه كل ما من شأنه ان يعوق هذه التجارة أو يحد من نشاطها ، ومن أجل هذا قام « حلف الفضول » وكان سببه المباشر أن العاص بن وائل السهمى اشترى بضاعة من رجل يمنى قدم مكة ، وأبى أن يدفع الثمن ، فذكر اليمنى ظلامته فى شعر له :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فتداعت لذلك قريش ، واجتمعت اليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد ، فى دار عبد الله بن جدعان ، وتعاقدوا بالله ليكونن مع المظلوم ، حتى يؤدى اليه حقه (١) . وقد حقق هذا الحلف نتيجته المباشرة فقد دفع العاص بن وائل ثمن البضاعة التى أخذها ، كما استقرت الحرية العامة فى مكة . وقد قدر الاسلام الأهداف النبيلة التى عقد من أجلها هذا الحلف . وأقره .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه :

« لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب ان لى به حمر النعم ولو ادعى به فى الاسلام لأجبت » .

---

(١) ابن هشام : ج ١ ص ١٤٤ .

وقد بقيت آثاره بعد الاسلام ، حتى لقد نادى به الحسين بن على حين وقعت بينه وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان والى المدينة منازعة فى مال كان بينهما ، وقد تداعت أطراف الحلف لنصرة الحسين مما اضطر الوليد الى انصافه (١) .

وفى الأشهر الحرم كانت تقام الأسواق بالقرب من مكة . فكانت تقام فى عكاظ ، أشهر تلك الأسواق ، وكان الناس يردونها ، لا للتجارة فحسب ، بل للترويح أيضا . فكانت تصبح قلب الجزيرة النابض بما كان يتم فيها من الأعمال الهامة ومن الكلام حول الحوادث التى كانت تجىء بها القوافل من كل حدب وصوب ، ومن الألعاب والأغانى والرقص وانشاء القصائد وما الى ذلك .

وفى عكاظ كان الشعراء يتبارون فى انشاد الناس قصائدهم ، وفى عكاظ انشدت المعلقات الشهيرة التى علقت فى الكعبة مكتوبة بحروف من ذهب وكان يحتفل فيها بالفائز الذى يصبح عنوان فخر قبيلته .

وفى عكاظ كانت تذاع المبادىء الدينية ، والى عكاظ كان يجىء نصارى من الحيرة ونجران (٢) .

وقد خطب قس بن ساعدة الناس مرة فى عكاظ ، وقد استشهد بالسماء والبحر والليل والخيل والنجوم . وحدث قس سامعيه الذين كانوا من التجار والمقاتلين عن بطلان المال والجاه ، وكان اسلوب خطبته من النوع الموزون الذى اقتضته بلاغة ذلك الزمن ، ومنه قوله :

(أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، واذا وعيتم فانتفعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق

---

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(٢) اميل درمنجم : حياة محمد ص ٣٦ .

واقوات ، وآباء وامهات ، واحياء واموات ، جمع وشتات ، وآيات بعد آيات ، ان فى السماء لخبرا ، وان فى الأرض لعبرا ، ليل داج ، وسماء ذات ابراج ، وارض ذات فجاج ، وبحار ذات امواج، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، ارضوا بالمقام فاقاموا ، ام تركوا هناك فناموا) تدفق قس عدة ساعات فى خطبته فأتى فيها بمتعاقب الصور، واكثر فيها من جوامع الكلم والأمثال ، وكان الحضور يستمعون الى اقواله المنسجمة « ودرره المنظومة » بشوق عظيم .

ولم يكن التعليم منتشرا فى بلاد العرب ، لأن العرب لم يكن لهم بالعلوم عهد . وما نظن ان بلاد العرب — وعلى الأخص مكة — كانت تعنى بتعليم اطفالها الكتابة والقراءة ، انما كان الرجل من اهلها يشعر بالحاجة الى ذلك فيتعلمها . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم اول من عنى عناية كبيرة بتعليم العرب الكتابة والقراءة، بأن عهد الى اسرى بدر الذين يعرفون الكتابة والقراءة ممن عجزوا عن دفع الفداء بأن يعلم كل منهم عشرة من ابناء المسلمين هذه الكتابة والقراءة .

اما العلوم التى حذقها العرب بحكم البيئة التى نشئوا عليها وطبيعة البلاد التي درجوا على ارضها فهى علم الانواء ، ولا غرو فقد مهروا فى تتبع الأنواء وتعرف اوقات نزول الغيث ، كما مهروا فى علم الاثر ، ومهروا أيضا فى علم الانساب ، فقد كان يسكن شبه الجزيرة قبائل متنافرة ، ومن ثم دفعتهم الحاجة الملحة الى أن يحفظوا انسابهم التى يعتمدون عليها فى عقد محالفاتهم او شن الغارات على أعدائهم او المنافسة على مركز الرياسة فيهم — الى غير ذلك من العلوم التى تنشأ فى مثل هذه البيئة والتى هى اولى بأن يطلق عليها مجموعات من المعارف من أن تكون علوما بالمعنى الذى نعرفه (١) .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ ص ٦٧ .

ومكة كمدينة تجارية لم يكن أهلها يميلون الى استخدام وسائل العنف ، وقد حرصوا دائما على حل مشاكلهم سلميا ، ولم يتورطوا فى خوض غمار الحرب الا مرتين ، مرة الى جانب حلفائهم من بنى بكر ضد هوازن وقيس فيما عرف بحرب الفجار ، والمرة الثانية هى الحرب التى دخلوها ضد المسلمين فى يثرب .

وكان السبب فى حرب الفجار ، ما ذكره ابن سعد (١) : « ان النعمان بن المنذر بعث بلطيمة له الى سوق عكاظ للتجارة ، وأجارها له الرحال عروة بن عتبة بن جابر بن كلاب ، فنزلوا على ماء يقال له أوارة ، فوثب البراخى بن قيس — وكان خليعا — على عروة فقتله ، وهرب الى خيبر فاستخفى بها ، ولقى بشر بن أبى خازم الأسدى الشاعر فأخبره الخبر ، وأمره أن يعلم ذلك عبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة وحرب بن أمية ونوفل بن معاوية الديلى وبلعاء بن قيس ، فوافى عكاظا فأخبرهم ، فخرجوا موائلين منكشفين الى الحرم ، وبلغ قيسا الخبر آخر ذلك اليوم ، فقال أبو براء : ما كنا من قريش الا فى خدعة ، فخرجوا فى آثارهم ، فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ، فناداهم رجل من بنى عامر يقال له الأدم بن شعيب بأعلى صوته : ان ميعاد ما بيننا وبينكم هذه الليالى من قابل ، وانا لا نأتلى فى جمع . وقال :

لقد وعدنا قريشا وهى كارهة   بأن تجىء الى ضرب رعابيل

ولم تقم تلك السنة سوق عكاظ ، ومكثت قريش وغيرها من كنانة وأسد بن خزيمة ، ومن لحق بهم من الأحابيش ، سنة يتأهبون لهذه الحرب ، وتأهبت قيس عيلان ثم حضروا من قابل ، ورؤساء قريش : عبد الله بن جدعان ، وهشام بن المغيرة ، وحرب بن أمية ، وأبو أحيحة سعيد بن العاص ، وعتبة بن ربيعة ، والعاص بن وائل ، ومعمر بن حبيب الجمحى ، وعكرمة بن عامر ،

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٨٠ .

وخرجوا متساندين ، ويقال بل أمرهم الى عبد الله بن جدعان . والتقى الفريقان ، فكانت الدبرة أول النهار لقيس على قريش وكنانة ومن ضوى اليهم ، ثم صارت الدبرة اخر النهار لقريش وكنانة على قيس ، فقتلوهم قتلا ذريعا ، حتى نادى عتبة بن ربيعة يومئذ الى الصلح ، فاصطلحوا على أن عدوا القتلى ، وردت قريش لقيس ما قتلت فضلا عن قتلاهم ، ووضعت الحرب أوزارها .

وقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم — الفجار (١) — فقال : « قد حضرته مع عمومتى ، ورميت فيه بأسهم ، وما أحب انى لم اكن فعلت » .

كان من مصلحة اهل مكة ان يستقر السلم فى منطقتهم حيث تعقد الأسواق التجارية ، فالمال والتجارة لا يحبان الحرب . وبالرغم من أن رجال قريش وبخاصة أصحاب الأموال منهم كانوا ضد الحرب ، فان ذلك لا يعنى أنهم كانوا جبناء . فقد اثبت كثير من رجال قريش شجاعة نادرة وقاتلوا ببسالة حينما اضطرتهم الظروف الى القتال سواء فى الجاهلية او الاسلام .

وقد نالت قريش نفوذا كبيرا بين القبائل العربية الغربية والوسطى ، وبلغ هذا المركز الممتاز أوج قوته فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع الميلادى ، ويرجع سر هذا النفوذ الى القوة العسكرية التى كانت تستطيع ان تضرب بها ، ونعنى بذلك قوة الحلف الذى بنته على أساس ارتباطاتها التجارية ، وقيامها فى الوقت نفسه بأمر تنظيم الحج وسدانة البيت ، فقد كانت القوافل التى تسير الى الشمال والى الجنوب فى حاجة الى خدمات البدو باعتبارهم ادلاء وحراسا وحمالين ، وكانت القوافل تدفع اتاوة لرؤساء القبائل على أن يدلوها او يمدوها بالماء وبالتموينات الأخرى . ومن هنا فان قبائل

(١) هذه الحرب تسمى « الفجار » لانها كانت فى الاشهر الحرم ، وهى الشهور التى يحرمونها ، ففجروا فيها .

البدو كانت تشارك فى تجارة مكة على نحو ما ، وبذلك كانت القبائل الضاربة على جنبات الطرق التجارية ترى مصالحها مرتبطة بمصالح مكة ، فرخاء مكة يعنى رخاءها وخسارة مكة تعني خسارتها . وكذلك قوى الشعور بالتضامن مع مكة المحالفات القائمة على المصاهرة بين أبرز رجال مكة ومختلف القبائل العربية ، كما أن زعماء القبائل العربية كانوا يشاركون مشاركة مادية فى قوافل مكة التجارية . ومن هنا كان فى استطاعة أهل مكة أن يستأجروا المحاربين للدفاع عنهم ، ولكن ليس معنى ذلك أن هؤلاء كانوا جنودا مرتزقة (١) ، بل انهم كانوا حلفاء ، دخلوا فى محالفات مع قريش على أساس التكافؤ ، وكان أبرز هؤلاء الحلفاء أولئك الذين عرفوا بالأحابيش . والأحابيش كانوا بطونا من القبائل العربية الضاربة حول مكة من كنانة وخزيمة بن مدركة وخزاعة تجمعوا وتحالفوا معا ، واخذوا فى الاندماج لتكوين قبيلة عربية بواسطة الحلف الذى كان سببا فى تكوين كثير من القبائل العربية القديمة . ثم تحالفوا مع قريش فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى (٢) .

وقد ذهب المستشرق « لامنس » الى انهم كانوا زنوجا من بلاد الحبشة ، وأكد صاحب كتاب « صور من التاريخ الاسلامى » أن الأحابيش كانوا عربا ، وأن القول بعروبتهم هو المتفق مع تاريخهم، وأن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم فى حروبها لم يكونوا من الأحابيش فى شىء .ثم ذكر أنه كان بمكة قوة من الحبش حقا ، ولكن هذه القوة لم تكن من الأحابيش فى شىء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد تخدم أشراف مكة فى السلم والحرب ، وبعض هذه الطبقة اشتراه الأشراف بالمال ، وبعضها كان من فلول حملة أبرهة التى حاولت غزو مكة وهدم الكعبة فى عهد عبد المطلب (٣) . وقد

(١) أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ص ١٤٣–١٤٤
(٢) ابن الاثير ج ١ ص ٣٥٨ / ٣٦٢ .
(٣) عبد الحميد العبادى : صور من التاريخ الاسلامى ص ١٤ .

عرف الرسول صلى الله عليه وسلم كيف يفل قوة الأحابيش التى كانت تعتز بها قريش بأن اجتذب الى جانبه القبائل التى كانت تنتمى اليها أحياء الأحابيش كما غزا بعض هذه البطون ، وبذلك انكسرت شوكة الأحابيش وانتهى حلفهم نهائيا بعد فتح مكة .

وكما حالفت قريش قبائل البادية فانها كانت على علاقات طيبة مع المدن الأخرى الموجودة فى الحجاز ، فكانت صلاتها وثيقة بقبيلة ثقيف فى الطائف ، وقد كانت الطائف مصيف أهل مكة ، ولا يوجد غنى فى مكة الا وله فى الطائف بستان . وكان تجار مكة يجلبون من الطائف الخمور والزبيب والجلود المدبوغة . كما أن الثقفيين كانوا يشاركون فى قوافل مكة التجارية . وتشير الآية القرآنية : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(١) الى خطورة شأن رجال الطائف وانهم يماثلون أهل مكة قوة وجاها ، وفى هذا اشارة لما كان بين مكة والطائف من صلات قوية بحيث لو كان — كما زعموا — قد نزل القرآن على عظيم من أيهما لا تبعوه جميعا !

وكانت قريش تشرك رجال الطائف فيما يهمها من الأمور الخطيرة ، وقد كان عروة بن مسعود الثقفى أحد الرسل الذين بعثت بهم لمفاوضة الرسول عند نزوله بالحديبية(٢) .

وكانت قريش على صلات طيبة بمدينة يثرب ، ولم تحدث الجفوة والعداء بينهما الا بعد هجـرة الرسول الى يثرب وقيـام الدولة الاسلامية بها ، وشعور قريش بالخطر الداهم على تجارتها والذى أصبح يكمن فى يثرب بهذا الوضع الجديد الذى أحدثته الهجرة ، فقد عد المكيون ايواء الرسول والمهاجرين تحديا لهم وتهديدا لمصالحهم ، ومن اجل ذلك وقع الصدام بين المدينتين (٣) .

---

(١) سورة الزخرف : ٣١ .
(٢) ابن هشام : ج ٣ ص ٣٦١ .
(٣) مكة والمدينة ص ١٤٩ .

وكانت صلات مكة باليهود جميعا طيبة فى يثرب وخيبر وتيماء ووادى القرى ، وكان القرشيون يرون أن اليهود أهل العلم والكتاب الأول (١) ، كما كان اليهود يحترمون القرشيين ويعتبرونهم سادة العرب وملوك الناس (٢) ، ولم يكن اليهود يحفلون كثيرا بتعاليم التوراة التى تحضهم على البعد عن الوثنيين وتلزمهم محاربتهم ، وانما كانوا يجرون وراء مصالحهم المادية . وجريا وراء هذه المصالح تورطوا فى الاثم حينما سألهم القرشيون أدينهم خير أم ما يدعو اليه محمد ؟ ، فقالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه !!

وفى موقف اليهود هذا من قريش وتفضيلهم وثنيتهم على توحيد محمد ، يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون فى كتابه « تاريخ اليهود فى جزيرة العرب » .

« كان من واجب هؤلاء اليهود الا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الجسيم ، والا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الاسلامى ولو ادى بهم الأمر الى عدم اجابة مطالبهم ، لأن بنى اسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب ايمانهم باله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية . كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم الى عبدة الأصنام انما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة » .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٣٠ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٣١ .

ولقد نعى عليهم القرآن هذا التورط فى الضلال ولعنهم فقال :
« ألم تر الى الذين أوتـوا نصيبا من الكتاب يؤمنـون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنـوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا(١) »
وقد مالأ اليهود فى يثرب قريشا منذ بدأ الصراع بينهم وبين المسلمين بالرغم من العهـد الذى عقـده الرسول معهم وانبرى شعراؤهم يمدحون المكيين ويؤلبون قريشا والعرب لحرب المسلمين ، وانتهى الأمر بأن عقدوا حلفا مع القرشيين وجمعوا اليه قبائل العـرب لحرب المسلمين فى غزوة الخندق . وقد انتصر المسلمون فى هـذه الغزوة نصرا عزيزا كريما .

بهذه الصلات الطيبة أمنت مكة عادية القبائل العربية ، كما أمنت خصومات المدن الحجازية ، ولما كانت قد استطاعت أن تحافظ على وحدة القبيلة الداخلية وتوطيد السلام فى مكة فقد حظيت باحترام عام من كافة انحاء الجزيرة العربية ، واصبحت العاصمة العربية التى تتجه اليها نفوس العرب وعواطفهم القومية وبخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها وكذلك تضعضعت مملكة الحـيرة ومملكة غسان (٢) .

كان دهماء العرب يدينون بالدين الوثنى ، ويقال ان الذى نقل الوثنية الى العرب هو عمرو بن لحى الخزاعى . يقول الشهرستانى :
« واول من وضع فيه الأصنام عمرو بن لحي لما ساد قومه بمكـة واستولى على أمر البيت ، ثم سار الى مدينة البلقاء بالشام ، فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا : هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية ، نستنصر بها فننصر ونستسقى بها فنسقى . فأعجبه ذلك وطلب منهم صنما

---

(١) سورة النساء : ٥١ — ٥٢ .
(٢) مكة والمدينة : ص ١٥٠ .

من أصنامهم ، فدفعوا اليه هبل . فسار به الى مكة ووضعه فى الكعبة » .

وكان لقريش فى جوف الكعبة وحولها أصنام . وكان هبل أعظمها شأنا ، وكان من العقيق الأحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى ، فصنعت له قريش يدا من ذهب . وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فكان يقال له هبل خزيمة(١) .

ولم يكن هبل وحده معبود العرب ، فقد انتشرت الأصنام فى أنحاء الجزيرة العربية على شكل بيوت وأشجار وحجارة مصورة وغير مصورة ، حتى قيل انه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما . ويبدو أن السبب فى وجودها أن قريشا رأت أن تنتفع من قدوم القبائل العربية فى موسم الحج ، فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة ، حتى اذا أتوا مكة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم .

كانت مناة أقدم هذه الاصنام ، وهى الهة القضاء ولا سيما قضاء الموت ، وكانت تعظمها قبائل الازد والأوس والخزرج . وقد أمر الرسول على بن أبى طالب بكسره عندما خرج لفتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة .

ومن هذه الأصنام : اللات بالطائف ، ومعناها الاله . وقد عرفت فى آثار تدمر والنبط . وكانت صخرة مربعة أقيم عليها بناء، وقامت على سدانتها ثقيف التى تشبهت بقريش سدنة الكعبة . وبلغ من تعظيم العرب اللات ان كانوا يسمون أبناءهم زيد اللات وتيم اللات (٢) وكان لخولان صنم يقال له عمياتس بأرض خولان ، يقسمون له فى أنعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله بزعمهم ،

---

(١) ابن الكلبى : كتاب الاصنام ص ٢٧ .
(٢) كتاب الاصنام ص ١٦ .

فما دخل فى حق عميانس من حق الله تعالى الذى سموه له تركوه له ، وما دخل فى حق الله تعالى من حق عميانس ردوه عليه ، وهم بطن من خولان يقال لهم الأديم ، وفيهم أنزل الله تعالى فيما يذكرون (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون (١)) .

ومن هذه الأصنام ، العزى ، وهى أحدث من مناة واللات ، وكانت تمثل فى شجيرات فى وادى نخلة عن يمين الذاهب من مكة الى العراق ، وبلغ من تعظيم العرب وقريش اياها ان كانوا يسمون ابناءهم عبد العزى (٢) .

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، فانهن الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ، كما كانوا يقولون : بنات الله وهن يشفعن اليه ، فانزل الله على الرسول : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، الكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذا قسمة ضيزى ، ان هى الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان (٣) » .

ومن معبودات العرب الوثنتين : سواع بأرض ينبع ، وقد قام بنو لحيان على سدانته ، واتخذت قبيلة كلب بدومة الجندل ودا ، واتخذت مذحج وارض جرش يغوث ، واتخذت خيوان يعوق . واتخذت حمير نسرا ، وكان قوم نوح يعبدون هذه الأوثان التى جاء ذكرها فى سورة نوح : « قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » .

---

(١) سورة الانعام : ١٣٦ .
(٢) كتاب الأصنام : ص ٢٧ .
(٣) سورة النجم : ١٩ — ٢٣ .

وكان للعرب الوثنيين كثـــير من الأماكن المقدســـة ، غير أن معتقداتهم الدينية لم تكن من الجد فى شىء كثير . ولا شك أنه كان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير على العادات التى خلفها لهم آباؤهم، وكانوا محافظين عليها شديدى التمسك بها ، ولو أنهم لم يجهدوا أنفسهم لمعرفة كنهها ، ولكن الوثنيين فى شمال بلاد العرب كانوا أكثر حماسة من غيرهم وأشد تعصبا لدينهم لاتصالهم بالمسيحيين فى الشام وفلســـطين ، وكذلك كانت الحـــال فى اليمن لاتصـــالهم بالاحباش الذين كانوا يدينون بالمسيحية .

وكان العرب يقدمون القرابين لآلهتهم ويسيرون فى مواكب حول معابدهم . وكان المنذر بن ماء السـماء (٥٠٥ — ٥٥٤ م) فى الحيرة يقدم كثيرا من أسرى المسيحيين تـكريما للســيار فينوس « الزهرة » وقد سبقهم الاسرائيليون منذ عهد بعيد الى مثل ذلك . ومن المحتمل أن يكون لاتصال العرب الشديد بالمسيحيين واهـــل الديانات الأخرى أثر كبير فى احياء الحماس الدينى : ومن القرآن الـــكريم نقف على أن العرب كانوا — علـــى الرغم من وثنيتهم — يؤمنون بالله ، بدليل قوله تعـــالى (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) .

انتشرت اليهودية فى جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام ولا سيما فى اليمن ، كما انتشرت فى وادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب حيث أقامت قبائل بنى قريظة وبنى النضـــير وبنى قينقاع وقد اختلف المؤرخون فى أصل هؤلاء اليهود ، فذهب بعضهم الى أنهم عرب اعتنقوا الديانة الموسوية وعند أخرين انهم يهود هاجروا الى بلاد العرب ، ومهما يكن من شىء ، فان العـــرب لم يعرفوا الديانة الموسوية ، وانما انتقلت الى بلادهم من الخارج . ويقول «نلدكة» « أن هؤلاء اليهود الذين أتوا باليهودية هم من سكان الجزيرة العربية ، وأنهم لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية عن التوحيـــد

ولو انهم كانوا شـديدى التمسك بدينهم (١) » وكان لذلك أثره فى الوثنية الحجازية حتى اصبح اهل يثرب أسرع العرب الى قبول الاسلام (٢) .

كانت المسيحية ظاهرة فى قبائل تغلب وقضاعة فى الشمال وفى بلاد اليمن فى الجنوب . وقد ادخلها الى بلاد العرب أباطرة القرن الرابع الميلادى . على أن حكومة روما لم تحفل بنشر هذا الدين . على أن العرب — وان لم يعتنقوا المسيحية ويدينوا بهـا — فقد انتشرت المسيحية فى بلاد العرب من الجنوب عن طريق الحبشة والشـمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع وكانت يومئذ جملة فرق ، تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان : النساطرة واليعاقبة فكانت النسطورية منتشرة فى الحيرة ، واليعقوبية فى غسان وسائر قبائل الشام (٣) .

وكان من بين العرب شخصيات مستنيرة ، فطنوا الى سـوء حالتهم الدينية ، واملوا فى دين أسمى من أديان أوطانهم . ووجـد بينهم اناس دعوا الى دين توحيد جديد له علاقة ما بالمسيحية ، ودعوا الى نبذ عبادة الأوثان والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ، وكانوا يعتقدون فى البعث وبوجود اله واحد يحاسب ويجازى على أعمال الناس من خير وشر . ويطلق على هذه النزعة التحنف وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون . وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن المجيد فى سـورة آل عمران « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفـا مسلما وما كان من المشركين » . وفى سورة الأنعام : (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال : لا أحب الآفلين .

---

(١) Noeldeke, Historians. History of the World, Vol. VIII, p. 10

(٢) تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ١ ص ٧١ .

(٣) أحمد امين : فجر الاسلام ص ٢٩ .

فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى . فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هـذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) .

ومن هؤلاء أمية بن أبى الصلت الشاعر المعروف . وكان يؤمل أن يكون النبى المنتظر ، فلما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم حقد عليه ، ومنهم ورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة الايادى .

ويبدو أنه لما ولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أخذت الوثنية لدى العرب فى الضعف ، وأخذ بعضهم يؤمن بالحياة الآخرة كما انتشرت المسيحية ، وكان لليهودية أشياع يؤمنون بتلك العقيدة القائلة بالتوحيد .

ولم يقدر لأى دين من هذه الأديان الخارجية الفوز والغلبة فى بلاد العرب ، فقد كانت المسيحية اذ ذاك مذهبا معقدا تعددت فيه الفرق واختلفت . وكانت اليهودية — دين الشعب المختار — كما يزعم اليهود — الذى لم يقبل العرب على أنفسهم أن يضحوا له باستقلالهم كما ضعف مذهب التوحيد لما لاقاه من المعارضة من العناصر المقتبسة من دين زرادشت ، ومع ذلك فقد مهدت المذاهب والأفكار والآراء المسيحية واليهودية والفارسية الطريق للدعوة الاسلامية ببعث النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

الفصل الرابع

قريش ... ودعوة الحق

بعث الله محمدا برسالة الى هذا العالم ، يعلمه الحقيقة الخالدة ، وهى أنه ليس هناك الا اله واحد ، نبيه محمد ، الذى يدبر ويراقب أعمال الانسان ، ويعاقب ويجازى الطيب والشرير بعد الموت ، كل بمقدار عمله ، كما دعاهم الى نبذ عبادة الأصنام.

اعتنق هذا الدين أول الأمر ، الأفراد المتصلون بالرسول ، كزوجه خديجة ، وابن عمه على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة. ولكن الأمر لم يقتصر على أقاربه ومواليه ، بل تعداهم الى بعض رجالات قريش ، كأبى بكر الصديق ، وكان لاسلامه أثر كبير ، فقد أسلم على يديه خمسة من المسلمين الأولين ، هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله.

وتلا هؤلاء رجال من أفذاذ قريش ، كأبى عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبى الأرقم ، الذى اتخذت داره مركزا للدعوة سرا الى الاسلام ، ولا تزال بمكة الى اليوم.

ولم تقتصر الدعوة على هؤلاء ، بل تلاهم قوم آخرون ، من بينهم طائفة من الموالى والفقراء ، وسميت هذه الدعوة دعوة الأفراد ، لأن الرسول كان يدعو كلا من هؤلاء على انفراد ، وسموا السابقين الأولين (١).

استمر الرسول ثلاث سنين يدعو سرا الى الاسلام كل من يثق فيه ويطمئن الى استعداده النفسى لقبول دعوته . وكان هو

(١) ابن هشام : ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٧ .

واصحابه فى تلك الفترة يستخفون من قريش فى صلاتهم وفى الدعوة الى الاسلام ، وكان المشركون كلما رأوهم فى صلاتهم سخروا منهم ومن عبادتهم . حتى اذا كثر المسلمون وخافت قريش كثرة عددهم، قعدت لهم بكل طريق ، تصد الناس عن دعوة الحق الذى جاء به محمد من عند ربه . ولكن الرسول أمـــر على رأس ثلاث سنين بالجهر بالدعوة . « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين (١) ». وقال تعالى : (وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون (٢)) .

صدع الرسول بأمر ربه ، واخذ يفكر فيما يحدث به قريشا ، ثم دعا الرســـول بنى عبد المطلب الى طعام صنعه على بن ابى طالب ، وتكلم الرسول فقال : يا بنى عبد المطلب ، انى والله ما أعلم شابا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . انى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة (٣) . . ودعا بطون قريش من فوق جبل الصـــفا بظاهر مكة . فلما اجتمعت اليه قال : — « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل اكنتم تصدقونى ؟

قالوا : نعم . أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط .

قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، يا بنى عبد المطلب، يا بني عبد مناف ، يا بنى زهرة — حتى عدد الأفخاذ من قريش — ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وانى لا أملك لـــكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا الا أن تقولوا لا اله الا الله .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا (٤) ؟

---

(١) سورة الحجر : ٩٤ .
(٢) سورة الشعراء : ٢١٤ — ٢١٦ .
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢١٧ .
(٤) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣٣ .

فانزل الله تعالى : « تبت يدا ابى لهب وتب ، ما اغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » .

بدات عداوة قريش بعد ذلك تظهر ظهورا واضحا ، لان الرسول لو قصر كلامه على تطهير النفس واصلاح الاخلاق ، لما اثارت دعوته شيئا من المقاومة أو المعارضة التى لقيها . ولكن جهره بالدعوة الى وحدانية الله ، ودعوته الى تلك الوحدانية فى كل مكان، وغضه من شأن الأوثان — كل ذلك جعلهم يخشون القضاء على عبادة الأوثان التى ورثوها عن آبائهم واجدادهم ، وايقنوا ان انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية ، وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ (١) فناصبته قريش العداء ، واجمعوا على الوقوف فى سبيل دعوته ، وايذاء اتباعه ليفتنوهم عن دينهم ، فلم يزدهم ذلك الا ايمانا .

وكان اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم اذا صلوا ذهبوا فى الشعاب ، واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن ابى وقاص فى نفر من اصحاب الرسول فى شعب من شعاب مكة اذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، وهم يصلون ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن ابى وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير فشجه فكان اول دم اهريق فى الاسلام (٢) .

مشى رجال من اشراف قريش الى ابى طالب ، ومنهم ابو جهل

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم ص ١٢٦ .
(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٧٥ .

وأبو سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة ، ليحمل ابن أخيه محمدا على السكوت فردهم ردا جميلا .

اوجس ابو طالب فى نفسه خيفة من وعيد اشراف قريش ، وعظم عليه فراق قومه وعداوتهم . فقال لمحمد :

— « ابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق » .

فظن محمد أن عمه خاذله ومسلمه وانه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال :

— « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ثم استعبر محمد فبكى ، ثم قام ، فلما ولى ناداه ابو طالب فقال :

— « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا اسلمك لشىء أبدا » .

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ، وانه آثر فراقهم وعداوتهم ، مشوا اليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

— يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد انهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فانما هو رجل برجل .

قال :

— والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبدا .

فقال المطعم بن عدى بن نوفل :

— والله يا أبا طالب ، لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فقال ابو طالب :

ـــ والله ما انصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك . واشتد الجدال ، وتنابذ الفريقان ، فخرجت قريش من عند ابى طالب وقد أجمعت على التنكيل بمحمد واتباعه ، ليحولوا دون انتشار دعوته ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله منهم بعمه ابى طالب .

قام ابو طالب فى بنى هاشم وبنى عبد المطلب حين رأى صنيع قريش بالمسلمين ، فدعاهم الى ما هو عليه من منع الرسول والقيام دونه ، فاجتمعوا اليه وقاموا معه ، وأجابوه الى ما دعاهم اليه الا ما كان من أبى لهب . فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره ، جعل يمدحهم ، ويذكر فضل الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، ومكانه منهم فقال :

اذا اجتمعت يوما قريش لمفخر	فعبد مناف سرها وصميمها
فان حصلت اشراف عبد منافها	ففى هاشم أشرافها وقديمها
وان فخرت يوما فان محمدا	هو المصطفى من سرها وكريمها
فدعت قريش غثها وسمينها	علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديما لا نقر ظلامة	اذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها
ونحمى حماها كل يوم كريهة	ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء وانما	بأكنافنا تندى وتنمى أرومها(١)

خشيت قريش أن يستميل الرسول الحجاج الذين كانوا يفدون على مكة فى الحج ، وتشاوروا فيما بينهم للقضاء على دعوة الحق وهى لا تزال فى مهدها . واجتمع الى الوليد بن المغيرة نفر من قريش قد حضر الموسم . وكان الوليد ذا سن وشرف فقال لهم :

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٨٢ .

ـــ يا معشر قريش ، انه قد حضر هذا الموسم ، وان وفـــود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فاجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضـــا .

قالوا : ـــ فأنت يا أبا عبد شمس فقل واقم لنا رأيا نقل به .

قال : ـــ بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا : ـــ نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

قالوا : ـــ فنقول مجنون .

قال :

ـــ ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : ـــ فنقول شاعر .

قال :

ـــ ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر .

قالوا : ـــ فنقول ساحر .

قال : ـــ ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

قالوا : ـــ فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : ـــ والله ان لقـــوله لحلاوة وان أصله لعذق ، وان فرعه لجناه ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أنه باطل . وان

اقرب القول فيه ، لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول ، هو سحر يفرق بين المرء وابيه ، وبين المرء واخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم احد الا حذروه اياه وذكروا لهم أمــره .

وقد نعى القرآن الكريم ذلك على الوليد بقوله :

[ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنــين شهودا ، ومهــدت له تمهيدا ، ثم يطمع ان ازيــد ، كلا ، انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر (1)] .

يقول ابن هشام(٢) : « فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا من الناس . وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها . فلما خشى أبو طالب دهماء العرب(٣) ان يركبوه مع قومه قال قصيدته التى تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى ذلك من شعره ، أنه غير مسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركه لشىء أبدا حتى يهلك دونه » . وهاك بعض أبيات من هذه القصيدة :

ولما رأيت القوم لا ود فيهـم	وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى	وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

(1) سورة المدثر : ١١ — ٢٥ .
(٢) ج ١ ص ٢٨٦ .
(٣) دهماء العرب : عامتهم وجماعتهم .

وقد حالفوا قوما علينا أظنة ... يعضون غيظا خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وأخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل

داوم الرسول ، على الدعوة الى الاسلام ، ولكن بمشقة ، فقد حدث أن كان يطوف حول الكعبة يوما فكان كلما مر بأشراف قريش طائفا بالبيت غمزوه ، فلما أتم طوافه قال مشيرا الى صدره:

— « أتسمعون يا معشر قريش أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح » .

فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل الا وكأنما على رأسه طائر وقع ، ثم قال له أشدهم :

— « انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا » .

وقد تلاوم فى الغد أعداؤه لما بدا منهم من ضعف ، وتواصوا على شفاء ما فى صدورهم من غل .

فبينما هم على ذلك طلع الرسول الكريم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون :

— « أنت الذى تقول كذا وكذا » لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم .

فيقول الرسول :

— نعم أنا الذى أقول ذلك .

فاقبل عقبة بن أبى معيط فلوى ثوبه فى عنق الرسول وخنقه خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر من خلفه فوضع يده على منكبه ، فدفعه عن الرسول وقال : يا قوم ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

أخذ محمد يعيب على العرب عبادتهم الأصنام ، وصار يسخر من الأنصاب التى لا ترى ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع والتى ليست

غير حجارة يضرجها العرب بالدم والتى لا يلبث العرب أن يرموها اذا ما وجدوا خيرا منها ، وشرع يسخر من الجمرات التى لم تكن غير جثوة من حصا ، وصار يهزأ بعبادة بنى حنيفة للاوثان المصنوعة من الحلوى والتى كانوا ياكلونها اذا ما جاعوا ، واصبح يذم الزجر(١) والعيافة (٢) ، واضحى ينحى باللائمة على انحلال الأخلاق وقسوة القلوب وبخل الأغنياء وأكل الربا .

تذمر القوم وسخطوا لما راوه فى ذلك من تقويض للنظـــــام الاجتماعى ، ولما ظنوه من طمع محمد فى السلطان ، فعرضوا عليه المال والملك . وهذه صورة من صور الاغراء التى قدمت للرسول :

قال عتبة بن ربيعة يوما وهو جالس فى نادى قريش والرسول الكريم جالس فى المسجد وحده :

ـــ يا معشر قريش ، الا اقوم الى محمد فاكلمه واعرض عليه امورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا .

فقالوا :

ـــ بلى ، يا ابا الوليد قم اليه فكلمه .

فقام اليه عتبة حتى جلس الى الرسول فقال :

ـــ يا ابن اخى ، انك منا حيث قد علمت : من السطة فى العشيرة والمكان فى النسب ، وانك قد اتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به احلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

---

(١) يقال فلان يزجر الطير : اى انه يرمى الطائر بحصاة أو انه يصيح به فان ولاه فى طيرانه ميامنه تفاءل به وان ولاه مياسره تطير منه .

(٢) يقال عاف الطير يعيفها عيافة : اى ان يعتبر باسمائها ومساقطها واصواتها فيتسعد أو يتشاءم .

فقال الرسول :

— قل ياأبا الوليد أسمع .

قال :

— ياابن أخى ، إن كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

قال الرسول :

— أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

— نعــم .

— فاستمع منى .

— أفعل .

قال الرسول :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمــن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه)

ثم مضى الرسول فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت اليها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى الرسول الى السجدة منها فسجد ، ثم قال :

— « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعته ، فأنت وذلك » .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

ــ نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليــد بغير الوجه الذى ذهب بــه .

فلما جلس اليهم قالوا : ــ ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال :

ــ ورائى انى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالشــعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش اطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم: فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى ، فاصنعوا ما بدا لكم .

قال ابن اسحق : ثم ان الاسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنســاء . وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ، ثم ان أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا ذات يوم عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

ــ ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم الرسول سريعا ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصا : يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم ، فقالوا له :

ــ يامحمد ، انا قد بعثنا اليك لنكلمك ، وانا والله ما نعلم رجلا فى العرب ادخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت

الجماعة ، فما بقى أمر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطاب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك — وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا — فربما كان ذلك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال لهم الرسول :

— ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وانزل على كتابا ، وامرنى ان اكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحب لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا :

— يا محمد ، فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فانك قد علمت أنه ليس من الناس أحد اضيق بلدا ، ولا اقل ماء ، ولا اشد عيشا ، منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها انهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فانه كان شيخ صدق ، فتسألهم عما تقول أحق هو أم باطل : فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وانه بعثك رسولا كما تقول .

فقال لهم الرسول :

— مابهذا بعثت اليكم ، انما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا :

— فاذا لم تفعل هذا لنا . فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل الله لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فانك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم !

فقال لهم الرسول :

— ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا . فان تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا :

— فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك لو شاء فعل ، فانا لا نؤمن لك الا أن تفعل .

فقال الرسول :

— ذلك الى الله ان شاء ان يفعله بكم فعل .

قام الرسول عنهم ، وانصرف صلى الله عليه وسلم الى اهله حزينا آسفا مما فاته ، مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم اياه .

فلما قام عنهم الرسول ، قال أبو جهل :

ــ يامعشر قريش ، ان محمدا قد أبى الا ماترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا ، وانى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله ، فاذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم .

قالوا :

ــ والله ما نسلمك لشىء أبدا ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا الرسول كما كان يغدو ، وكان الرسول بمكة وقبلته الى الشام ، فكان اذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام الرسول يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد الرسول احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا ، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، لما اعتراه من الخوف الخفى .

ولما رأت قريش أن أصحاب الرسول قد هاجروا الى الحبشة ، وأن النجاشى قد منع من لجأ اليه منهم ، وأن عمر ابن الخطاب قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع الرسول وأصحابه ، وجعل الاسلام يفشو فى القبائل اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب : على (١) أن لا ينكحوا اليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ،

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٧٢ ، الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٣٩ .

ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا فى صـحيفة ، ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على انفسهم .

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب الى ابى طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه فى شعبه ، فاجتمعوا اليه ، وخرج من بنى هاشم ابو لهب عبد العزى بن عبد المطلب الى قريش . فظاهرهم .

استمر هذا الحصار ، الذى يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر الحديث الحصار الاقتصادى ، سنوات ثلاث ، لا يصل اليهم شىء الا سرا ، مستخفيا به من أراد صلتهم من قريش . وقد كان أبو جهل بن هشام ، لقى حكيم بن حزام بن خويلد معه غـلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى عند الرسول ومعه فى الشعب ، فتعلق به ، وقال :

— اتذهب بالطعام الى بنى هاشم ؟ والله لاتبرح انت وطعامك حتى افضحك بمكة .

فجاءه ابو البخترى بن هشام ، فقال :

— مالك وماله ؟

قال :

— يحمل الطعام الى بنى هاشم .

فقال ابو البخترى : —

— طعام كان لعمته عنده بعثت اليه أفتمنعه ان يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل . فأبى ابو جهل ، حتى نال احدهما من صاحبه ، فأخذ ابو البخترى لحى بعير فضربه به فشـجه ، ووطئه وطئـا شديدا ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ، وهم يكرهون

ان يبلغ ذلك الرسول وأصحابه فيشمتوا بهم ، والرسول على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهارا ، وسرا وجهارا ، مباديا بأمر الله ، لا يتقى فيه أحدا من الناس .

قام فى نقض تلك الصحيفة التى تكاتبت فيها قريش على بنى هاشم وبنى عبد المطلب نفر من قريش ، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشـــام بن عمرو ، وذلك انه كان ابن أخى نضـــلة بن هاشم لأمه ، وكان هشام لبنى هاشم واصلا ، وكان ذا شرف فى قومه ، فكان يأتى بالبعير وبنو هاشم وبنو عبد المطلب فى الشعب ليلا قد أوقره طعاما ، حتى اذا اقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم ، ثم يأتى به قد أوقره برا فيفعل به مثل ذلك .

ثم انه مشى الى زهير بن ابى أمية ، فقال :

ـــ يا زهير ، اقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء واخوالك حيث قد علمت لايباعون ولا يبتـــاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما انى أحلف بالله ان لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل مادعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبدا .

قال زهير :

ـــ ويحك يا هشام ! فماذا اصنع ؟ انما انا رجل واحد ، والله ان لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى انقضها .

قال هشام :

ـــ قد وجدت رجلا ؟

ـــ من هو ؟

ـــ أنا .

ــ ابغنا رجلا ثالثا .

فذهب الى المطعم بن عدى ، فقال له :

ــ يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وانت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنها اليها منكم سراعا .

قال :

ــ ويحك ! فماذا أصنع انما أنا رجل واحد .

ــ قد وجدت ثانيا .

ــ من هو ؟

ــ أنا .

ــ ابغنا ثالثا .

ــ قد فعلت .

ــ من هو ؟

ــ زهير بن أبى أمية .

ــ ابغنا رابعا .

فذهب الى أبى البخترى بن هشام ، فقال له نحــوا مما قال لمطعم بن عدى ، فقال :

ــ وهل من احد يعين على هذا ؟

قال :

ــ نعــم .

ــ من هو ؟

ــ زهير بن أبى أمية والمطعم بن عدى وأنا معك .

ــ ابغنا خامسا .

فذهب الى زمعة بن الأســود ، فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له :

ـــ وهل على هذا الأمر الذى تدعونى اليه من أحد ؟
قال :
ـــ نعم ، ثم سمى له القوم ، فاتعدوا خطم الحجون (١) ليلا بأعلى مكة .
فاجتمعوا هنالك ، فأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير :
ـــ أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم .
فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبى أمية عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال :
ـــ يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .
قال أبو جهل وكان فى ناحية المسجد :
ـــ كذبت والله لا تشق .
قال زمعة بن الأسود :
ـــ أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كتبت .
وقال أبو البخترى :
ـــ صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب والله فيها ولا نقر به
قال المطعم بن عدى :
ـــ صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها .
وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك ، قال أبو جهل :

---

(١) خطم الحجون اسم مكان بمكة .

ـــ هذا أمر قضى بليل تشوور فيه بغير هذا المكان .

وابو طالب جالس فى ناحية المسجد ، فقام المطعم الى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد اكلتها الا « باسمك اللهم » .

قال الرسول لأبى طالب :

ـــ يا عم ، ان الله قد سلط ارضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسما هو الله الا اثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان .

فقال :

ـــ اربك اخبرك بهذا ؟

قال الرسول :

ـــ نعم .

ـــ فوالله ما يدخل عليك احد ، ثم خرج الى قريش فقال :

ـــ يا معشر قريش ، ان ابن اخى قد اخبرنى ـــ ولم يكذبنى قط ـــ ان الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة ، فلحست ما كان فيها من جور او ظلم او قطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله ، فان كان ابن اخى صادقا نزعتم عن سوء رايكم ، وان كان كاذبا دفعته اليكم فقتلتموه او استحييتموه .

قالوا :

ـــ قد انصفتنا ، فارسلوا الى الصحيفة ففتحوها فاذا هى كما قال الرسول ، فسقط فى ايديهم ونكسوا على رؤوسهم .

فقال ابو طالب :

ـــ علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر ؟

ثم دخل هو واصحابه بين استار الكعبة فقال :

ـــ اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منـــا .

وانصرفوا الى الشـــعب ، وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببنى هاشم ، ثم خرجوا الى بنى هاشم وبنى عبد المطلب، فأمروهم بالخروج الى مساكنهم ففعلوا ، وبذلك انتهى الحصار بانتصار باهر للمسلمين . ومضى الرسول الـــكريم يدعـــو الى رسالته السامية .. والله يرعاه ويضيء له المستقبل بنصرة الحق والعدل .. وتحرير الانسان ...

الفصل الخامس

المهاجرون

فى مكة .. صدع محمد بأمر ربه ودعا الى عبادة الله وحده لا شريك له ، فلم يجد من المشركين اذنا صاغية ، أو قلوبا واعية ، أو أدمغة متفتحة ، بل أخذوا يسخرون منه ويستهزئون به ، بيد ان الرسول الكريم مضى يبلغ رسالة ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهدى الله من هدى الى الايمان ، فكانت قريش تسوم هؤلاء الصابئين فى نظرهم الوانا متباينة من العذاب والعسف والاضطهاد ، وتمر الأيام ، والمسلمون يزدادون عددا ، والارستقراطية القرشية سادرة فى ضلالها وظلامها .

قال ابن اسحق : « انهم (١) عدوا على من أسلم واتبع رسول اللهصلىالله عليه وسلم منأصحابه، فوثبتكل قبيلة على منفيهامن المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر ،من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم » .

فلما رأى الرسول الكريم ما يصيب أصحابه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب الرسول الى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفرارا الى الله بدينهم .

(١) السيرة النبوية : جـ ١ ص ٣٣٩ .

وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان ، وكلهم من بطون قريش . وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت الرسول ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر ابن أبى طالب ، وقد أكرمهم النجاشى وأمنهم على حياتهم ، وأصبحوا فى رغد من العيش .

« فلما رأى أهل قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ، ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جليدين الى النجاشى ليخرجهم من بلاده » فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص (١) » .

سار عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص الى النجاشى ومعهما الهدايا ، وطلبا مقابلته ثم قالا له :

— أيها الملك ، انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

فقالت بطارقة النجاشى :

— أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم .

وكان النجاشى بعيد النظر ، فطلب هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم ، فتقدم جعفر بن أبى طالب ووصف له حالة

(١) المصدر نفسه : ج ١ ص ٣٥٧ .

العرب قبل الاسلام وبعده ، وشرح له أن دعوة الرسول تهدف الى ترك الاصنام وعبـــادة الله والتخلق بمكارم الاخلاق ، فقال له النجاشى :

ـــ هل معك مما جاء به عن الله شىء ؟

فقال جعفر : ـــ نعم :

قال : ـــ فاقراه على .

فقرأ جعفر عليه صـــدرا من كهيعص (سورة مريم) . فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أبلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشى :

ـــ ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما .

ولــما خرجا قال عمرو بن العاص :

ـــ والله لآتينه غدا بما استأصل به خضراءهم (١) ، ولأخبرنه انهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

وطلب مقابلة النجاشى من الغد وقال له :

ـــ أيها الملك، انهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما، فأرسل اليهم وسلهم عما يقولون فيه .

فطلب النجاشى المهاجرين مرة أخرى ، فلما دخلوا قال لهم :

ـــ ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر بن ابى طالب :

ـــ نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمتـــه القاها الى مـــريم العذراء البتول .

(١) يعنى جماعتهم ومعظمهم .

فقال النجاشى :

— والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت ، ثم قال : اذهبوا فانتم شيوم — أى آمنون — بأرضى ، من سبكم غرم — أى عاقبناه — ، فانصرفوا ، ورجع بعضهم الى مكة قبل هجرة الرسول الى المدينة ، وأقام بعضهم فى الحبشة الى السنة السابعة للهجرة .

كان الرسول فى ذلك الوقت يجد فى نشر الدعوة الى دين الله الحق ، وكان أهل بيته ينصرونه على الرغم مما لاقوه من الشدائد ، وما وافت السنة العاشرة من نزول الوحى حتى اصيب الرسول بوفاة عمه وحاميه ابى طالب ، ثم ماتت خديجة . وكان موتها قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين (١) .

وفقد الرسول بذلك نصيرين كبيرين ، واصبح بقاؤه فى مكة محفوفا بالمخاطر ، يقول ابو الفدا :

« وتتابعت على الرسول صلى الله عليه وسلم بموتهما المصائب ، ونالت منه قريش ، خصوصا أبو لهب بن عبد المطلب ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية ، فانهم كانوا جيران النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يؤذونه بما يلقون عليه من اقذار وقت صلاته وطعامه » .

ولما اشتد اذى قريش للرسول الكريم بعد وفاة عمه ، عزم على التماس قوم آخرين يكونون اكثر استعدادا لقبول دعوته ، فانطلق الى مدينة الطائف ، على بعد سبعين ميلا من مكة ، ودعا فريقا من أشرافها الى الاسلام ، ولكنه لم يلق منهم اذنا مصغية ، بل قابلوا دعوته بالاستهزاء ، وأغروا به سفهاءهم ،

---

(١) المختصر ج ١ ص ١٢٠ .

فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى ان رجلى الرسول ، لتدميان وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه ، حتى لقد شج فى رأسه شجاج ، فانصرف رسول الله ، من الطائف راجعا الى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل ولا امرأة (١) ، ولم يتمكن الرسول من دخول مكة ، فطلب حماية المطعم بن عدى ، فتسلح مع بنيه ، ودخلوا مع الرسول الحرم ، حيث طاف وصلى ولم يصبه أحد بسوء .

وفى ذلك الوقت أسرى بالرسول من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، حيث عرج به الى السماء ، يقول الله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير » .

وجدت دعوة الرسول بيئة صالحة فى أهل يثرب ، فآمنوا بدعوة الحق ، واصبحت يثرب معقل الاسلام ، وملجأ جماعة المسلمين الذين هاجروا فرارا بدينهم من مكة الى المدينة .

لقد اضطر المسلمون الى الهجرة ، اضطرهم الظلم والطغيان، فهم يحبون مكة ، مسقط رؤوسهم ومهد طفولتهم ، بيد ان الله ورسوله احب اليهم مما عداهما ومن ثم جاهدوا وصبروا على ما اوذوا وهاجروا وقاتلوا ، أولئك هم المؤمنون حقا .

وقد اشارت بعض آيات القرآن الكريم الى اسباب الهجرة ، فقد جاء فى الآية ١٩٥ من سورة آل عمران : « ... فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » .

وبناء الفعل المجهول فى « اخرجوا » يدل على أن المسلمين

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٤٢ .

أجبروا على الخروج من ديارهم بسبب ما أصابهم من اذى على أيدى المشركين .

وورد هذا الفعل بصيغة المبنى للمجهول فى الآية ٨ فى سورة الحشر للدلالة على نفس المعنى : « للفقراء المهاجرين الـــذين اخرجوا من ديارهم وامـــوالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » .

وفى سورة النحل جاء فى الآية ٤١ (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون) .

والذين هاجـــروا من بلادهم واوطانهـــم ، وتركوا أموالهـــم فى سبيل الله وحبا فى رضائه . هاجروا من بعد ماظلموا ، وذاقوا الأمرين من أعداء الله المشركين ، قيل نزلت فى بلال وصهيب ، وخباب ، وعمار ، عذبهم أهل مكة حتى ذاقوا العذاب الوانا ، وقال قتادة : نزلت فى المهاجرين الى الحبشة والأولى أن نفهم فى الآية العموم ، وانها تشمل كل من عذب فى سبيل الله وهاجر لله (١) .

والآية ١١٠ فى سورة النحل أيضا : (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) .

فتحدث عن فتنة بعض المهاجرين قبل هجرتهم . وللمفسرين فى تفسير معنى الفتنة الواردة فى الآية آراء مختلفة (٢) ، بعضها يذهب الى انها العذاب بقصد الردة ، وبعضها الآخر يذهب الى

---

(١) محمد محمود حجازى : التفسير الواضح ج ١١ ص ٣٩ .
(٢) القرطبى ج ١ ص ١٨٠ ، ١٩٢ .

أن المعنى أن بعض المسلمين أعطى الكفار ما ارادوا بلسانه مكرها فكأنهم بذلك قد فتنوا أنفسهم .

ومهما تباينت الآراء فى تفسير معنى الفتنة فهى تدور فى فلك الأذى والاضطهاد الذى صبه المشركون على المؤمنين .

وكان بلال بن رباح مولى ابى بكر رضى الله عنهما لبعض بنى جمح مولدا من مولديهم . وكان صادق الاسلام ، طاهر القلب ، وكان امية بن خلف يخرجه — اذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول بلال وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد . ومر به ابو بكر الصديق يوما وهم يصنعون ذلك به ، فقال لأمية بن خلف :

— الا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟

فقال : انت الذى افسدته ، فأنقذه مما ترى .

فقال ابو بكر :

— افعل ، عندى غلام اسود اجلد منه ، واقوى على دينك ، أعطيكه به .

قال : قد قبلت .

— هو لك .

فأعطاه ابو بكر الصديق غلامه ذلك ، وأخذه فاعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبابيه وأمه — وكانوا اهل بيت اسلام — اذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول لهم :

— « صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة » . فاما امه فقتلوها وهى تأبى الا الاسلام .

وكان ابو جهل الذى يغرى بهم فى رجال من قريش ، اذا سمع بالرجل قد اسلم له شرف ومنعة انبه وخزاه ، وقال : تركت دين ابيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيلن (١) رايك ، ولنضعن شرفك . وان كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك ، وان كان ضعيفا ضرب به وأغرى به (٢) .

وهؤلاء المهاجرون المطاردون الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم ظلما وعدوانا ، استقبلهم الانصار بالحفاوة والاكبار ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الانصار للمهاجرين ، فقد تميز بالحب العميق ، والبذل السخى ، ولكن المهاجرين مع هذا كانوا فى حاجة الى تشريع يحوطهم بمزيد من الرعاية والحماية والتكافل ، وكان المجتمع الاسلامى عقب الهجرة يمر بفترة حاسمة فى حياته ، واعداؤه فى داخل المدينة وخارجها يتربصون به ويتحينون الفرصة للانقضاض عليه ، فكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على المواساة والتوارث بعد الموت ارثا مقدما على ذوى الارحام (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولا يتهم من شىء حتى يهاجروا وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (٣) .

وقد ظل التوارث بينهما الى ما بعد موقعة بدر ، حتى نزلت آية : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » . فقصر التوارث

(١) قوله لنفيلن رايك اى لنقبحنه ونخطئنه كما فى القاموس .
(٢) ابن هشام : ج ١ ص ٣٤٢ .
(٣) سورة الانفال : ٧٢ .

على صـلة القربى والدم فقط ، لأن الهـدف من المؤاخاة ، كان تبديد وحشة الغربة ، وضـيق مفارقة الأهل ، وشد أزر بعضهم بعضا ، فلما قوى الاسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة ، بطل التوارث ، ورجع كل انسان الى ذوى رحمه (١) وقـد أثمرت هذه المؤاخاة ثمرتها الطيبة ، فنجد المهاجرين يأتون الرسـول ويقولون له : « يا رسول الله ! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم ، أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلا فى كثير ، كفونا المئونة ، وأشركونا فى المهنة — الخدمة — حتى لقد خشينا ، أن يذهبوا بالأجر كله ، فاستدرك الرسـول قائلا : الا ما اثنيتم عليهـم ، ودعوتهم لهم (٢) » .

وقد قسم الرسول على المهاجرين الفقراء وحدهم دون الأنصار أموال بنى النضير التى غنمها بغير حرب ، وكان يستهدف من وراء ذلك أن يعوض المهاجرين عن بعض ما تركوه فى مكة وأن يحدث نوعا من التقارب المالى بين المسلمين فى المدينة ، غير أنه عليـه السلام لم يشأ أن يفعل ذلك الا بعد أن يجمع الأنصار ويعرض عليهم ما يراه .

قال الزرقانى (٣) : « ذكر البلاذرى أنه صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : ليست لاخوانكم من المهاجرين أموال ، فان شئتم قسمت هذه وأموالكم بينها وبينكم جميعا ، وان شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه خاصة ، فقالوا : أقسم هذه فيهم واقسـم لهم من أموالنا ما شئت فنزلت « ويؤثرون على أنفسهم » وقال

---

(١) السمهودى : جـ ١ ص ١٩١ ، السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٢٢ .
(٢) أى أنكم بهذا الثناء والدعاء ، حصل منكم لهم نوع من المكافأة . السـيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٢١ .
(٣) جـ ٢ ص ٩٩ .

ابو بكر رضى الله عنه : جزاكم الله خيرا يا معشر الأنصار ، مامثلنا ومثلكم الا كما قال الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت بنا نعلنا فى الواطئين فزلت »

موقف كريم ، وصورة رائعة من صور الأيمان والحب والايثار وقد سجل القرآن المجيد هذا الموقف فى سورة الحشر فى الآيتين الثامنة والتاسعة بعد أن أورد قبلهما قصة بنى النضير وما يجب فيما يفيئه الله على المسلمين من أموال بغير قتال .

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

أثنى الله على المهاجرين والأنصار فى هاتين الآيتين ، مدح المهاجرين بصدق الايمان والجهـاد ، فقد خرجوا من ديارهم وأموالهم يرجون فضل الله ورضوانه ، وينصرون الله ورسوله ومدح الأنصار الذين تبوءوا الدار ، أى استوطنوا المدينة قبل المهاجرين ، باخلاص الايمان وحب الذين هاجروا اليهم كما مدحهم بالايثار فى أسمى صوره ، لأنه ايثار عن حاجة . وهذا يدل على صفاء النفس من أكدار المـادة ، ويدل على قـوة الروح ومبلغ العزوف عنها ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون .

والمهاجرون بهجرتهم قد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فهم لم يهاجروا رهبة من قريش ولا رغبة فى متاع الدنيا ولكنهم هاجروا يرجون رحمة الله ، ويبتغون فضلا منه ورضـوانا وينصرون الله

ورسوله : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » (١) .

ان المهاجرين والأنصار هم حملة الاسلام الأول ، خاضوا من أجله معارك ضارية ، وتعرضوا لأخطار هائلة ، فما ضعفوا وما استكانوا ، لقد اضطهدوا وقاتلوا وقتلوا ، وأنفقوا وبذلوا فى سبيل الله ، فحقق الله لهم عهده ، ووعده ، ونصرهم على أعدائهم ، ورضى عنهم ، وغفر لهم ، واعد لهم جزاء عظيما ، ونعيما مقيما ، لأنهم المؤمنون حقا وصدقا : (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم (٢) .

جاهد المهاجرون وقاتلوا لاعلاء كلمة الله فى الأرض ، ونشر راية الاسلام والعدل والحق فى كل ركن من أركان الجزيرة العربية .

لما تفاقم أذى قريش للرسول والذين آمنوا معه أمره الله تعالى بقتال المشركين ، وهو ما يعبر عنه بالجهاد أو القتال فى سبيل الله ، وهو القتال الخالص لله تعالى ، وقد أذن الله لرسوله وللمؤمنين بأن يقاتلوا فى سبيل الله .

وقد أذن للمسلمين بالقتال لأمور منها :

١ ــ الدفاع عن النفس ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، الا أن يقولوا ربنا الله(٣) » وقوله تعالى : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من

---

(١) سورة البقرة : ٢١٨ .
(٢) سورة الانفال : ٧٤ .
(٣) سورة الحج : ٣٩ .

حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهــوا فان الله غفــور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عــدوان الا على الظالمين (١)) .

(ومالكم لا تقاتلون فى ســبيل الله والمستضعفين من الرجــال والنساء والولدان ، الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا (٢)) .

من ذلك نرى أن القتال لم يشرع الا دفاعا عن النفس وما الى ذلك من العرض والمال .

٢ — تأمين الدعوة والدفاع عنها أمام من يقف فى سبيلها ، حتى لا يخشى من يريد الدخول فى الاسلام الفتنة عن دينه .

ولما تآمر اهل مكة مع غيرهم من العرب على قتال الرسول ، أمره الله بقتال المشركين كافة : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة (٣) » .

ولما نقض يهــود المدينة العهد الذى أخذه الرســول عليهم وانضموا الى مشركى قريش لقتاله ، نزل قوله تعالى : (واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين (٤)) .

وعد الله المسلمين النصر على أعدائهم فى الدنيا وبشرهم بالنعيم

(١) سورة البقرة : ١٩٠ — ١٩٣ .
(٢) سورة النساء : ٧٤ .
(٣) سورة التوبة : ٣٦ .
(٤) سورة الانفال : ٥٨ .

فى الآخرة فقال : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله ، فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما (١) » .

وقوله تعالى : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون ، فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون (٢) » .

وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، اذا لقيتم الذين كفروا زحفا ، فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »(٣) .

ويبدأ المهاجرون جهادهم البطولى مع قريش ، فيقدمون أرواحهم وأولادهم أموالهم عندما يأمرهم الرسول بالاستعداد لقتال قريش التى حاربت الاسلام ، وطاردت المسلمين فى كل مكان .

سرية عبيدة بن الحارث :

بعث الرسول عبيدة بن الحارث الى بطن رابغ فى شوال على رأس ثمانية أشهر من مهاجر رسول الله ، فى ستين رجلا من المهاجرين ليس فيهم أنصارى ، فلقى أبا سفيان بن حرب ، وهو فى مائتين من أصحابه ، وهو على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ على عشرة أميال من الجحفة ، وأنت تريد قديدا عن يسار الطريق ، وانما نكبوا عن الطريق ليرعوا ركابهم ، فكان بينهم الرمى ولم يسلوا السيوف ولم يصطفوا للقتال ، وانما كانت بينهم المناوشة ، الا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم ،

---

(١) سورة النساء : ٧٤ .
(٢) سورة النساء : ١٠٤ .
(٣) سورة الانفال : ١٥ — ١٦ .

فكان اول سهم رمى به فى الاسلام ، ثم انصرف الفريقان على حاميتهم (١) .

غزوة الايواء :

خرج الرسول من المدينة فى صفر على رأس اثنى عشر شهرا من مهاجره ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، يريد قريشا وبنى ضمره ، فوادعته فيها بنو ضمرة ، على أن لا يغزو بنى ضمرة ولا يغزوه ، ولا يكثروا عليه جميعا ، ولا يعينوا عدوا ، وكتب بينه وبينهم كتابا . ثم رجع الرسول فى المهاجرين الى المدينة ولم يلق حربا .

غزوة بواط : (جبل بقرب ينبع)

خرج فيها الرسول فى المهاجرين يريد قريشا ، ثم رجع الى المدينة ولم يلق حربا .

غزوة ذى العشيرة :

خرج الرسول فى مائتين من المهاجرين يعترض لعير قريش حين ابدأت الى الشام ، وكان قد جاءه الخبر بفصولها من مكة فيها اموال قريش ، فبلغ ذا العشيرة — وهى لبنى مدلج بناحية ينبع ، فوجد العير التى خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام ، وهى العير التى خرج لها أيضا يريدها حين رجعت من الشام فساحلت على البحر ، وبلغ قريشا خبرها فخرجوا يمنعونها ، فلقوا الرسول ، ببدر فواقعهم وقتل منهم من قتل ، وبذى العشيرة كنى الرسول ، على بن أبى طالب أبا تراب ، وذلك انه رآه نائما متمرغا فى البوغاء فقال : اجلس ، أبا تراب ! فجلس . وفى هذه الغزوة

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢ .

وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ، ثم رجع الى المدينة ولم يلق كيدا (١) .

سرية عبد الله بن جحش :

بعث الرسول عبد الله بن جحش فى ثمانية رهط من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار احد ، وكتب له كتاباً ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا .

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب ، فنظر فيه ، فاذا هو :

« اذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم » .

فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال :

ـــ سمعا وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى الى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن استكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم احد ، وسلك على الحجاز ، حتى اذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يتعقبانه فتخلفا عليه فى طلبه .

---

(١) المصدر السابق ص ٤ .

ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وادما وتجارة من تجارة قريش فيهـــا عمرو بن الحضرمى وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، واخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هاشم بن المغيرة ، فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريبا منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن ، وكان قد حلق رأســـه ، فلما رأوه أمنوا ، وقالوا :

— عمار لا بأس عليكم منهم ، وتشاور القوم فيهم ، فقال القوم :

— والله لئن تركتمْ القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم منه ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام .

فتردد القوم ، وهابوا الاقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، واجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ مامعهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بســـهم ، فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت القـــوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم ، واقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين حتى قدموا على الرسول بالمدينة .

فلما قدموا على الرسول ، قال :

— ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام .

فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، فلما قال الرسول ذلك سقط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم اخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش :

— قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة :

— انما أصابوا ما أصابوا فى شعبان .

وقالت يهود تفاءل بذلك على رسول الله :

— عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله : عمرو : عمرت الحرب ، والحضرمى : حضرت الحرب ، وواقد بن عبد الله : وقدت الحرب ، فجعل الله عليهم ذلك لالهم ، فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسوله : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (١) » .

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق ، قبض الرسول العير والأسيرين وبعثت اليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، فقال الرسول :

— لانفديكموهما حتى يقدم صاحبانا — « يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان — فانا نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم .

فقدم سعد وعتبة ، ففداهما الرسول منهم ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم ، وحسن اسلامه ، وأقام عند الرسول حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرا .

(١) سورة البقرة : ٢١٧ .

فلما تجلى عن عَبد الله بن جحش واصحابه ماكانوا فيه — حين نزل القرآن — طمعوا فى الأجر ، فقالوا :

— يارسول الله ، انطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟

فأنزل الله عز وجل فيهم :

(ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم (١)) . فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرجاء (٢) وانتصر المهاجرون والأنصار على قريش فى غزوة بدر (٣) التى كانت فاتحة انتصارات باهرة لم تلبث أن غيرت وجه الدنيا .. والتاريخ ..

---

(١) سورة البقرة : ٢١٨ .
(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ — ص ٢٤٢ .
(٣) راجع كتابنا « المدينة المنورة » طبعة دار الشعب .

الفصل السادس

فتـــح مـكة

اخذ الرسول يتطلع الى فتح مكة التى أخرجته منذ ست سنين، ثم ان محمدا بدأ ، بعد الذى صـدر عن اليهود ، يعد الكعبة التى يقدسها العرب مركز دينه الروحى ، واضحى صحابته المهاجرون يتأوهون حسرة على وطنهم الأصلى (١) .

وفى اول ذى القعدة اول الأشهر الحرم (٢) سار الف وأربعمئة من المسلمين الى مكة ومعهم سبعون بدنة ، حتى اذا كانوا بذى الحليفة ، وضعوا أسلحتهم ولم يحمل الواحد منهم غير سيف ، فارتابت قريش فيهم مع دلالة أوضاعهم على نياتهم السـلمية ، فأرسلوا خالد بن الوليد على رأس كوكبة من الفرسـان لتقف سيرهم ، فسلك محمد بأصحابه طريقا جبلية وعرة على ضوء القمر حتى بلغ الحديبية ، وأرسل الرسول لقريش خراش بن امية الكعبى ليخبرهم ما جاء له ، فعقروا به ، وأرادوا قتله فمنعه من هناك من قومه ، فأرسل عثمان بن عفان فقال :

ــ اذهب الى قريش فأخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد وانما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته ، معنا الهدى ننحره وننصرف .

فأتاهم فأخبرهم فقالوا :

ــ لا كان هذا ابدا ولا يدخلها علينا العام ! !

وبلغ الرسول الـكريم أن عثمان قد قتـل ، فذلك حيث دعا

(١) اميل درمنجم : حياة محمد ص ٢٩٢ .
(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٣٩ ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٧٥ .

المسلمين الى بيعة الرضوان فبايعهم تحت الشجرة وبايع لعثمان، فضرب بشماله على يمينه لعثمان ، وقال :

— انه ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله .

وجعلت الرسل تختلف بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين قريش فأجمعوا على الصلح والموادعة ، فبعثوا سهيل بن عمرو فى عدة من رجالهم ليعرض على الرسول الكريم الصلح ، فوزنت كل كلمة من عقد الصلح ، وأبدى الرسول صلى الله عليه وسلم من الحذق ما داور معه سهيلا الذى كان يظن انه المدبر للمفاوضات .

دعا الرسول صلوات الله عليه على بن أبى طالب وقال له :

— « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » .

فقال سهيل :

— لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم .

فوافق الرسول على ذلك ، ثم قال :

— اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

فقال سهيل :

— لو شهدت أنك رسول الله لم اقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فقال الرسول : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على انه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وان بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا اسلال ولا اغلال ، وانه من أحب أن يدخل فى عقد محمد

وعهده دخل فيه ، ومن احب ان يدخل عقد قريش وعهدهم دخل فيـــه » .

وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم ، وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وانه اذا كان عـــام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب السيوف فى القرب ، لا تدخلها بغيرها .

وتواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده .

تعد هذه المعاهدة فتحا مبينا لمحمد الذى استطاع ان يفاوض البلد الذى اخرجه مفاوضة النظير للنظير ، وقد ابصر محمد ان الثمرة اينعت وراى الا يتعجل فى اقتطافها ، ولم يدرك أصحابه ما فى اعتداله من حذق .

ومما زاد المسلمين غما وهما مجىء ابى جندل يرسف فى الحديد ، وابو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو ، وقد أسلم فسجنه ابوه ففلت لاجئا الى المسلمين بالحديبية .

فلما راى سهيل ابنه أبا جندل قال :

ــ يا محمد ، هذا أول ما اقاضيك عليه ان ترده الى ، لقــد لجت القضية بينى وبينك .

فجعل ابو جندل يصرخ بأعلى صوته قائلا :

ــ يا معشر المسلمين أارد الى المشركين يفتنونى عن دينى ؟ الا ترون ما لقيت ؟

فقال الرسول :

ــ يا ابا جندل ، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا واعطيناهم على ذلك واعطونا عهد الله وانا لا نغدر بهم .

وقد عز على المسلمين أن يعودوا الى المدينة من غير أن يعتمروا على الأقل ، وكانوا واثقين من وعد الله اياهم فتح مكة فى رؤيا رآها الرسول ، وكاد الشيطان ينزغ بين المسلمين فى هذه المرة لولا حكمة أم سلمة زوجة الرسول وبعد نظرها . ذكر الطبرى[1] أن الرسول — بعد أن فرغ من صلح الحديبية — « قال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم أحلقوا ، فلم يقم منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم احد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس وما كان من مخالفتهم أمره ، فقالت : يا نبى الله ، أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحـر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام فخرج ، فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا « غما » .

وقد ثارت نفوس المسلمين واخذوا يتساءلون فيما بينهم ، على أن أحدا لم يجرؤ على مفاتحة الرسول فى شأن ذلك الصلح ، حتى قام عمر ، وقد طوعت له جرأته أن يسأل الرسول وقال له :

— ألست نبى الله حقا ؟

محمد : بلى .

عمر : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

محمد : بلى .

عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا اذن ؟

محمد : انى رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصرى .

عمر : أو لست كنت تحدثنا أننا سنأتى البيت فنطوف به ؟

محمد : بلى ، أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟

---

(1) جـ ٣ ص ٨٠ .

عمر : لا .
محمد : فانك آتيه ومطوف به .
وعمر اذ لم يرض بهذا ، ذهب الى ابى بكر فقال له :
ــ اليس هذا نبى الله حقا ؟
ابو بكر : بلى .
عمر : السنا على الحق وعدونا على الباطل ؟
ابو بكر : بلى .
عمر : فلم نعطى الدنية فى ديننا اذن ؟
ابو بكر : ايها الرجل انه لرسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله انه على الحق .
عمر : اليس كان يحدثنا اننا سنأتى البيت ونطوف به ؟
ابو بكر : بلى ، افاخبرك انك تأتيه العام ؟
عمر : لا .
ابو بكر : فانك آتيه ومطوف به .

وقد ندم عمر على ما فرط منه ، فحرك بعيره وتقدم المسلمين وخشى أن ينزل فيه قرآن ، فما نشب أن سمع صارخا يصرخ به ، فقال :

ــ اخشى أن يكون قد نزل فى قرآن .
فجاء الرسول ، فقال له الرسول :
لقد انزلت على الليلة سورة لهى أحب الى مما طلعت عليه الشمس .
ثم قرأ : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » .
فقال عمر : اذلك فتح اذن ؟
فقال الرسول : بلى .

شرع الرسول فى استغلال هذه الهـدنة لبث الدعوة وتبليغ الرسالة والعمل على تنظيم شئون المدينة الداخلية . وقـد عـد الزهرى هذا الصلح فتحا عظيما للاسلام اذ يقول : « فما فتح فى الاسلام فتح قبله أعظم منه .. فلمـا كانت الهدنة ووضعت الحـرب أوزارها وأمن الناس كلهم بعضهم بعضـا ، فالتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا الا دخل فيه ، فلقد دخل فى تينك السنتين فى الاسلام مثل ما كان فى الاسلام من قبل ذلك وأكثر (١) » .

كان صلح الحديبية فى الواقع نصرا للمسلمين ، فقد أدركت قريش أن أمر الاسلام ظاهر لا محالة .

وكان المسلمون واثقين من وعد الله اياهم بفتح مكة .

لذلك أسرع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وغيرهمـا ، فأدركوا الفرصة قبل فواتها ، وعقدوا النيـة على الدخول فى الاسلام ، ووقف خالد فى قريش يقول :

— لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه .

فزع عكرمة بن أبى جهل لمـا سمع ، فرد قائلا :

— لقد صبئت يا خالد .

فقال خالد : لم أصبأ ، ولكنى أسلمت .

فقال عكرمة :

— والله ان كان أحق قريش الا يتكلم بهذا الكلام لأنت .

— ولم ؟

— لأن محمدا وضع شرف أبيك حين جرح ، وقتل عمك وابن

(١) الطبرى ج ٥ ص ٨١ .

عمك ببدر ، فوالله ما كنت لاسلم ولاتكلم بكلامك يا خالد . أما رايت قريشا يريدون قتاله ؟

ــ هذا أمر الجاهلية وحميتها ، ولكنى والله اسلمت حين تبين لى الحق .

وبعث خالد الى الرسول بافراس ، كما بعث اليه باقراره بالاسلام .

لقى خالد عمرو بن العاص وهو مقبل من مكة يريد المدينة المنورة ، فقال عمرو : اين يا أبا سليمان ؟

قال :

ــ والله لقد استقام المنسم ، وان الرجل لنبى . اذهب والله أسلم ، فحتى متى ؟

فقال عمرو : والله ما جئت الا لأسلم .

فقدما على الرسول ، فتقدم خالد وبايع ، ثم دنا عمرو فقال :

ــ يا رسول الله ، انى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى .

فقال الرسول :

ــ يا عمرو بايع ، فان الاسلام يجب ما قبله ، وان الهجرة تجب ما قبلها (١) .

* * *

خرج مالك بن عباد ــ حليف بنى بكر ــ تاجرا ، وكان ذلك قبل الاسلام . فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه ، واخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه ، ثم عدت خزاعة على بنى الأسود بن رزق ــ وهم أشراف بنى بكر ــ فقتلوا منهم بعرفة عند أنصاب الحرم .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ .

وبينما بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الاسلام وتشاغل الناس به (١) .

ولما كان صلح الحديبية دخلت بنو بكر فى عقد قريش ، ودخلت خزاعة فى عقد الرسول .

وقد انتهزت بنو بكر تلك الهدنة ، وارادوا أن يصيبوا من خزاعة بأولئك النفر الذى أصابوا منهم ، فخرج نوفل بن معاوية — من بنى بكر — حتى بيت خزاعة وهم على ماء لهم يقال له الوتير ، فأصابوا منهم رجلا ، تحاوزوا واقتتلوا ، واعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيا ، حتى حازوا خزاعة الى الحرم .

فلما تظاهرت قريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، خرج عمرو بن سالم الخزاعى ، حتى قدم على الرسول بالمدينة ، فوقف عليه وهو فى المسجد جالس بين ظهرانى الناس فقال :

يارب انى ناشد محمدا
حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا
ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا (٢)
وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا
ان سيم خسفا وجهه تربدا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٠ .
(٢) أعتدا : حاضرا .

في فيلق كالبحـــر يجــرى مــزبدا
ان قريشـــــا أخلفــوك المــوعدا
ونقضــــــوا ميثـــــاقك المـــؤكدا
وجعلـــوا لي في كـــداء(١) رصـــدا
وزعمـــوا ان لست أدعـــو أحـــــدا
وهـــم اذل واقـــــل عــــــــددا
هـــم بيتـــونا بالـــــوتير هجـــــدا
وقتـــلونا ركعـــــــا وســـــجدا

فقال الرسول ـــ حين سمع ذلك : قد نصرت يا عمرو !

وجاء بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله فأخبروه بمن أصيب منهم ، ومعاونة قريش بني بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين الى مكة .

وقال الرسول للناس : كأنى بأبى سفيان قد جاء ليشد العقد ، ويزيد في المدة !

ومضى بديل واصحابه ، فلقوا أبا سفيان بعسفان(٢) قد بعثته قريش الى الرسول ليشد العقد ، ويزيد في المدة ، وقد رهبوا الذى صنعوا .

فقال أبو سفيان : من اين اقبلت يا بديل ؟

قال : سرت في خزاعة في هذا الساحل ، وفي بطن هذا الوادى .

قال : اجئت محمـــدا ؟

قال : لا .

فلما راح بديل الى مكة قال أبو سفيان :

ـــ ان كان بديل قد ذهب الى المدينة فقد اكلت راحلته النوى ، ثم عمد الى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيه النوى ، فقال :

---

(١) كداء : موقع بمكة .
(٢) عسفان : موضع على مرحلتين في مكة .

— أحلف لقد جاء بديل محمدا ! !

وخرج أبو سفيان حتى قدم المدينة ، فقال :

— يا محمد انى كنت غائبا فى صلح الحديبية ، فأشدد فى العهد وزدنا فى المدة .

فقال الرسول : ولذلك قدمت يا أبا سفيان ؟

قال : نعم .

قال الرسول : هل كان قبلكم حدث ؟

قال : معاذ الله !

قال : فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبيـــة ، لا نغـــير ولا نبـــدل (١) .

ثم قام أبو سفيان ودخل على ابنته أم حبيبة — زوج الرسول — فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول طوته دونه ، فقال :

— يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟

قالت :

— بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر !!

قالت :

— هدانى الله للاسلام ، وانت يا ابتى سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك دخولك فى الاسلام ، وانت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر ! !

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٣٦٢ .

قال :

ـــ يا عجباه ! وهذا منك ايضا ! اترك ما كان يعبد آبائى واتبع دين محمد ؟

ثم خرج فلقى ابا بكر الصديق فكلمه ، وقال تكلم محمدا ، او تجير انت بين الناس !

فقال : جوارى فى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم لقى عمر بن الخطاب فكلمه بمثل ما كلم به ابا بكر فقال عمر:

ـــ والله لو وجدت الذر (١) تقاتلكم لاعنتها عليكم !

فقال ابو سفيان : جزيت من ذى رحم شرا .

ثم دخل على عثمان بن عفان فقال :

ـــ انه ليس فى القوم احد اقرب بى رحما منك ، فزد فى الهدنة وجدد العهد ، فان صاحبك لن يرده عليك ابدا .

قال : جوارى من جوار رسول الله .

ثم خرج فدخل على على بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ، وعندها حسن بن على غلام يدب بين يديها ، فقال :

ـــ يا على ، انك امس القوم بى رحما ، وانى قد جئت فى حاجة، فلا ارجعن كما جئت خائبا ، اشفع الينا الى محمد .

قال :

ـــ ويحك يا ابا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله على أمر، ما نستطيع ان نكلمه فيه .

فالتفت الى فاطمة فقال :

ـــ يا ابنة محمد ، هل لك ان تامرى بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر !

---

(١) الذر : النمل الاحمر الصغير .

قالت :

— والله ما بلغ بنبى ذاك ان يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد !

قال :

— يا أبا الحسن ، انى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى.

قال :

— والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك .

قال أبو سفيان :

— أو ترى مغنيا عنى شيئا ؟

قال على :

— لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان الى المسجد فقال :

— أيها الناس ، انى قد أجرت بين الناس .

ثم ركب بعيره ، فانطلق ، فلما قدم على قريش قالوا :

— ما وراءك ؟

قال : جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد على شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم اجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم ، ثم جئت على بن أبى طالب فوجدته الين القوم ، وقد أشار على بشىء صنعته ، فوالله ما ادرى هل يغنينى شيئا أم لا !

قالوا : وبماذا أمرك ؟

قال : أمرنى ان أجير بين الناس ففعلت .

قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟

قال : لا !

قالوا : ويلك ! والله ان زاد على أن لعب بك ، فما يغنى عنا ما قلت .

قال : والله ما وجدت غير ذلك .

وأمر الرسول الناس بالجهاز ، وأمر اهله ان يجهزوه ، فدخل أبو بكر الصديق على ابنته عائشة رضى الله عنها وهى تحرك بعض جهاز الرسول ، فقال :

— أى بنية ، أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تجهزوه ؟

قالت : نعم ، فتجهز .

قال : فأين ترينه يريد ؟

قالت : والله ما أدرى .

ثم ان الرسول أعلم الناس (١) انه سائر الى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ ، وقال :

— « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » . فتجهز الناس .

فقال حسان بن ثابت يحرض الناس ، ويذكر مصاب رجال خزاعة :

عنانى ولم أشهد ببطحاء مكة
رجال بنى كعب تحز رقابها

بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم
وقتلى كثير لم تجن ثيابها

الا ليت شعرى هل تنالن نصرتى
سهيل بن عمرو وحرها وعقابها

---

(١) ابن هشام : ج ٤ ص ١١ .

وصفوان عــود حز من شعر استه
فهذا أوان الحرب شد عصابها(١)

فــلا تأمننـا يـا ابن أم مجــالد
اذا احتلبت صرفا واعصل نابها (٢)

ولا تجـزعوا منها فان سـيوفنا
لهـا وقعـة بالموت يفتـح بابهـا

ولمـا اجمع الرسول المسير الى مكة كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا الى قريش ، يخبرهم بالذى اجمع عليه الرسول فى أمرهم. وكان كتابه الى ثلاثة نفر : صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، يقول فيه :

« ان رسول الله قد اذن فى الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم، وقد احببت ان يكون عندكم يد بكتابى هذا (٣) » .

واعطى الكتاب لامرأة وجعل لهـا جعلا على أن تبلغه قريشا ، فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت قرونها ، ثم خرجت به . وأتى الرسول الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير ابن العوام ، فقال : أدركا امرأة قد كتب معهـا حاطب بن أبى بلتعة كتابا يحذر قريشا .

فخرجا حتى أدركاها بالخليقة (٤) ، فاستنزلاها ، والتمسا الكتاب فى رحلها فلم يجدا شيئا .

فقال لهـا على : انى أحلف ما كذب رسول الله ، ولا كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك !

---

(١) صفوان : هو صفوان بن أمية بن خلف . والعود : المسن فى الابل مع أن فيه بقيـة .
(٢) ابن أم مجالد : هو عكرمة بن أبى جهل ؛ والصرف : اللبن الخالص . واعصل: أى أعوج ، يقال : ناب أعصل بين العصل ، أى معوج شديد .
(٣) امتاع الاسماع ج ١ ص ٣٦٢ .
(٤) الخليقة : ماء بين مكة واليمامة .

فلما رأت الجد منه قالت : اعرضا عنى . فاعرضا عنها ، فحلت قرون(١) رأسها واستخرجت الكتاب منه ، فدفعته اليهما فجاءا به الى الرسول .

ودعا الرسول حاطبا ، فقال :

ــ يا حاطب ، ما حملك على هذا ؟

قال : يا رسول الله ، أما والله انى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءا ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين اظهرهم أهل وولد ، فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب : قاتلك الله ! ترى رســول الله يأخذ بالانقاب ، وتكتب الى قريش تحذرهم !

دعنى يا رسول الله اضرب عنقه ، فانه قد نافق .

فقال الرسول : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله اطلع يوم بدر على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لــكم .؟

وانزل الله تعالى فى حاطب (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل(٢) .

برح الرسول المدينة ومضى لسفره ، حتى نزل مر الظهران (٣) ، فى عشرة آلاف مقاتل ، وعلى رأس كل قبيل زعيمه ولواؤه ، فها هى ذى قبائل بنى غفار ، وبنى سليم ، ومزينة ، وجهنية ، وتميم ، وأسد ، وقيس ، وعلى رأس الجميع الأنصار والمهاجرون .

---

(١) القرون جمع قرن : وهى غدائر المرأة ، وضفائرها .
(٢) سورة الممتحنــة .
(٣) واد قرب مــكة .

وكانت قد عميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم خبر عن الرسول، ولا يدرون ما هو بفاعل . وخرج فى تلك الليالى ابو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا ، أو يسمعون به . وكان العباس بن عبد المطلب ، قد لقى الرسول ببعض الطريق ، وكان ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، قد لقيا الرسول أيضا بنيق العقاب ، فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه ، وكلمته أم سلمة فيهما ، فقالت :

— يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك .

قال : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال .

فلما خرج الخبر اليهما بذلك ومع أبى سفيان بنى له فقال :

— والله ليأذنن لى أو لآخذن بيدى بنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا . فلما بلغ ذلك الرسول رق لهما ، ثم آذن لهما ، فدخلا عليه فأسلما .

ولما نزل الرسول مر الظهران ، قال العباس بن عبد المطلب، فقلت :

— واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله صلى عليه وسلم مكة عنوة، قبل أن يأتوه فيستأمنوه ، انه لهلاك قريش الى آخر الدهر . فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، فخرجت عليها ، حتى جئت الأراك ، فقلت :

— لعلى أجد بعض الحطابة ، أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة يأتى مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليخرجوا اليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

قال : فوالله انى لأسير عليها ، والتمس ما خرجت اليه ، اذ سمعت كلام ابى سفيان ، وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وابو سفيان يقول :

ــ ما رايت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا .

ويقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

ويقول ابو سفيان : خزاعة اذل واقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

قال : فعرفت صوته ، فقلت يا أبا حنظلة ، فعرف صوتى ، فقال ابو الفضل ؟ قلت : نعم .

قال : مالك ؟ فداك ابى وأمى .

قلت : ويحك يا ابا سفيان ، هذا رســـول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ، واصباح قريش والله !

قال : فما الحيلة ؟ فداك ابى وأمى .

قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقــك ، فاركب فى عجــز هذه البغلة حتى آتى بك رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم ، فأستأمنه لك .

قال : فركب خلفى ورجع صاحباه فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فاذا راوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليهـــا ، قالوا : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام الى .

فلما راى ابا سفيان على عجز الدابة ، قال :

ــ ابو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وركضت البغلة ، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء. فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل عليه عمر ، فقال :

— يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعنى فلأضرب عنقه .

فقلت : يا رسول الله ، انى قد أجرته ، ثم جلست الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى رجل . فلما اكثر عمر فى شأنه قلت : مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ولكنك قد عرفت انه من رجال بنى عبد مناف .

قال : مهلا ياعباس ، فو الله لاسلامك يوم أسلمت ، كان أحب الى من اسلام الخطاب لو اسلم . وما بى الا انى قد عرفت ان اسلامك كان أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اسلام الخطاب لو اسلم .

فقال صلى الله عليه وسلم : اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فأتنى به . فذهبت به الى رحلى ، فبات عندى ، فلما أصبح عدوت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه الرسول ، قال :

— ويحك يا أبا سفيان ! الم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله ؟

قال : بأبى انت وأمى . ما أحلمك واكرمك واوصلك ، والله لقد ظننت ان لو كان مع الله اله غيره ، لقد اغنى عنى شيئا بعد .

قال : ويحك يا أبا سفيان ! الم يأن لك ان تعلم انى رسول الله ؟

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك واكرمك واوصـــلك ، اما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا .

فقال له العباس : ويحك ! اسلم واشهد أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك .

فشهد شهادة الحق ، واسلم .

قال العباس : قلت : يارسول الله ، ان أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا يكون له فى قومه .

فقال : نعم ، من دخل دار ابى سفيان فهو آمن ، ومن اغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما ذهب لينصرف ، قال الرسول :

ـــ يا عباس ، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها .

قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادى ، ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال :

ـــ يا عباس من هذه ؟ فأقول : سليم ، فيقول : مالى ولسليم ؟ ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة . فيقول مالى ولمزينة ! حتى نفدت القبائل ، ماتمر قبيلة الا يسألنى عنها ، حتى مر رسول الله فى كتيبته الخضراء (١) ، فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم الا الحدق (٢) من كثرة الحديد ، فقال :

ـــ سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟

قلت : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار !

قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقــد اصبح ملك ابن اخيك عظيما !

قلت : يا أبا سفيان ، انها النبوة .

(١) انما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .
(٢) جمع حدقة ، وهى سواد العين .

قال : نعم ، اذن !

قلت : الحق بقومك الآن فحذرهم .

فخرج أبو سفيان سريعا حتى أتى مكة ، فصرخ فى المسجد :

— يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

فقامت اليه هند بنت عتبة فقالت :

— اقتلوا هذا الحميت الدسم الأحمش (١) . قبح من طليعة قوم !

قال : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فانه قد جاءكم مالا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ! وما تغنى عنا دارك ؟

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد .

ولما انتهى الرسول الى ذى طوى (٢) وقف على راحلته متعجرا بشقة حبرة حمراء (٣) وانه ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أن عثنونه(٤) ليكاد يمس واسطة الرحل .

وكان الرسول قد فرق جيشه من ذى طوى ، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض الناس من كدى (٥) ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل فى بعض الناس من كداء(٦) ، وأمر خالد بن الوليد فدخل

(١) الحميت : زق السمن ، والاحمس : الشديد اللحم ، تشبهه بالزق لسمنه .
(٢) ذو طوى : موضع قرب مكة .
(٣) متعجرا : معتما ، والشقة : النصف . والحبرة : ضرب من ثياب اليمن .
(٤) عثنون : لحية .
(٥) كدى : جبل بأسفل مكة على طريق اليمن .
(٦) كداء : جبل بأعلى مكة .

من الليط باسفل مكة فى بعض الناس ، ودخل الرسول من اذاخر حتى نزل بمكة ، وضربت له هناك قبته .

فكل الجنود دخل فلم يلق جمعا ، الا خالد بن الوليد ، فانه وجد جمعا من قريش وأحابيشها ، فيهم صفوان بن امية ، وعكرمة ابن أبى جهل وسهل بن عمرو ، فمنعوه الدخول ، وشهروا السلاح ، ورموا بالنبل ، وقالوا : لا تدخلها عنوة ابدا . فصاح خالد فى أصحابه وقاتلهم ، فقتل منهم اربعة وعشرين رجلا من قريش ، واربعة من هذيل ، وانهزموا اقبح هزيمة . وعندما دخل سعد بن عبادة قال :

اليوم يوم الملحمة ...

اليوم تستحل الحرمة ...

اليوم أذل الله قريشا ...

فسمعها رجل من المهاجرين فقال :

— يارسول الله ، اسمع ماقال سعد بن عبادة ، ماتأمن ان تكون له فى قريش صولة .

واذا بشاعر قريش ضرار بن الخطاب يقول للرسول بين يديه :

يا نبى الهـدى اليـك لجـا	حى قريش ولات حين لجـاء
حين ضاقت عليهم سـعة الأر	ض وعـاداهم اله السماء
ان سعدا يريد قاصمة الظهـ	ـر بأهل الحجون والبطحـاء
خزرجى لو يستطيع من الغيـ	ـظ رمـانا بالنسر والعـواء
فلئن اقحـم اللواء ونادى :	يا حماة اللواء ! يا اهل اللواء !
ثم ثابت اليه من بهم الخـز	رج والأوس انجـم الهيجـاء
لتـكونن بالبطـاح قـريش	مضغة القـاع فى أكف الامـاء
فانهينـه فانه أسـد الأيـ	ـد لدى الغاب والغ فى الدماء(1)

---

(1) الروض الانف : ج ٢ ص ٢٧١ .

ثم يتقدم عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، الى رسول الله قائلين :

— الا تأمر يارسول الله ! الا يكون لسعد فى قريش صولة ؟ !

هنا .. احس الرسول ضعف قريش ، فها هى ذى قد اتت اليه بزعمائها وشعرائها ، تستسلم بين يديه .

ويقول الرسول لأبى سفيان :

— اليوم يوم المرحمة .. اليوم أعز الله قريشا .

راجيا بذلك تأليفهم الى الاسلام ، طامعا فى أن يكونوا للاسلام خير عون وللدعوة المحمدية اكبر نصير ، ثم يرسل الى سعد بن عبادة ، بأن يدفع اللواء لابنه قيس ، فيذعن سعد لأمر الرسول وهو المؤمن الصادق الايمان ، والسميع المطيع لأمر الرسول ، سيما أن سعدا قد عرف أن ذلك الأمر حقا صادر من محمد ، اذ أرسل له عمامته اشارة بذلك ، ودليلا على هذا .

ولما نزل الرسول مكة ، واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده (١) . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له فدخلها ، ثم وقف على باب الكعبة ، وقد اجتمع له الناس فى المسجد ، فقام الرسول على باب الكعبة فقال :

« لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، الا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت تدمى هاتين الاسدانة البيت ، وسقاية الحاج . الا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة ، مائة من الابل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

---

(١) المحجن : عود معوج الطرف يمسكه الراكب للبعير فى يده .

يامعشر قريش ، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، النـــاس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا (يأيهـــا الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شـــعوبا وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) .

ثم قال : يامعشر قريش ، ماترون انى فاعل بكم ؟

قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

وجلس الرسول فى المسجد ، فقام اليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال :

ـــ يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية !

فقال الرسول : أين عثمان بن طلحة ؟

فدعى له . فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم بر ووفاء ، ثم قال لعلى : انما أعطيكم ما ترزءون لا ماترزءون (١) .

بعث الرســـول (٢) ، تميم بن أسد الخزاعى فجدد أنصـــاب الحرم . وحانت الظهر فأذن بلال فوق ظهر الكعبة وقال الرسول : لاتغزى قريش بعد هذا اليوم الى يوم القيامة .

ووقف الرسول ، بالحزورة وقال :

ـــ انك لخير أرض الله وأحب أرض الله الى « يعنى مكة » ولولا انى أخرجت منك ما خرجت .

وبث الرسول ، السرايا الى الأصنام التى حول الكعبة فكسرها ، منها : العزى ومناة وسواع وبوانة وذو الكفين ، فنادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صـــنما الا كسره .

---

(١) رزاه : أصاب منه خيرا .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٩ .

ولما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل ، فقتلوه وهو مشرك (١) ، فقام الرسول ، فقال :

« يأيها الناس ، ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام الى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك فيها دما ولا يعضد (٢) فيها شجرا لم تحلل لأحد كان قبلى ولا تحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحلل لى الا هذه الساعة غضبا على أهلها . الا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاتل فيها فقولوا ان الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم . يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل ان نفع لقد قتلتم قتيلا لادينه ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين : (ان شاءوا فدم قاتله وان شاءوا فعقله) . ثم ودى الرسول ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة .

اجتمع الناس بمكة لبيعة الرسول على الاسلام فجلس لهم على الصفا ، ولما فرغ الرسول من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع اليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة بن عبد المطلب ، فلما دنون منه ليبايعه قال رسول الله :

— تبايعننى على الا تشركن بالله شيئا ؟

فقالت هند : والله انك لتأخذ علينا أمرا ما تأخذه على الرجال . وسنؤتيكه ؟

قال : ولا تسرقن .

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٩ .
(٢) يعضد : يقطع .

قالت : والله ان كنت لأصيب من مال ابى سفيان الهنة والهنة ، وما ادرى أكان ذلك حلالى أم لا ؟

فقال ابو سفيان — وكان شاهدا لما تقول : اما ما اصبت فيما مضى فأنت منه فى حل .

فقال الرسول : وانك لهند بنت عتبة ؟

قالت : انا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك .

قال : ولا تزنين .

قالت : وهل تزنى الحرة !

قال : ولا تقتلن أولادكن .

قالت : قد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ! فانت وهم أعلم .

فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب (١) .

قال : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن .

قالت : ان اتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

قال : ولا تعصينني فى معروف .

قالت : ما جلسنا هـذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف .

فقال الرسول لعمر : بايعهن ، واستغفرلهن ، فبايعهن عمر ابن الخطاب (٢) .

كان لفتح مكة اثر عميق فى الجزيرة العربية وآثار بعيدة المدى من الناحيتين الدينية والسياسية على السواء .

فاما من الناحية الدينية فان الرسول حين دخل مكة ، أمر بتحطيم الأصنام ، وبهذا تم القضاء على الوثنية فى معقلها . ثم

---

(١) استغرب فى ضحكه : بالغ فيه .
(٢) امتاع الاسماع : ج ١ ص ٢٩٢ .

انه تتبع بيوت الأصنام فى الحجاز وفى الجزيرة العربية كلها يرسل اليها من يحطمها . وكان معنى تحطيم الأصنام تحطيم الدين القديم . وكان ايمان قريش بدعوة الحق ، وبقاء الرسول بعد تحطيم الأصنام ، فلم يلحقه أذى ، يحمل فى طياته نوعا من الدليل على صدق النبوة فى نظر هؤلاء الوثنيين ، ولهذا سارعت القبائل العربية الى الدخول فى الاسلام .

أما الآثار السياسية ، فقد حدثت بسرعة فائقة ، وذلك أن قبائل ثقيف هوازن وهى القبائل التى تقيم قريبا من مكة وتملك مدينة الطائف ، قد رأت فى فتح مكة ضربة موجهة لها واعتقدت أن دورها آت لا ريب فيه . وتجمعت قبائل الطائف وقبائل هوازن واستعدت لقتال المسلمين ، ولم تدرك هذه القبائل أن مكة فتحت قلبها وعقلها لدعوة الحق ، قبل أن تفتحها كتيبة الايمان . ومن أجل ذلك خرجت قوات مكة الى جانب قوات الرسول للوقوف فى وجه ثقيف وهوازن فى معركة حنين ، ثم فى حصار الطائف بعد هزيمتها فى حنين .

وبفتح مكة انهارت المعارضة ، ولم تجد من القبائل من يحميها ، فان مكة كانت تمثل النظام القديم فى نظر الناس فى الجزيرة العربية كلها ، ولذلك كان فتح مكة انتصارا باهرا لدعوة الحق الذى جاء به محمد من عند ربه .

وجاءت الوفود تسعى الى المدينة المنورة ، فى العام الثامن والتاسع وبعض العاشر ، حتى لم تبق قبيلة الا أرسلت للرسول وفدا يعقد معه عهدا (١) .

وقد أتاحت هذه الخطوة الجديدة التى تحققت بقدوم الوفود أن يتجه الرسول الى ما وراء الحجاز الى الجزيرة العربية كلها ، وبذلك تمت كلمة ربك فى كل انحاء الجزيرة العربية .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٥٦ — ١٢١ .

الفصـــل الســـابع

الأماكن المقدسة في مكة

الاسلام أحدث الأديان السماوية الثلاثة التى نزلت فى الشرق الأوسط . وقد جاء محمد النبى العربى مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل . ومع ذلك ، فبيت الله الحرام بمكة اقدم الأماكن المقدسة بالشرق الأوسط ، والسر فى ذلك ان الأماكن المقدسة لليهود وللمسيحين ، لم تخلع عليها آى القداسة الا بعد ان نزلت الموســوية وبعد ان نزلت المسيحية . اما الـكعبة التى يعظمها المسلمون ، فكانت مقدسة قبل بعث محمد بأجيال طويلة . وكان العرب يحجون اليها أيام الوثنية والأصنام ، حتى منع الاسلام غير المسلمين من حج البيت .

وقد ذكر القرآن تدمها فى قوله تعالى : « ان اول بيت وضــع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا » .

وقال تعالى : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » الى قوله عز وجل « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » .

هذه الآيات ترجعبناء البيت الحرام الى ابراهيم واسماعيل ... وابراهيم هو جد الأنبياء عليهم السلام ، يسبق فى التاريخ موسى

وعيسى عليهما السلام ، لا عجب اذا أن يكون بيت الله الحرام بمكة اقدم الأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط (١)

قصة بنـاء الكعبة :

قام ابراهيم وابنه اسماعيل ببناء الكعبة ، بعد نزوحهما من فلسطين الى بلاد الحجاز ، بأمر من الله العلى القدير ، وهو ما يؤكده القرآن المجيد ويجمع عليه المؤرخون . على أن طائفة من غلاة المعتقدين لا يرضون أن تكون هذه النشأة نشأتها ، ويحرصون على أن يردوا أمرها الى ماقبل خلق الانسان او الى اول خلقه .

ذكر بعضهم أن الملائكة هم الذين بنوا البيت .. ذلك أن الله غضب عليهم حين قال لهم :

ــ « انى جاعل فى الأرض خليفة » .

قالوا :

ــ « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

واحس الملائكة غضب الله عليهم ، فلاذوا بالعرش يتضرعون ويبكون ! اشفاقا من هذا الغضب ، ثم طافوا بعرش الله سبعا كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : « لبيك اللهم لبيك .. ربنا معذرة اليك . نستغفرك ونتوب اليك » . فأنزل الله الرحمة عليهم ، ووضع تحت العرش بيتا هو البيت المعمور ، وقال للملائكة :

ــ « طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش »

ثم أمر الله الملائكة من سكان الأرض أن يبنوا فى الأرض بيتا

(١) د. محمد حسين هيكل : ألامبراطورية الاسلامية والاماكن المقدسة : ص ١٥٢ .

على مثال البيت المعمور ، وأمر من فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

وتجرى هذه الرواية بأن الملائكة بنوا هذا البيت الذى يقوم بيت الله الحرام اليوم مكانه قبل خلق آدم بألفى عام .

أما رواية آدم وبنائه البيت الحرام ، فتذكر أن آدم بعد ان هبط الى الأرض ورأى سعتها ولم ير فيها أحدا غيره قال :

— يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى ؟

قال الله تعالى : انى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ، ويسبح فيها خلقى ، ويذكر فيها اسمى ، وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى وأوثره بأسمى واسميه بيتى انطقه بعظمتى وعليه وضعت جلالى ، ثم اجعل ذلك حرما آمنا يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه ، فمن حرمه بحرمته استوجب بذلك كرامتى ومن اخاف اهله فقد ضيع دينى وخفر ذمتى واباح حرمتى . اجعله أول بيت وضع للناس يأتونه شعثا غبرا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق يضجون بالتلبية ضجيجا وينجون بالبكاء أجيجا ، ويعجون بالتكبير عجيجا فمن اثره لا يريد غيره فقد وفد الى وزارنى وخافنى وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضـيافه ، وأن ينعم ويتفضـل ويسعف كلا بحاجته تعمره يا آدم ما كنت حيا ثم يعموه الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن (١) .

فلما فرغ آدم من بنائه نادى : يا أيها الناس ، ان الله تعالى بنى بيتا فحجوه ، فأسمع ما بين الخافقين فأقبل من يحج هـذا البيت من الناس يقول : لبيك لبيك .

---

(١) الثعلبى : العرائس ص ٨٧ .

وسأل آدم ربه عز وجل فقال : يارب اسألك لمن مات فى هذا البيت من ذريتى لا يشرك بك شيئا ان تلحقه بى فى الجنة .

فقال الله تعالى :

ـــ ياآدم من مات فى الحرم لا يشرك بى شيئا بعثته آمنا يوم القيامة .

وينسب ابن قتيبة (١) بناء الكعبة الى شيث بن آدم ، فروى : « كان شيث بن آدم أجل ولد آدم وافضلهم وأشبههم به وأحبهم اليه ، وكان وصى أبيه وولى عهده ، وهو الذى ولد البشر كلهم ، اليه انتهى انســـاب الناس ، وهو الذى بنى الكعبـــة بالطين والحجارة ، وكان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة » . ثم جاء الطوفان فى عهد نوح فأغرق الأرض وما عليها واغرق بناء الـــكعبة ، ثم بوأ الله لابراهيم مكان البيت ، فأقام قواعده مـــع اسماعيل .

وليس فى وسع مؤرخ أن يثبت شيئا ـــ على سبيل القطع ـــ عن الروايات التى وردت عن بناء الملائكة أو أبناء آدم أو شيث الكعبة .

بناء ابراهيم واسماعيل الكعبة :

قدم ابراهيم الى مكة من فلسطين ، وكان اسماعيل يومئذ فى الثلاثين من عمره . وقال ابراهيم :

ـــ يااسماعيل ان ربك قد أمرنى أن أبنى له بيتا .

فقال له اسماعيل : فاطع ربك فيما أمرك .

فقال ابراهيم : قد أمرك أن تعيننى عليه .

قال : اذا افعل .

(١) كتاب المعارف ص ٢٠ ـــ طبعة دار المعارف .

وقام ابراهيم واسماعيل بتخطيط البيت ، وطوله اثنان وثلاثون ذراعا وعرضه واحد وعشرون ذراعا . وشرع ابراهيم واسماعيل وهاجر ومعهم المؤمنون يقطعون الحجارة من جبل حراء وجبل قبيس ، وراح ابراهيم يقول :

— رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر فأوحى الله اليه :

— ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير .

وعكفوا على العمل ، « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل : ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم » .

وارتفع البنيان وابراهيم يفكر فى الامة المسلمة لله ، الامة التى سيجعلها الله من ذريته وذرية اسماعيل ، ففاض قلبه بالرحمة وتملكه الخوف أن ينزل بهم مانزل بالأمم التى كفرت بأنعم الله قبلهم . انه يذكر ماحاق بأهل سدوم . فقد انزل الله عليهم رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ، وترك من سدوم آية بينة لقــوم يعقلون .

وقوم نوح اخذهم الطوفان ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد ، واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، الا أن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود !

وقال صالح لقومه : يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تاكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها ، فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمر الله نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ان ربك هو القوى العزيز . واخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها الا ان ثمودا كفروا ربهم الا بعدا لثمود !

ان ابراهيم يريد أن يكون بين ذريته وذرية اسماعيل وبين الله عهد أن يغفر لهم ذنوبهم وان يرفع عنهم مقته وغضبه ، والا ينزل عليهم رجزا من السماء والا يجعل اسفل ديارهم عاليها ، فرأى أن يجعل فى بيت الله حجرا (١) . يكون علما للناس يبدءون منه طوافهم يذكرهم دائما أن الله قوى متين ، قادر على أن يبطش بهم ، وأن من يستلمه فانما يجـدد العهـد بينه وبين الله على الاستقامة .

وجاء ابراهيم بالحجر الأسود وجعله ركنا للبيت ، ثم وضع الركن اليمانى وجعل باب البيت أمام زمزم وكان بالأرض غير مبوب ، وجعل قبالة ذلك الباب بابا آخر ، فبنى للبيت بابا شرقيا وآخر غربيا ليدخل الناس من باب ويخرجون من الباب الآخر .

وحفر ابراهيم واسماعيل عن يمين الداخل من الباب المواجه لزمزم حفرة لتكون خزانة للبيت ، وارتفع البناء فى السماء تسعة أذرع ، وما كان للبيت سقف ، وأتم ابراهيم واسماعيل بنـاء الكعبة .

---

(١) قال الثعلبى والطبرى : مضى ابراهيم واسماعيل فى بناء الكعبة ، واوشك البناء أن ينتهى وبقى حجر واحد ، فذهب الغلام يبنى شيئا ، فقال ابراهيم : لا ، ابغ حجرا كما آمرك . فانطلق الغلام يلتمس له حجرا ، فأتاه به ، فوجده قد ركب الحجر الاسود فى مكانه فقال : يا أبت من أتاك بهذا الحجر ؟ فقال : اتانى به من لم يتكل على بنائك ، أتانى به جبرائيل من السماء .

وأمر الله ابراهيم : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام » . ووقف ابراهيم على الحجر واستقبل اليمن ونادى :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، يأيها الناس كتب عليكم الحج الى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات تلبى :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك .

ثم استقبل المشرق فدعا الى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، حجوا ياعباد الله . يأيها الناس كتب عليكم الحج الى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المشرق :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

ثم أستقبل المغرب فدعا الى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك الا ان ربكم قد اتخذ بيتا وأمركم ان تحجوه ، يأيها الناس كتب عليكم الحج الى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المغرب :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك .

ثم استقبل الشام فدعا الى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، حجوا يا عباد الله ، حجوا الى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

وراى ابراهيم فى المنام انه يذبح اسماعيل فهب من نومه وراح يفكر فى ذلك البلاء العظيم ، انه رأى فى المنام انه يذبح ابنه ورؤيا الانبياء صدق ، وحى من السماء .

وقال ابراهيم :

— يااسماعيل خذ الحبل والمدية وانطلق بنا الى هذا الشعب لنحطب اهلك منه .

وانطلق ابراهيم ، ودنا منه رجل وقال :

— اين تريد ايها الشيخ ؟

فالتفت ابراهيم الى جبل ثبير وقال :

— اريد هذا الشعب لحاجة لى فيه .

— والله انى لأرى الشيطان جاءك فى منامك فأمرك بذبح بنيك هذا فأنت تريد ذبحه .

وعرفه ابراهيم فقال :

— اليك عنى اى عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربى .

ورجمه بسبع حصيات حتى ذهب .

ويئس عـدو الله ابليس من إبراهيم فذهب الى اسماعيل فاعترضه وهو وراء ابراهيم يحمل الحبل والمدية فقال له :

— هل تدرى اين يذهب بك ابوك ؟

— يحطب اهلنا من هذا الشعب .

— والله ما يريد الا ان يذبحك .

— لم ؟

— زعم ان ربه امره بذلك .

فقال اسماعيل فى ايمان :

— فليفعل ماأمره به ربه ، فسمعا وطاعة .

ورجمه بسبع حصيات حتى ذهب .
فذهب الى هاجر وقال لها :
— يام اسماعيل هل تدرين اين ذهب ابراهيم باسماعيل ؟
— ذهب به يحطبنا من هذا الشعب .
— ما ذهب به الا ليذبحه .
— كلا هو ارحم به واشد حبا له من ذلك .
— انه يزعم ان الله أمره بذلك .
— ان كان ربه أمره بذلك فتسليما لأمر الله .
ولم يذهب الا بعد أن رجمته بسبع حصيات .

رجم ابليس ثلاث مرات ، وسيأتي المسلمون من بعد ليرجموه كما رجمه أبوهم ابراهيم . وصار الرجم من شعائر الحج تشترك فيه اليد مع الروح . وما من شريعة من شرائع الاسلام الا ويشترك فيها الجسد والروح تعظيما للجسد ليرتفع العنصر الهابط الى ملكوت السموات ، وليكون له شرف المشاركة فى عبادة الواحد القهار .

انطلق ابراهيم الى ثبير ، فلما خلا بابنه فى الشعب قال :
— يابنى انى أرى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى ؟
قال اسماعيل :
— ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين .

فلما أسلما وتله للجبين ، ناداه ربه أن يا ابراهيم . قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين .
وفداه الله بذبح عظيم .

سلام على ابراهيم ، كذلك نجزى المحسنين . انه من عبادنا المؤمنين .

الكعبة بعد اسماعيل :

كان العرب يقدسون الكعبة باعتبارها بيت الله الحرام . وامتد تقديس العرب للكعبة الى تقديس مكة والمناطق المجاورة لها ، حتى أصبحت الاراضى الممتدة حولها الى عدة فراسخ حراما لا يجوز فيها الاعتداء على انسان أو حيوان .

وامتد تقديس الكعبة الى بعض الأمم الأخرى كالهند وفارس ، فقد كان الفرس يعتقدون أن روح « هرمز » حلت فى الكعبة ولذلك كانوا يحجون اليها . وكان الهنود يقدسون الكعبة لأن روح شبوه احد آلهتهم قد تقمصت فى الحجر الأسود حين زار هو وزوجته بلاد الحجاز ، ويسمون مكة « مكشيشا » أو « موكشيشانا » . أى ببت شيشا أو شيشانا ، وهما من آلهتهم .

وكان الصابئة ، وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المقدسة . وكان اليهود يحترمون الكعبة ويعبدون الله فيها على دين ابراهيم . كما أن النصارى من العرب كانوا يحترمونها كذلك .

بعد وفاة اسماعيل ، تولى الاشراف على الكعبة ابنه نابت ، ثم انفرد بالاشراف عليها بعض زعماء جرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد اسماعيل .

كان أول من تولى شئون الكعبة من جرهم ملكها الحارث بن مضاض ، وكان كل من دخل مكة بتجارة أخذ عشرها . وكان ملك العماليق يدعى السميدع بن هوبر ، يستولى على أعشار التجارة التى تدخل الى مكة من جهته . ثار النزاع بين الملكين . ونشب القتال فترة ثم جنحوا الى السلم ، واتفقوا على أن يتولى العماليق الاشراف على الكعبة ، وظلوا يتولون ذلك حتى نجح الجرهميون فى استعادة نفوذهم ، وظلوا يشرفون على الكعبة ثلثمائة سنة ،

وكان اخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر ، وزادوا فى بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء ابراهيم عليه السلام (١) .

ثم طغت قبيلة جرهم وتجبرت ، وتهاونت فى المهمة السامية الموكولة اليهم ، فاستولوا على أموال الكعبة ونذورها ، واساءوا الى الحجاج .

ونجح أولاد اسماعيل فى أن يلموا شملهم ويوحدوا صفوفهم ، وتمكنوا من التغلب على قبيلة جرهم ، فلحقوا بجهينة .

ثم صارت ولاية الكعبة فى ولد اياد بن نزار بن معد ، ونشبت حروب طاحنة بين مضر واياد ، انتهت بانتصار مضر ورحيل اياد عن مكة الى العراق .

ظلت خزاعة تتولى شئون الكعبة ، حتى برزت قبيلة قريش وتمكنت أن تجمع شملها وتوحد صفوفها ، وقريش ولد النضر بن كنانة ، وقد سموا قريشا حين جمعهم قصى بن كلاب الى الحرم بعد أن نفى خزاعة ، من القرش وهو التجمع .

وقد اتخذت قريش من الأرض المجاورة للكعبة حرما أولوه احترامهم واعتبروه مقدسا وحرموا فيه القتال ، واخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل ، وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما ارتفع شأن قريش بين سائر القبائل العربية ، وعملت قريش على توثيق الصلات الطيبة بين القبائل التى تفد كل عام الى الكعبة للحج أو للتجارة . وزاد مجد قريش أنها فى مكة ، وأن الكعبة فى مكة .

---

(١) مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٠ .

تبابعة اليمن يحاولون هدم الكعبة :

كان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه الى مكة ، وهى طريقه الى اليمن ، حتى اذا كان بين عسفان وامج (١) أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس ، فقالوا له :

— أيها الملك ، الا ندلك على بيت مال واثر اغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال : بلى .

قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده .

وانما اراد الهذليون هلاكه بذلك ، لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده ، فلما أجمع لما قالوا أرسل الى الحبرين فسألهما عن ذلك فقالا له :

— ماأراد القوم الا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليه ليهلكن من معك جميعا .

قال :

— فماذا تأمرانني أن أصنع اذا أنا قدمت عليه ؟

قالا :

— تصنع عنده ما يصنع أهله : تطوف به ، وتعظمه ، وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟

قالا :

— أما والله انه لبيت أبينا ابراهيم ، وانه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله ، وبالدماء

(١) عسفان : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة ، وهى من مكة على مرحلتين . وامج بلد فى أعراض المدينة .

التى يهريقون عنده ، وهم نجس أهل شرك . فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، وعاقب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت ، ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ، ينحر بها للناس ويطعم أهلها . وأرى فى المنام أن يكسو البيت فكساه . وكان تبع أول من كسا البيت (١) . وفى هذا يقول تبع :

وكسونا البيت الذى حرم الله ملاء منضدا وبرودا
فأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه أقليدا
ونحرنا بالشعب ستة ألف فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلا فرفعنا لواءنا معقودا

ثم خرج تبع من مكة متوجها الى اليمن بمن معه من جنوده وبالحبرين ، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك ، وقالوا : لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا .

فدعاهم الى دينه ، وقال : انه خير من دينكم .

فقالوا : فحاكمنا الى النار .

قال : نعم .

وكانت باليمن — فيما يزعم أهل اليمن — نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه : تأكل الظالم ، ولا تضر المظلوم ، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما لتقلد بها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه ، فخرجت النار اليهم ، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فحضهم من حضرهم من أناس وأمروهم بالصبر لها ، فصبروا حتى غشيتهم ، فأكلت الأوثان وما قربوا معها ، ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما ، فأجمعت عند ذلك حمير على دينه .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٠ .

الاحباش والكعبة :

دخلت جيوش الحبشة الى اليمن فى نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة انتقاما من ذى يزن ملك حمير الذى كان يفتك بنصارى نجران من قومه وغلبوه على أمره واخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها وتفرد ابرهة الأشرم بالحكم فيها . وبنى فى صنعاء كنيسة فخمة أراد أن يحول اليها حج العرب فسار بجيوشه الى هدم الكعبة ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه ، وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج اليه رجل كان من اشراف أهل اليمن وملوكهم — يقال له ذو نفر — فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب الى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه واخرابه ، فأجابه الى ذلك من اجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه ، وأخذله ذو نفر فأتى به أسيرا ، فلما اراد قتله قال له ذو نفر :

— أيها الملك ، لاتقتلنى فانه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من قتلى .

فتركه ، وحبسه عنده فى وثاق . ومضى ابرهة على وجهه ذلك يريد ماخرج له ، حتى اذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل ابن حبيب الخثعمى فى قبيلى خثعم : شهران ، وناهس (١) ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نفيل أسيرا ، فأتى به ، فلما هم بقتله قال له نفيل :

— أيها الملك ، لا تقتلنى فانى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلى خثعم شهران وناعس بالسمع والطاعة ، فخلى

(١) هما قبيلا خثعم ، وخثعم فى الاصل اسم جبل سمى به بنو عفرس ، لانهم نزلوا عنده ، ويقال قبائل خثعم ثلاث : شهران ، وناهس ، واكلب ، غير أن اكلب عند أهل النسب هو ابن ربيعة بن نزار ، ولكنهم دخلوا فى خثعم وانتسبوا اليهم .

سبيله ، وخرج به معه يدله ، حتى اذا مر بالطائف خرج اليه مسعود بن معتب بن مالك ، في رجال ثقيف ، فقالوا له :

— ايها الملك ، انما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد — يعنون اللات — انما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم . وبعثوا معه ابا رغال يدله على الطريق الى مكة ، فخرج ابرهة ومعه ابو رغال حتى أنزله المغمس (١) ، فلما أنزله به مات ابو رغال هنالك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس (٢) .

فلما نزل ابرهة المغمس بعث رجلا من الحبشة — يقال له الأسود بن مقصود — على خيل له حتى انتهى الى مكة ، فساق اليه اموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حناطة الحميرى الى مكة ، وقال له :

— سل عن سيد اهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له : ان الملك يقول : انى لم آت لحربكم ، وانما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم ، فان هو لم يرد حربى فأتنى به .

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ماأمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب :

(١) المغمس : بالكسر على صيغة اسم الفاعل ، ويروى فيه الفتح — وهو موضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة .

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٤٩ .

— والله مانريد حربه ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فان يمنعه منه فهو بيته وحرمته ، وان يخل بينه وبينه فو الله ما عندنا دفع عنه .

فقال حناطة :

— فانطلق معى اليه ، فانه قد أمرنى أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى اتى العسكر فقابل أبرهة . وسأله أبرهة عن حاجته فقال عبد المطلب .

— حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير اصابها لى .

قال أبرهة :

— قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، اتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمنى فيه .

قال له عبد المطلب :

— انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربا سيمنعه .

قال : ما كان ليمتنع منى .

قال : أنت وذاك .

ورد ابرهة على عبد المطلب الابل التى اصاب له .

انصرف عبد المطلب الى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفا عليهم من شدة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على ابرهة وجنده ، وقال عبد المطلب ، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هـم ان العبد يمـــنع رحله فامنع حلالك
لا يغـلبن صـليبهم ومحالهم غـدوا محالك

ان كنت تاركهم وقبلـ ــتنا فامـر ما بدا لك

ثم بدا غزو الأحباش للكعبة ، وبرك الفيل الذى كان يمتطيه ابرهة ، وبذل الأحباش جهودهم لينهضوه ، فكان ينهض ، حتى اذا وجهوه نحو مكة برك مرة اخرى ، واذا وجهوه نحو الشام أو اليمن أسرع فى العدو .

كانت العناية الالهية تحيط بالكعبة ، فهى بيت الله الحرام ، وللبيت رب يحميه ، وانتهى الغزو بمأساة رهيبة ، فروى ابن هشام (١) : « ان الله عز وجل أرسل عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، امثـال الحمص والعدس ، وتوالت ملايين الأحجار حتى هلك الجيش » . وروى المسعودى(٢) : « فارسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة ، خرجت من البحـر ، مع كل طير ثلاثة احجار ، فأهلكهم الله عز وجل » .

ذكر القرآن الكريم هذا الحدث التاريخى فى سورة الفيل : « الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، الم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجـارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » .

ارتفع شأن قريش وزعيمها عبد المطلب بعد اخفاق هذا الغزو ، وقال العرب : « قاتل الله عنهم ، وكفاهم مؤنة عدوهم(٣) » .

وقد سجل شعراء العرب هذا الحدث فى قصائد ذكروا فيهـا ما صنع الله بالجيش الحبشى ، وما رد عن قريش من كيد ، فقال عبد الله بن الزبعرى :

(١) ابن هشام ج ١ ص ٥٣ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٨ .
(٣) ابن هشام ج ١ ص ٥٩ .

تنكلوا عن بطن مكة انها ... كانت قديما لا يرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليالى حرمت ... ولسوف ينبى الجاهلين عليها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى ... اذ لا عزيز من الانام يرومها
ستون ألفا لم يؤبوا أرضهم ... بل لم يعش بعد الاياب سقيمها
دانت بها عاد وجرهم قبلهم ... والله من فوق العباد يقيمها

وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى فى شأن الفيل ، ويذكر الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام .

ان آيات ربنا ثاقبات ... لا يمارى فيهن الا الكفور
خلق الليل والنهار فكل ... مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم ... بمهاة شعاعها منشور (١)
حبس الفيل بالمغمس حتى ... ظل يحبو كأنه معقور (٢)
لازما حلقة الجران كما قطـ ... ـر من صخر كبكب محدور (٣)
حوله من ملوك كندة أبطا ... ل ملاويث فى الحروب صقور (٤)
خلفوه ثم ابذعروا جميعا ... كلهم عظم ساقه مكسور (٥)
كل دين يوم القيامة عند اللـ ... ـه الا دين الحنيفة بور

أدت الهزيمة التى لحقت بالأحباش فى مكة الى نهاية احتلالهم لليمن ، فقد قامت حركة تحرير وطنية تزعمها سيف بن ذى يزن الحميرى ، ونجح سيف بمعاونة الفرس فى اجلاء الأحباش عن اليمن .

(١) المهاة : الشمس .
(٢) المغمس : اسم موضع .
(٣) أصل الجران : حلق البعير ، فاستعاره ههنا للفيل ، وقيل : الجران : الصدر ، وقطر بالبناء للمجهول أى رمى به على جانبه ، والقطر : الجانب ، وكبكب : اسم جبل ، والمحدور : اسم مفعول من حدره ، اذا رماه فانحدر حتى بلغ الارض .
(٤) ملاويث : أشداء .
(٥) ابذعروا : تفرقوا .

أصبح العرب يؤرخون أحداثهم بعام الفيل حتى خلافة عمر ابن الخطاب ، كما شهد هذا العام مشرق نور الهداية والحق ، فقد ولد فى هذه السنة محمد صلى الله عليه وسلم .

الرسول والكعبة :

حينما كان الرسول فى الخامسة والثلاثين من عمره (١) ، اشترك فى حادث جليل أثار اهتمام العرب فى الجزيرة العربية وهو اعادة بناء الكعبة .

وكانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة فى أمر الكعبة ، فقد كانت بدون سقف ، منخفضة الارتفاع ، مما جعلها نهبا للصوص ، الذين اقدموا على سرقة بعض كنوز الكعبة التى كان القرشيون يحتفظون بهـا فى جوفها .

تعرضت مكة لعدة سيول فى أوقات مختلفة ، حدث ان نزل سيل جارف من الجبال المحيطة بمكة ، فانحدر نحو الكعبة وصدع جدرانها، واصبحت قريش مضطرة الى الاقدام على اصلاح ما أفسدته السيول .

وكانت الظروف مهياة لقريش لتقوم باصلاح الكعبة ، فقد رمى البحر بسفينة الى جدة ، كانت لأحد تجار الروم . وكانت هذه السفينة قد بعث بها ملك الروم من مصر الى الحبشة ليقوم ركابها ببناء كنيسة هناك(٢) . وخرج وفد قريش برياسة الوليد بن المغيرة الى جدة لشراء هذه السفينة .

وكان فى مكة رجل نجار مسيحى يدعى ياقوم — أو ياقول فى بعض الروايات — ورأت قريش أن تستعين بخبرته . ويروى ابن

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٠٩ ، وذكر القلقشندى فى صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٥١ ان عمر الرسول كان ٢٥ سنة .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ .

هشام(١)أنه (كانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كانت يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم ، فتتشرق على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ، وذلك انه كان لا يدنو منها احـــد الا احزألت وكشت(٢) وفتحت فاها ، وكانوا يهابونها ، فبينما هى ذات يوم تشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله اليها طائرا فاختطفها ، فذهب بها ، فقالت قريش : انا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا ، عندنا عامل رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية) .

بدأت قريش عملية الهدم والبناء ، وكان أول من بدأ الهدم أبو وهب ابن عمرو بن عائذ بن مخزوم ، فتناول من الكعبة حجرا ، فوثب من يده حتى رجع الى موضعه كما يروى ابن هشام ـــ ، فقال :

ـــ يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيه مهر بغى ، ولا بيع رباء ، ولا مظلمة أحد من الناس .

اقتسمت قريش جوانب الكعبة الأربعة : فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم ابنى عمرو بن هصيص بن لؤى ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار ابن قصى ولبنى اسد بن العزى ـــ وقد هاب الناس هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة :

ـــ أنا أبدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ، ثم قام عليها وهو يقول :

ـــ اللهم لم ترع ، اللهم انا لا نريد الا الخير .

ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا :

ـــ ننظر فان أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وان لم يصبه شىء فقد رضى الله صنعنا فهدمنا .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٠٩ .
(٢) احزألت : أى رفعت رأسها ، وكشت : اى صوتت باحتكاك بعض جلدها ببعض

فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله ، فهدم وهدم الناس معه، حتى اذا انتهى الهدم بهم الى الأساس أساس ابراهيم عليه السلام افضوا الى حجارة خضراء كالاسنمة آخذا بعضها بعضا ، فرأوا ان يتخذوا هذه الأحجار أساسا للبناء الجديد .

ويروى ابن اسحق (١)أن قريشا وجدت فى الركن كتابا بالسريانية، فلم يدروا ما هو مكتوب فيه ، وعهدوا بذلك الى رجل يهودى ، فكان المكتوب :

(أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السموات والارض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، لا تزول حتى يزول أخشباها(٢) ، مبارك لأهلها فى الماء واللبن) .

بدأ بناء الكعبة من جديد ، وكان بابها لاصقا بالأرض منـذ عهد ابراهيم عليه السلام فقال أبو حذيفة بن المغيرة :

ــ يا قوم ، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد الا بسلم ، فانه لا يدخلها حينئذ الا من أردتم ، فان جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالا لمن يراه(٣) . جمعت بطون قريش أحجارا من الجرانيت الأزرق من الجبال المحيطة بمكة ، وبدأت البناء ، حتى بلغ البناء موضع الركن ، أى الحجر الأسود ، وأصبح ارتفاع البناء حينئذ الى قامة الرجل ، وارادوا وضع الحجر الأسود فى مكانه فى الجانب الشرقى ، فاختلفت بطون قريش على من يحوز شرف اعادة الحجر الأسود الى مكانه ، واشتدت حدة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وادخلوا أيديهم

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٢ .
(٢) أخشباها : جبلاها .
(٣) العمرى : مسالك الابصار ج ١ ص ٩٤ .

فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم ، ومكثت قريش على ذلك اربع ليال أو خمسا ، ثم اجتمعوا فى المسجد ، فوقف ابو امية ابن المغيرة ، وكان أسن قريش ، فقال :

— يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم — فيما تختلفون فيه — أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه .

فوافقوا على هذا الرأى ، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا :

— هذا الامين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى اليهم أخبروه الخبر ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« هلم الى ثوبا » فأتى به ، فأخذ الركن ، فوضعه فيه بيده ، ثم قال: « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب » . ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه. وبذلك حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ، ورضى الكل بحكمه صلى الله عليه وسلم ، والى قضية التحكيم يشير قول هبيرة بن وهب المخزومى :

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة ... جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها بالبغض بعد مودة ... وأوقد نارا بينهم شر موقد

فلما رأينا الأمر قد جد جده ... ولم يبق شىء غير سل المهند

رضينا وقلنا : العدل أول طالع ... يجىء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا : رضينا بالامين محمد

بخير قريش كلها أمس شيمة
وفى اليوم مع ما يحدث الله فى غد

فجاء بأمر لم ير الناس مثله
أعم وارضى فى العواطف والبد

أخذنا بأطراف الرداء وكلنا
له حصة فى رفعها قبضة اليد

فقال : ارفعوا ، حتى اذا ما علت به
اكفهم وافى به غير مسند

وكل رضينا فعله وصنيعه
فأعظم به من رأى هاد ومهتدى

وتلك يد منه علينا عظيمة
يروح لها هذا الزمان ويغتدى

أعادت قريش الصور والأصنام الى الكعبة كما كانت ، قال المسعودى (١) :

(كان فى حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة : منها صورة ابراهيم الخليل فى يده الأزلام ، ويقابلها صورة اسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس مفيضا ، والفاروق قائم على وفد الناس ، يقسم فيهم ، وبعد هذه الصور صور كثير من أولادهم الى قصى بن كلاب وغيرهم ، فى نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور اله وصاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله).

وقد ظلت هذه الأصنام قائمة فى الكعبة ، حتى فتح مكة ، فقام المسلمون بتحطيم هذه الأصنام ، وتطهير الكعبة من الأوثان .

صرف القبلة الى الكعبة :

أوحى الله لرسوله ، على رأس سبعة عشر شهرا من مقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته الى المسجد الحرام ، فنزلت الآية : « قد

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ .

نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره(١) » .

ان فى مطلع الآية : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » قرينة قوية على ما كان يختلج فى نفس محمد رسول الهدى من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك ، وعلى ما قام فيها من رغبة فى التحول عنها .

وقوله تعالى : « فلنولينك قبلة ترضاها » يمكن أن يلهم أن الرسول الكريم صار يائسا أو كاليائس من اليهود ، وثارت فى نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة ، تراءى له أن اتجاهه الى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته ، وأن دعوته الى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب . كما أن ذلك هو الأولى ، لأنها بيت الله العربى القديم الذى يعرفه العرب ويرتبطون به ، والذى هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعا فى حجه ، فكان يتمنى أن يتحول اليها فى صلاته وتكون قبلته الثانية ، ولعله كان يسمع تألما أو انتقادا أو يرى حيرة العرب مسلمين وغير مسلمين فى الاتجاه الى المسجد الأقصى واهمال الكعبة وهى بيت الله العربى المقدس منذ قديم الأحقاب ، فكان هذا مما قوى ما فى نفسه من الرغبة والأمنية (٢) .

وقد أنكر اليهود عليه ما فعل وحاولوا فتنته بقولهم :

— يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها ، وانت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه ؟

ارجع الى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٤ .

(٢) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ص ٧٠ .

فنزل قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله (١) » .

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة :

رفض الحسين بن على وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بن معاوية لتولى الخلافة الأموية ، اذ تحولت الخلافة من نظام الشورى الى النظام الملكى الوراثى . وامر الخليفة يزيد واليه بالمدينة ان يأخذ البيعة له بالخلافة من الحسين وابن الزبير باعتبار انهما فى مقدمة زعماء المسلمين .

وابى الزعيمان وخرجا الى مكة . ووجد ابن الزبير الأمن والطمأنينة التى افتقدها فى المدينة ، وتمكن ابن الزبير من اكتساب عطف المسلمين وتأييدهم حينما قال لهم : « انى عائذ بالبيت » .

رأى الخليفة الأموى يزيد بن معاوية أن يقف من ابن الزبير وحركته موقفا حاسما ، فبعث جيشا بقيادة الحصين بن نمير لغزو الكعبة والقضاء على ابن الزبير . قال ابن قتيبة (٢) :

« كان الحصين قد نصب المجانيق على جبل ابى قبيس ، وعلى قعيقعان ، فلم يكن احد يقدر ان يطوف بالبيت ، واسند ابن الزبير الواحا من الساج الى البيت ، والقى عليها القطائف والفرش ، فكان اذا وقع عليها الحجر ، نبا عن البيت ، فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح ، فاذا سمعوا صوت الحجر حين يقع على الفرش

---

(١) سورة البقرة : ١٤٢ — ١٤٣ .
(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٣ .

والقطائف كبروا . وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطا فى ناحية من المسجد ، فكلما جرح أحد من أصحابه ، ادخله ذلك الفسطاط .

فجاء رجل فى طرف سنان رمحه نار ، فأشعلها فى الفسطاط ، فوقعت النار على الكعبة ، فاحترق الخشب ، وانصدع الركن ، واحترقت الأستار ، وتساقطت الى الأرض .

واحترقت فى ربيع الأول سنة أربع وستين من الهجرة .

فلما احترقت الكعبة جلس أهل مكة فى ناحية الحجر ، ومعهم ابن الزبير ، وأهل الشام يرمونهم بالنبل . فوقعت بين يديه نبلة . قال : فى هذه خير ، فأخذوها فوجدوا بها مكتوبا : مات يزيد بن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول .

فلما قرأ ذلك ابن الزبير قال : يأهل الشام ، يا محرقى بيت الله ، يا مستحلى حرم الله ، علام تقاتلون ؟ وقد مات طاغيتكم يزيد بن معاوية ؟ !

فأتاه الحصين بن نمير ، فقال له : موعدك البطحاء الليـلة يا أبا بكر .

فلما كان الليل خرج ابن الزبير بأصحابه ، وخـرج الحصين بأصحابه الى البطحاء ، فتنحى كل واحد منها من أصحابه وانفرد .

فقال الحصين :

— يا أبا بكر ، قد علمت انى سيد أهل الشام ، لا ادافع عن ذلك ، وان أعنة خيلهم بيدى ، وارى أهل الحجاز قد رضوا بك ، فأبايعك الساعة على أن تهدر كل شىء أصبناه يوم الحرة ، وتخرج معى الى الشام ، فانى لا أحب أن يكون الملك فى الحجاز .

قال ابن الزبير :

— لا ، والله لا افعل ، لا أومن من اخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، وانتهك حرمته .

فقال الحصين :

— بلى ، فافعل ، فعلى الا يختلف عليك اثنان .

فأبى ابن الزبير . فقال له الحصين :

— لعنك الله ، ولعن من زعم انك سيد . والله لا تفلح ابدا !!. اركبوا يا أهل الشام .

فركبوا وانصرفوا . واعلن ابن الزبير نفسه خليفة فى بلاد الحجاز .

واراد ابن الزبير أن يعيد بناء الكعبة ، فدار حوار بينه وبين اصحابه ، ايهدم الكعبة ثم يعيد البناء من جديد ، أم يحاول اصلاحها وترميمها ؟ قال العمرى[1] : فشاور ابن الزبير من حضره فى هدمها ، فهابوا ذلك ، وقالوا : نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم .

فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له الا بأكمل اصلاح، ولا يكمل اصلاحها الا بهدمها .

فهدمها حتى افضى الى قواعد ابراهيم ، فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر ، فحركوا حجرا منها فرأوا تحته نارا وهولا أفزعهم ، فبنوا على القواعد . وتم بناؤها والصق بابها بالأرض ، وعمل لها خلفا اى بابا من ورائها وادخل الحجر فيها » .

وبذل ابن الزبير غاية جهده فى تجميل الكعبة حتى تبدو فى ابهى صورة وأجمل مظهر ، وعدد المسعودى[2] جهود ابن الزبير فقال :

(١) مسالك الابصار ج ١ ص ٢٥ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩ .

« وحمل الى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التى كان بناها ابرهة الحبشى فى كنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشى منقوش ، قد حشى النقش السندروسى وانواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهبا » .

أحدث ابن الزبير تغييرات فى بناء الكعبة ، فقد زاد فى ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعا[1] ، كما جعل للكعبة بابين بعد أن كان لها باب واحد . وضرب عليها السور وادخل فيها الحجر ، وكان أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والانطاع وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخـــل الحرم [2] .

وقد برر المسعودى[3] زيادات ابن الزبير فى الكعبة ، فقال : « وشرع ابن الزبير فى بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخا من قريش أن قريشا حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس ابراهيم الخليل الذى أسسه هو واسماعيل عليهما السلام ، فبنـــاه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين : بابا يدخل منه ، وبابا يخرج منه » .

ويقول العمرى [4] : ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد فى بناء الكعبة ما زاده ابن الزبير ، « وذلك لأن خالته عائشة ، رضى الله عنها ، حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة فاقتصروا على قواعد ابراهيم . ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية

(١) صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٥١ .
(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٤١٣ .
(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٩ .
(٤) مسالك الابصار ج ١ ص ٩٥ .

لهدمتها وجعلت لهـا خلفا والصقت بابها بالأرض وادخلت فيها الحجر » .

فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة . فبناها على مقتضى حديث عائشة .

ولمـا قتل ابن الزبير ، كتب عبد الملك بن مروان الى الحجـاج ابن يوسف الثقفى يأمره باعادة الكعبة على ما كانت عليه فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم من بناء قريش فهـدم جانب الحجر واعاده الى ذلك ، وسد الباب الغربى ورفع الشرقى عن الأرض الى حده الذى هو عليه الآن ، وكان عبد الملك بن مروان بعد ذلك يقول : « وددت انى كنت حملت ابن الزبير من بناء الكعبة ما تحمل (١) » .

ثم جدد المتوكل رخام الكعبة فازرها بفضة والبس سائر حيطانها وسقفها الذهب وهو على ذلك الى الآن . وهو مبنى بالحجـر الأسود مستطيل البناء على التربيع ، فى ارتفاع خمسة وعشرين ذراعا (٢) .

القرامطة والكعبة :

فى أيام المقتدر العباسى (٣) ظهرت فى العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون الى موالاة محمد بن الحنفية بن على كرم الله وجهيهما ، ويكفرون من لم يكن على مذهبهم ، واول من ظهر منهم ابو طاهر القرمطى ، وقد بنى دارا فى هجر سماها دار الهجرة ، ولراد أن ينقل الحج اليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة الى

---

(١) صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٥١ .

(٢) المصـدر نفسه ص ٢٥١ .

(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٠٧ ، د. ابراهيم العدوى : حركات التسلل ضد القومية العربية ص ٦٣ .

مكة ويفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج فى أيامه خشية منه . وسار القرمطى الى مكة فى جيش كثيف أيام الحج ودخل برجله وخيله الى الحرم ووضع السيف فى الطائفين والركع السجود على بغتة منهم ، وقتل فى مكة وشعابها نحو ثلاثين الفا واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب ، وأخذ جميع ما فى خزينة بيت الله الحرام من المجوهرات الثمينة ، واقتلع الحجر الأسود من مكانه ، وانصرف الى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم !! وبقى مكان الحجر خاليا يتبرك الناس بمحله .

غير أن القدر وقف بالمرصاد لزعيم القرامطة الذى قاد هذا الهجوم الغادر على بيت الله الحرام ، فلم يكد يستقر فى هجر حتى نزل به مرض عضال ، وطال عذابه ، وتقطعت أوصاله واطرافه ، وهو ينظر اليها ، وتناثر الدود من لحمه ، ذلك ان بطش ربك شديد ، وانتهت حياته بالموت فى العام نفسه الذى انتهك فيه حرمة الأماكن المقدسة ، وبعد موت أبى طاهر راى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة الى بلادهم ، فقام سنبر بن الحسين القرمطى بالحجر الى مكة ، وكان يحيط به برواز من الفضة يضبط بعض القطع التى تكسرت منه حين خلعه ، ووضع فى مكانه على الحالة التى تراه عليها الآن .

اعادة بناء الكعبة فى العصر العثمانى :

فى سنة ٩٦٠ هـ غير السلطان سليمان العثمانى سقف الكعبة ، كما اهتم السلطان أحمد (١٠٢١ هـ) بترميم الكعبة . وفى سنة ١٠٣٩ هـ شهدت مكة سيولا استمرت يومين ، ودخلت مياهها الى المسجد الحرام والكعبة ، وكان بناؤها قد وهن ، لذلك سقطت جدرانها واحدا بعد الآخر ، وترامى ما أصاب البيت الحرام الى

الأقطار الاسلامية ، فانزعج الناس فيها ، كما انزعج أهل مكة فأجمع الكل على المبادرة الى عمارتها .

ولم ينتظر والى مصر محمد على ما يشير به السلطان العثمانى مراد الرابع ، حتى لا يستفحل تصدع الكعبة ، ولاقتراب موسم الحج ، فبعث بمندوبين عنه الى مكة .

وعادت السيول من جديد ، مما أدى الى ازدياد تصدع الجدار الغربى ، ولذا استقر الراى على هدم ما بقى من جوانب الكعبة ، ولم يقع خلاف الا على ركن الحجر الأسود ، ولكن المهندسين رأوا ان هذا الركن يوشك أن ينقض كذلك ، ولذا كف القوم عن التردد ، ورأوا هدم البيت كله ، ليقيموا بناءه ثانيا قويا .

واحيط البيت بسياج من الخشب يطوف به الناس ويصلون اليه ، كما كان الأمر على عهد ابن الزبير ، وانفق القوم فى البناء ستة اشهر من عام ١٠٤٠ هـ ، وانفقوا فى سبيل ذلك أموالا طائلة . ولم يعيدوا من الاحجار التى بنى بها عبد الله بن الزبير الكعبة الا ما وجدوه صلبا قويا ... أما ما وهن فاستبدلوا به غيره .

على أن مشكلة خطيرة واجهتهم .. فقد بدأ الحجر الأسود يتناثر الفتات منه . وللحجر الاسود من القدسية حظ ، جعل المعمارين يلجأون الى كل أساليب الفن ليعيدوا الى أجزائه صلابتها .. ولما تم لهم ما أرادوا ، ربطوه باطار الفضة الذى ربط به على عهد ابن الزبير ووضعوه مكانه .

وبناء الكعبة هذا ، هو القائم الى يومنا الحاضر ... وهو الذى يطوف المسلمون به منذ فرض الله الحج عليهم الى الآن (١) والى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(١) هيكل : الامبراطورية الاسلامية والاماكن المقدسة ص ١٥٧ — ١٥٨ .

كسوة الكعبة :

كان أول من كسا الكعبة هو تبع ابو كرب اسعد الملك العربى اليمنى الحميرى . فقد أرى فى منامه أن يكسوها فكساها الأنطاع . ثم أرى أن أكسها فكساها الوصائل ثياب حبرة من عصب اليمن .

وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالجلد والقباطى « وهو قماش مصرى » زمنا طويلا ، وكانت قريش فى الجاهلية ترافد فى كسوة الكعبة ، فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها ، من عهـد قصى بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن مخزوم ، وكان يختلف الى اليمن يتجر فيها فأثرى فى المال ، فقال لقريش : أنا اكسوا الكعبة وحدى سنة وجميع قريش سنة ، فكان يفعل ذلك حتى مات ، يأتى بالحبر الهندية من الهند فيكسو الكعبة ، فسمته قريش العدل لأنه عدل فعله بفعل قريش(١) .

وروى الواقدى عن القوار بنت مالك أم زيد بن ثابت رضى الله عنها أنها قالت : رايت قبل أن ألد زيد بن ثابت على الكعبة مطارف خز أخضر وأصفر ، وكرار وأكسية الاعراب وشقاق شعر .

وكانت الكعبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تكسى القباطى (٢) وهى ثياب بيض كانت تصنع بمصر ثم كسيت البرود وهى ضرب من ثياب اليمن .

ثم قام بكسوة الكعبة كل من عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن الزبير ، وكساها معاوية بن أبى سفيان بالديباج مرتين فى يوم عاشوراء ، ثم كساها عبد الملك بن مروان وقد جرت عادة الخلفاء الأمويين على وضع الكسوة الجديدة فوق الأكسية القديمة ، فلما حج الخليفة العباسى المهدى فى سنة ستين

(١) صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٨ .
(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢١٦ .

ومائة ، رفع اليه ان ثياب الكعبة قد أثقلتها ويخاف على جدرانها من ثقل الكسوة ، فجردها حتى لم يبق عليها شيء من الكسوة ، ثم افرغ عليها ثلاث كسى : قباطى وخز وديباج .

وذكر الأزرقى فى كتابه « اخبار مكة » : ان الكعبة كانت تكسى فى كل سنة كسوة ديباج يعنى أحمر وكسوة قباطى . فأما الديباج فتكساه يوم التروية ، فيعلق القميص ويدلى ولا يخاط ، واذ صدر الناس من منى خيط القميص وترك الازرار حتى يذهب الحاج لئلا يخرقوه . فاذا كان يوم عاشوراء علق عليها الأزار يوصل بالقميص ، كأن المراد بالأزار ما تدركه الأيدى فى الطواف بالقميص ما فوق ذلك الى اعلى الكعبة ، فلا تزال هذه الكسوة الديباج عليها حتى يوم سبع وعشرين من شهر رمضان فتكسى القباطى القطن .

فلما كانت خلافة المأمون (١) رفع اليه ان الديباج يبلى ويتخرق قبل ان يبلغ الفطر ، فسأل المأمون صاحب بريد مكة فى اى الكسوة للكعبة أحسن ؟ فقال له : فى البياض ، فأمر بكسوة من ديبـــاج ابيض ، عملت سنة ست ومائتين وبعث بها الى الكعبة ، فصارت الكعبة تكسى ثلاث كسى : تكسى الديباج الاحمر يوم التروية ، وتكسى القباطى يوم هلال رجب ، وتكسى الديباج الابيض يوم سبع وعشرين من شهر رمضان .

وكان سائر الخلفاء العباسيين يكسون الكعبة عادة بالحرير الأسود ، حتى اذا ضعفت الدولة العباسية صار يكسو الكعبة تارة حكام مصر وتارة اخرى حكام اليمن ثم انفرد حكام مصر بكسوة الكعبة .

---

(١) صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٨٠ .

وصف الكعبة :

الكعبة على شــكل مربع تقريبا ، مبنية بالحجــارة الزرقاء الصلبة ، ويبلغ ارتفاعها ١٥ مترا وطول ضلعها الذى فيــه الميزاب والذى قبالته ١٠ أمتار و ١٠ سنتيمترات ، وطول الضلع الذى فيه الباب والذى يقابله اثنى عشر مترا ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد اليها بسلم كسلالم المنابر . وسلمها الحالى من الخشب المصفح بالفضة أهداه الى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو لايوضع فى مكانه منها الا اذا فتح للزائرين وفى الاحتفالات الكبرى وهى لا تزيد عن خمس عشرة مرة فى السنة .

وفى الركن الذى على يسار باب الكعبة الحجر الأسود ، على ارتفاع متر وخمسين سنتيمترا من أرض المطاف .

وتسمى زوايا الكعبة بالأركان على حسب اتجاهاتها : فيسمى الشمالى بالركن العراقى ، والغربى بالشامى ، والقبلى باليمانى ، والشرقى بالاسود لان فيه الحجر الاسود ، وهو حجر صقيل بيضى الشكل غير منتظم ، لونه أسود ضارب الى الحمرة وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه ، قطره نحو ٣٠ سنتيمترا يحيط به اطار من الفضــة عرضه ١٠ سنتيمترات ، والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهو مايلتزمه الطائف فى دعائه واستغاثته . ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعــلاه المزاب ، ويقال له ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطحها وكان من نحاس ، فغيره السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ بأخر من الفضة (١) وتجدد فى سنة ١٠٢٤ فى عهد السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالمينا الزرقاء تتخللها النقوش

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٩٥ .

الذهبية . وفى سنة ١٢٧٣ ارسل اليها السلطان عبد المجيد ميزابا من الذهب ، ثم تغير فى عهد السلطان عبد العزيز بآخر من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقبالة الميزاب من الخارج يوجد الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتى البيت ويبعدان عنها بمترين وخمسة وثلاثين سنتيمترا ، ويبلغ ارتفاعه مترا وسمكه مترا ونصف متر ، وهو مغلف بالرخام المنقوش وفى محيطه كتابة فى اعلاه بالخط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار واربعة واربعون سنتيمترا . والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمونه بحجر اسماعيل ، وقد كان يدخل منه ثلاثة امتار تقريبا فى بناء ابراهيم وهى الزيادة التى كان ابن الزبير ادخلها فى بنائه ويقال ان هاجر واسماعيل مدفونان به .

وداخل البيت الواح محفور فيها أسماء من احدثوا به شيئا من العمارة وبجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الأطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة .

تفتح الكعبة(١) فى العاشر من المحرم للرجال وفى ليلة الحادى عشر منه للنساء . وفى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول . وتفتح فى العشرين من المحرم لتغسل . وفى اول جمعة من رجب للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى ليلة نصف شعبان . وفى يوم الجمعة الاولى من رمضان للرجال وفى تاليه للنساء . وفى آخر جمعة من رمضان أيضا . وفى نصف ذى القعدة للرجال وفى تاليه للنساء ،

---

(١) المصدر نفسه : ص ٩١ .

وفى عشرين منه لغسلها ، وفى الثامن والعشرين منه لاحرامها . اى احاطتها بقماش ابيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من ارضية المطاف . وتفتح فى موسم الحج لمن يزورها من الحجاج ، وتفتح ايضا فى نحو العشرين من ذى الحجة لغسلها .

ولغسل الكعبة احتفال رائع ، يحضره كبار الشخصيات والحجاج ، فيدخل شريف مكة ، فيصلى ركعتين ، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسل ارضها بمكانس صغيرة من الخوص ، ويسيل الماء من ثقب فى عتبتها ثم يغسلها بماء الورد وبعد ذلك تضمخ ارضيتها وحوائطها على ارتفاع الأيدى بالخلوق وانواع العطر كدهن الورد والمسك وفى اثناء ذلك يكون البخور بالند والعود صاعدا من جميع جهاتها ، وبعد ذلك يقف الشريف على الباب ويلقى على الحاضرين المكانس التى كانت تغسل بها الكعبة ، فيتزاحمون عليها ، ومن يحصل منهم على واحدة كانه حصل على اثمن شىء فى العالم (١) .

المسجد الحرام :

كان هذا المسجد فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عرصة فسيحة لاجدار لها ، وقد شاء عمر بن الخطاب توسيعه لأن الناس ضيقوا على الكعبة والصقوا دورهم بها . فقال :

ـ ان الكعبة بيت الله ولابد للبيت من فناء وانكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم ، فاشترى تلك الدور وهدمها وزادها فيه وهدم على قوم من جيران المسجد ابوا أن يبيعوا ووضع لهم الأثمان فى بيت المال حتى اخذوها بعد واتخذ للمسجد جدارا دون القامة فكانت المصابيح توضع عليه ثم زاد فى توسيعه عثمان بن عفان(٢)،

---

(١) الرحلة الحجازية ص ٩٢ .
(٢) د. عبد الغنى شهبندر : رحلة الحجاز ص ١٣ .

وقيل انه اول من بنى أروقته ، وفى عهد ابن الزبير وضعت له اعمدة من الرخام وبولغ فى تزيينه وتحسينه ، ثم كساه الحجاج ابن يوسف الديباج ولما ولى الوليد بن عبد الملك زاد فى التحسين والتزيين بالذهب والفضة .

وكانت دار الندوة وسط المسجد تجاه الكعبة من الجهة الشمالية وكان بها الخلفاء والامراء فى حجهم فى صدر الاسلام فلما أهمل أمرها فى منتصف القرن الثالث الهجرى أخذ بناؤها يتهدم فكتب فى ذلك الى الخليفة المعتضد العباسى فأمر بهدمها فى سنة احدى وثمانين ومئتين ، ثم جعلوا فيها قبة عالية ولها قبلة الى الكعبة ثم غير شكلها بعد ذلك واستمرت مقاما يصلى فيه الامام الحنفى الى أن أتى الأمير كلدى أمير جدة فى سنة تسعمائة وسبع وأربعين فهدمها وبنى المقام مربعا ذا طبقتين : الأولى للامام والمصلين والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو على هذا الشكل الآن (١) .

وفى سنة ثمانمائة واثنتين احترق الرواق الشرقى فأمر الملك الناصر بن برقوق ملك مصر بتعمير ماخرب منه ، ووضع بدل الأعمدة الرخام التى احترقت أعمدة من الحجر الشميسى . ومن ثم كانت تقوم بعمارة الحرم ملوك مصر لا سيما العمارة التى قام بها السلطان قايتباى فى سنة ست وثمانين وثمانمائة .

وفى سنة تسع وسبعين وتسعمائة مال الرواق الشرقى فى الحرم ميلا محسوسا فأمر السلطان سليم الثانى بعمارته ، فأنزل المعماريون سقفه جميعه وأساطينه وهدموا محيطه وبنوه على التربيع الباقى للآن وأقاموا أعمدة الرخام بين أساطين حجرية متناسبة الوضع وبنوا عليها قبابا بدل السقوف . ومات السلطان سليم أثناء اجراء البناء ، فأمر السلطان مراد خان باتمام العمارة

(١) الرحلة الحجازية ص ٨٣ .

فتمت على أحسن صورة بالشكل الذى نراه الآن . والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريبا) وفى وسطه يميل الى الزاوية الجنوبية للكعبة المكرمة . وطول ضلعه المقابل للحطيم مائة وأربعة وستون مترا وطول الذى يقابله وهو الذى فيه باب الصفا مائة وستة وستون مترا ، وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية والذى يقابله وهو الذى فيه باب ابراهيم مائة وتسعة أمتار فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر ألفا وتسعمائة واثنين من الأمتار المربعة ، أما من الخارج فمتوسط طوله مائة واثنان وتسعون مترا وعرضه مائة واثنان وثلاثون مترا .

ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ثلاثمائة وأحد عشر عمودا من الرخام يتخللها مائتان وأربعة وأربعون اسطوانة من الحجر الشميس الأحمر تقوم عليها قباب على محيط المسجد .

أما أبواب الحرم فهى ثمانية فى الجهة الشمالية وهى :

باب دريبة ، وباب المدرسة ، وباب المحكمة ، وباب الزيادة وبجواره الى الغرب باب القطبى ثم باب الباسطية وباب الزمامية وباب عمرو بن العاص .

ويليه من الجانب الغربى ثلاثة أولها باب العمرة — ويقال له باب بنى سهم ، ثم باب ابراهيم — والى جوار باب ابراهيم باب الحزورة ويليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب أولها باب أم هانىء، ثم باب العجلة ثم باب الرحمة أو « المجاهدية » ثم باب أجياد ، ثم باب الصفا ، ثم باب مخزوم ، ثم باب السنبلة ثم باب بازان ويلى ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب وهى : باب بنى هاشم (أو باب على) ثم باب العباس (أو باب الجنائز) ثم باب النبى ثم باب السلام وهو الذى يدخل منه الى الحرم عند طواف القدوم . ومجموع هذه الابواب اثنان وعشرون بابا ولكل منها ماله مدخل واحد ومنها

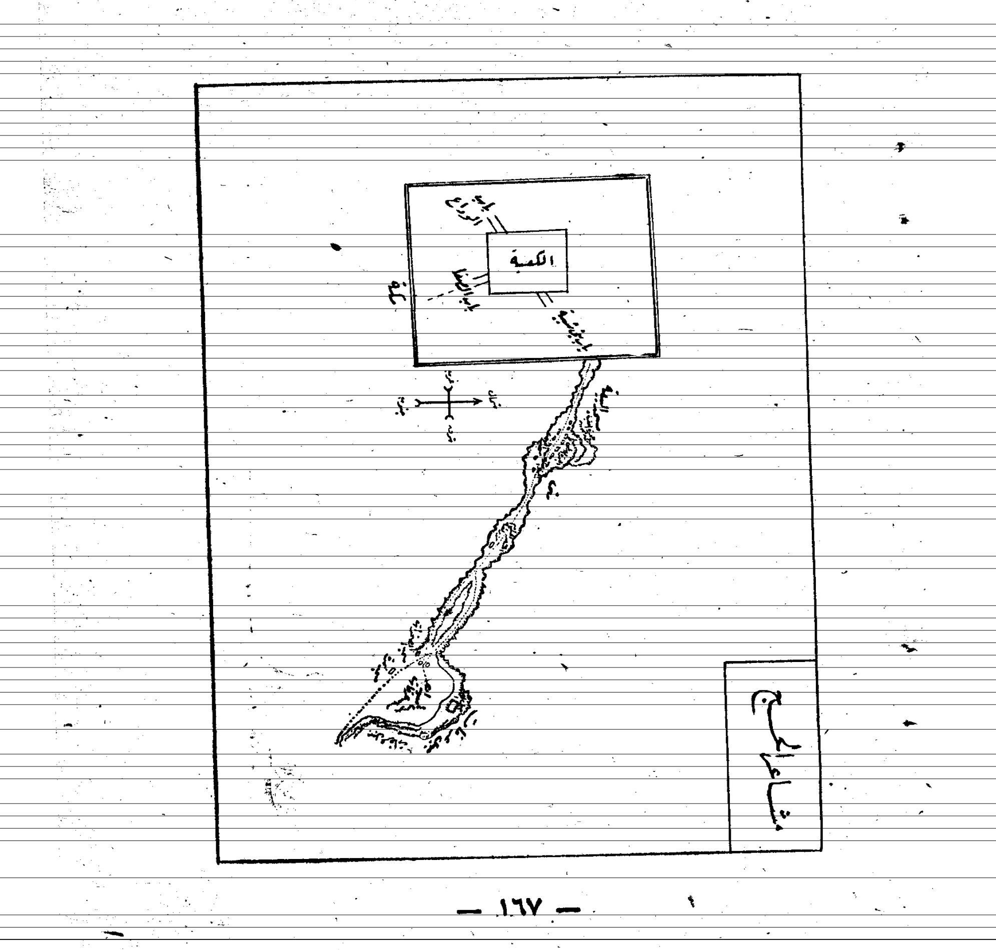
ماله مدخلان او ثلاثة او خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثون مدخلا.
وفى المسجد ست منارات الاولى منارة باب العمرة وهى من اعمال الخليفة المنصور العباسى فى عمارته للمسجد سنة مائة وثلاثين ، ثم منارة باب السلام ومنارة باب على ومنارة الحزورة وهى من اعمال المهدى العباسى فى عمارته للمسجد سنة مائة وثمانية وستين ، ثم منارة باب للزيادة وهى من اعمال المعتضد العباسى سنة مائتين واربع وثمانين ثم منارة السلطان قايتباى وقد حصلت فى جميعها ترميمات وزيادات فى مدة العمارة التى قام بها السلطان سليم الثانى فى المسجد وكلها باقية للآن يؤذن عليها فى الأوقات الخمسة . وشيخ المؤذنين او الميقاتى يؤذن على قبة زمزم وفيها مزولة مثبتة فى حائطها الجنوبى من عمل رجل من مراكش اهداها الى الحرم وهى غاية فى الضبط والاحكام وعليها ميقاتهم فى النهار فاذا دخل الوقت بدأ الرئيس بالاذان فيتبعه المؤذنون الذين على المنارات بأصوات يحركها الهواء على طبلة الأذن فيحدث منها اهتزازات فى القلب يمتلىء منها خشية ورهبة وخشوعا وخضوعا.
وعلى حدود المطاف تلقاء كل ضلع من أضلاع البيت سقيفة قامت على اعمدة من الرخام : فالشمالية منها مصلى الامام الحنفى والغربية للامام المالكى والجنوبية للامام الحنبلى أما الامام الشافعى فيصلى فى مقام ابراهيم او فى المطاف مما يلى الكعبة مباشرة جاعلا بابها على يساره .

وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه مماش محجورة وما بينها أرض بها حصباء ، واول من حصب أرضية الحرم هو عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . والكعبة فى وسط صحن المسجد يميل الى الجنوب ويليها من الشرق مقام ابراهيم وفى جنوبه الشرقى قبة زمزم التى بناها ابو جعفر المنصور فى سنة مائة وخمس

واربعين وفرش ارضها بالرخام وعمقها المأمون وشرقى زمزم الى الشمال باب شيبة وهو باب من الرخام قام فى وسط الحرم فى المكان الذى كان به باب المسجد فى مدته صلى الله عليه وسلم ، وفى شمال المقام المنبر وهو من الرخام غاية فى دقة الصناعة أهداه الى الحرم السلطان سليمان ومكتوب على بابه بالخط الذهبى الجميل « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » وأول من وضع المنبر فى المسجد الحرام معاوية بن أبى سفيان حين قدومه مكة للحج وكان الخلفاء قبله يخطبون على ارضية المسجد تحت جدار الكعبة أو فى الحجر . ثم أهدى اليه سنة مائة وسبعين منبرا من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج هرون الرشيد الذى خطب الناس عليه فى حجه فى السنة المذكورة . وفى عهد الواثق امر فعمل له ثلاثة منابر : واحد فى الحرم والثانى فى عرفة والثالث فى منى ، وخطب فى حجه عليها جميعا . وقد كان الخطباء اذا أرادوا الخطبة فى الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الحجر والركن اليمانى فاذا أراد الخطيب أن يصعد المنبر استلم الحجر أولا ثم دعا وصعد المنبر ، وبعد الخطبة كان ينقل المنبر الى مكانه بجوار زمزم . فلما أهدى السلطان سليمان اليه منبره الرخامى بقى مكانه واستمرت فيه الخطبة الى اليوم .

جبل عرفات :

جبل عرفات على شكل قوس كبير يحيط بواد متسع يسمى « عرفة » وتبلغ مساحته نحو ميلين مربعين وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف وفى طرفه من جهة الشمال لسان يبرز الى الغرب يسمى جبل الرحمة وهو جبل صغير بالنسبة لما حوله من الجبال ارتفاعه قريب من ٣٠ مترا وطوله ٣٠٠ مترا . وقدسية عرفات لاتتجلى الا يومى الحج وهما اليومان الثامن


الكعبة

والتاسع من شهر ذى الحجة لكل عام . فاذا كان اليوم الثامن من ذى الحجة ، صعد الحجاج من مكة الى عرفات زمرا ، فألفوا خيامهم ضربت بها واعدت لقضاء الليل فيها ، فاذا أصبح الصبح من يوم عرفة ، رايت هذا البطيح ممتدا امامك لايكاد يحيط بحدوده نظرك ، ورأيت الناس فيه جميعا لبســوا لباس الاحـرام فهم سواسية ، ورايتهم يتوجهون بقلوبهم وافئدتهم الى الله يلتمسون التوبة والمغفرة ، فأنت تسمع استغفارهم منذ صلاة الفجر لذلك اليوم الى ان يفيض الناس من عرفات بعد صـلاة العشاء فوق الجبل فاذا افاض الناس من عرفات عاد خـلاء كما كان لا يعمره الا من يمرون به من البدو ، ثم يبقى كذلك الى أن يستدير العام وتعود ايام الحج فى العام التالى ، ويفيض الناس من عرفات الى المشعر الحرام بالمزدلفة ، يأخذون منه الجمرات الى منى . والمشعر الحرام مسجد قائم فى عزلة الصـحراء بين هذه الجبـال القليلة الارتفاع ، والتى تتصل من مكة الى عرفات . وقل أن يرى أحد من الحجاج مسجد المشعر الحرام لانهم يمرون به بعد الافاضة ليلا ، ولا يقيمون عنده الا سويعات تطـول أو تقصر حسب سـاعات الافاضة . فمن افاض بعد العشاء ، اتيح له ان يبقى زمنا الى ما بعد منتصف الليل . ومن افاض من عرفات قبيل منتصف الليل ، لم يقف بالمشعر الا ريثما يتم جمع الجمرات .

ويبلغ الحجاج منى قبيل الفجر ، ثم يقضون بها ثلاثة أيام يرمون فيها الجمار ويصلون بمسجد الخيف .. على أن الناس يهبطون من منى اول أيام الأضحى ليطوفوا بالبيت ، ومنهم المحرم ومنهم من حل احرامه . فاذا اتموا الطواف والسعى ، عادوا الى منى فقضوا بها أيام عيد الأضحى ، ثم رجعوا الى مكة ينظمون سفرهم الى المدينة المنورة او عودتهم الى بلادهم .

الفصل الثامن

الحجر الأسود

احترام الناس للاحجار ضارب فى المزمن القديم ، فمنهم من كانوا يعبدونها لذاتها ومنهم من كان يجعلها رمزا لآلهتهم كما كان الشأن فى الدول المتقدمة فى عمرانها كدولة اليونان والرومان الذين كانوا يرمزون بها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها .

اما العرب فقد كانت أصنامهم ساذجة ، وكانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ، وكان انبياء بنى اسرائيل يقيمون الأحجار فى مناسبات كثيرة : منها ما هو تذكار لحادث من الحوادث المهامة ، كما فعل يعقوب عندما تراءى له ربه جل شأنه فى نومه فانه أقام حجرا تذكارا لهذه الحادثة الكبرى فى مكان سماه بيت ايل « بيت الله » كما اقام حجرا غيره تذكارا للعهد الذى تم بينه وبين لابان .

« فأجاب لابان وقال ليعقوب البنات بناتى والبنون بنى والغنم غنمى وكل ما انت ترى فهو لى . فبناتى ماذا أصنع بهن اليوم أو بأولادهن الذين ولدن . فالآن هلم نقطع عهدا انا وانت ، فيكون شاهدا بينى وبينك . فاخذ يعقوب حجرا وأوقفه عمودا [1] » ومن ذلك الاثنا عشر حجرا التى نصبها يشوع تذكارا لعبور الأسباط نهر الاردن بتابوت العهد[2] ومنها الحجارة التى نصبها موسى عليه السلام فى ذيل الجبل تذكارا لكتابة كلام الرب[3] ومن

---

(١) تكوين ٣١ : ٤٣ — ٤٥ .

(٢) راجع الاية التاسعة فى الاصحاح الرابع من سفر يشوع .

(٣) راجع الاية الرابعة من الاصحاح الرابع والعشرين فى سفر الخروج .

الحجـــارة ما كانوا يقيمونه للعهــد والميثاق كالحجر الذى اقامه يشوع عندما أخذ العهد على شعبه قائلا لهم : هذا الحجر يكون شاهدا علينا .

وكان المصريون يقيمون الأحجار الضخمة كالمســلات وغيرها تذكارا للحوادث التاريخية الكبرى ، وقد اقتفت آثارهم الدول المتمدنة وعلى الخصوص مايقيمونه اعترافا بفضل من ينبغ من أفراد الأمة .

وللنصارى أحجار كثيرة يقدسونها ومنها شىء كثير فى القدس ومن تلك الأحجار الذى تحت قبة الصعود وفيه أثر صدر قدم يمنى يقولون انه أثر قدم المسيح عندما صعد الى السماء . ومن الحجارة المقدسة عند اليهود والنصارى والمسلمين على السواء صخرة بيت المقدس ، التى كانت محل قربات ابراهيم واسحق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بنى اسرائيل والتى كانت قبلة للمسلمين قبل الكعبة ، ثم صخرة أيوب النبى التى فى قرية الشيخ ســعد على طريق السكة الحديد بين المزيريب والشام ، ويقصد زيارتها والتبرك بها خلق كثير من جميــع الافاق . من ذلك نرى أن هــذه الحجارة لم تقدس لذاتها ولكن لعلاقتها بشىء مقدس . وعليه فالحجر الأسود الذى وضعه ابراهيم عليه السلام فى الكعبة اما أن يكون وضعه تذكارا لصدعه بأمر ربه برفع قواعد هــذا البيت الكريم ، واما أن يكون للعهد الذى أخذه ابراهيم على نفســه وولده بجعله هذا البيت مثابة للناس ، واما أن يكون قد اقامه ابراهيم حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم الى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجدا للطائفين والعاكفين

---

(١) آية ٢٦ — ٢٧ من الاصحاح ٢٤ من سفر يشوع .

والركع السجود . ووضعه فى الركن الاقرب الى الباب ليكون أول حدود هذا البيت المكرم الذى يبتدىء منه الطائفون ، وجعل لونه أسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه لذلك كان هذا الحجر محترما من ابراهيم وولده محترما من المسلمين الى اليوم والى الغد (١) .

وقد زعم بعض الكتاب أن استلام الحجر الاسود وتقبيله وثنية . ولكن هذا الادعاء يمكن دحضه فى سهولة ويسر . فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبله ، كما قبله بعد ذلك أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ويروى عن زيد بن أسلم عن أبيه انه قال : رأيت عمر بن الخطاب ، يقبل الحجر ويقول : اللهم انى أعلم انك لا تضر ولا تنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

قال الطبرى : انما قال عمر ذلك مع انه معلوم بالضرورة أن الحجر لا يضر ولا ينفع ، ليعلم الناس وكانوا حديثى عهد بالجاهلية ... والحجر الأسود جزء من الكعبة المشرفة التى بناها ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام . وحين أراد ابراهيم أن يجعل مبدءا للمطاف وضع الحجر الأسود فى مكانه من ذلك الركن . ليسهل على الطائفين بدء الطواف بمجرد النظر اليه . لئلا يضطرب الطائفون فى الأركان ، فليس الحجر الأسود من آثار المشركين كما يدعى بعض الذين يشككون فى الأمر . بل هو من آثار ابراهيم عليه السلام . ومن الحجارة التى وضعها فى الكعبة . لأن الكعبة جدد بناؤها مرارا قبل الاسلام وبعده فالحجر الأسود يذكرنا بالنشأة الأولى للاسلام والتوحيد . وجاء فى عدة مواضع من القرآن ذكر خاص لابراهيم . وكذلك فى الحديث الشريف . ففى

---

(١) الرحلة الحجازية ص ١٣٠ — ١٣١ .

يوم عرفة فى الحج قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «قفوا على مشاعركم فانكم على آثار ابراهيم » فلا يمكن أن يفسر تقبيل الحجر الأسود بأنه وثنية لأن الوثنية معناها عبادة الوثن . وليس هناك مسلم حين يستلم الحجر الأسود أو يقبله أو يشير اليه أنه يفكر فيه تفكير عبادة .

ولقد وردت آثار كثيرة فى فضل هذا الحجر . وفيها ما يدل على أنه من الجنة ، ولابد لنا أن نقف أمام هذه الروايات وقفة المتأمل الفاحص الذى يلتزم الحيدة التامة ولا ينخدع بالعاطفة التى كثيرا ما تحجب الحق وتطمس معالمه .

روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الحجر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ، ولولا أن طمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب (ذكره الترمذى فى صحيحه . وقال حديث غريب) وفى رواية أخرى (لاضاءا ما بين المشرق والمغرب ولأبرءا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص ...) وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم » .

ويذكر العلامة تقى الدين الفاسى (١) رواية أخرى عن ابن عباس تتعارض والرواية السابقة المذكورة عن ابن عباس نفسه : اذ يقول وانما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا الى زينة الجنة وانه لياقوتة بيضاء .

وتأتى بعد ذلك روايات وأحاديث يقول بعضها ان الرسول صلى

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ١٦٨ .

الله عليه وسلم كان يقبل الحجر الأسود فى طوافه بالكعبة فى حجة الوداع ، وكان يضع خده عليه وكان يسجد عليه[1] ، وغيرها يقول: وكان يطوف على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم يقبل طرف المحجن .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ان الحجر الاسود ياقوتة من يواقيت الجنة ، وانه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق به يشهد لكل من استلمه بحق وصدق .

« رواه الامام أحمد فى مسنده صفحة ٢٣١٨ . وذكر أن الحديث ضعيف » .

وقال : الحجر الأسود يمين الله فى أرضه يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه (٢) .

وفى رواية : الحجر الأسود من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك .

وهذه الروايات وأمثالها تحمل فى طياتها مايوهنها اذ يتعارض بعضها مع بعض ثم هى فى ذاتها لا تقوم على أساس ولا تستهدف غرضا سليما .

فأما تعارضها فلأن الروايتين المذكورتين عن ابن عباس مختلفتان . وأما انها لا تقوم على أساس . ولا تستهدف غرضا سليما . فلأن قيمة هذا الحجر لاتزداد اذا كان من أحجار الجنة ولا تنقص اذا كان من أحجار الأرض ، وذلك لأن قيمة الشىء انما تكون فى الجوهر لا فى العرض . وفى اللباب دون القشور . فالذهب وسط التبر هو الذهب وسط التراب . والكعبة قد بنيت من أحجار الأرض — ومع ذلك فهى بيت الله الذى يشع بالهدى والنور ، ويسمو على ما فى الجنة من بيوت وقصور .

(١) رواه الحافظ البيهقى وعكرمة عن ابن عباس الغزالى ص ٤٤٠ — أسرار الحج ج١

(٢) عن ابن عباس راجع الغزالى ج ١ ص ٤٤٠ .

وهكذا فقد نشأ الاختراع فى الرواية والتأويل ووضع الأحاديث .
وقد أشار الى ذلك ائمة الحديث حيث كان الزهرى يقول : يخرج الحـديث من عندنا شبرا ، ويرجع الينا ذراعا . وبذل أئمـة الحديث والرواية والاسناد اقصى الجهد فى تحرى أحوال الرواة وشئونهم . وكثيرا ما كان السلف يروون بعض الروايات ويتخذون من عدم انطباق المتن على قواعد الشرع الجليلة دليلا على ضعف اسناده ، وصدق نسبته الى الرسول صلى الله عليه وسـلم .. ووهم راويه كما رد ابن عباس حديث أبى هريرة رضى الله عنهما: من حمل جنازة فليتوضأ . وعلل هذا الرد بقوله لا يلزمنا الوضوء فى حمل عيدان يابسة . والمسلمون عانوا ويعانون من اكاذيب وضاع الاحاديث والمرويات . وقد وضع العلماء القواعد لنقدالاحاديث لمعرفة الصحيح والحسن والضـعيف منها مثلا فساد المعنى : بأن يكون الحديث مخالفا لبدهيات العقول من غير أن يمكن تأويله. مثل : ان سفينة نوح طافت بالبيت سبعا وصلت عند المقام ركعتين فهذا لا يمكن أن يقبله عقل .

بل جعلوا للذوق الفنى مجالا فى نقـد الأحاديث وردها وكانوا يقولون هذا حديث عليه ظلمه أو ينكره القلب ، ويكفى أن يذكر الانسان ما كابده البخارى من مشـاق واسفار فى مختلف اقطـار الدول الاسلامية لجمع الحديث وتمحيصه وماراوه بعد ذلك من أنه الفى الأحاديث المتداولة تربو على ستمائة الف حديث لم يصح منها أكثر من اربعة آلاف ، ومع ما ابداه جامعو الحديث من حرص على الدقة لاريب فيه ، فقد قال النووى فى شرح مسـلم : وقد استدرك جماعة على البخارى ومسلم أحاديث أخلا بشرطهما ونزلت عن درجة ما التزماه وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ

انه قال : « انكم ستختلفون من بعدى فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فمنى وما خالفه فليس منى » .

وها هو حديث : لو اعتقد احدكم فى حجر لنفعه . ليس اظهر منه امعانا فى الكذب وهو حديث من وضع الزنادقة . وناهيك عن تلك الأحاديث الكثيرة الموضوعة المبتذلة . فهل هى الا احاديث متداولة على السنة الناس ، فى استشهادهم وتحاجهم فى معاملاتهم فهى اشيع الأحاديث واقربها الى التواتر .. لكنها ليست مقبولة عقلا :

هذه الخواطر التى تجول فى النفس تجعلنا ننظر الى مثل هـذه الروايات فى حذر وحيطة ، ونشك فى نسبتها الى رسول الله — صلى الله عليه وسـلم — لاسيما انه لم يـذكر شىء منهـا فى الصحيحين ، وحينما ذكر الترمذى الحديث المروى عن عبد الله ابن عمر قال : انه حديث غريب ، ولابد لنا اذن ان نلتمس السبيل الى رواية اخرى لا يتطرق اليها مثل هذا الضعف والوهن . ولقد ذكر « ابن الأثير » فى تاريخه : ان ابراهيم عليه السلام حينما امره الله ببناء البيت الحرام ، قال لولده اسماعيل : ان الله أمرنى ان ابنى له بيتا .

قال اسماعيل : فأطع ربك .

فقال ابراهيم : وقد امرك الله ان تعيننى على بنائه .

قال : اذن افعل .

فقام معه فجعل ابراهيم يبنى واسماعيل يناوله الحجارة .

ثم قال ابراهيم لاسماعيل :

— ائتنى بحجر حسن اضعه على الركن فيكون للناس علما .

فاخذ حجرا من جبل « ابى قبيس » وقيل ان جبريل اخبره

بحجر هو الحجر الاسود ، فأخذه ووضعه فى موضعه فلما ارتفع البنيان كان ابراهيم يقف على حجر واسماعيل يناوله . وهذا الحجر هو مقام ابراهيم . وهكذا تعاون ابراهيم واسماعيل حتى رفعا قواعد البيت وأتما بناءه . من هذه الرواية وما يؤيدها من روايات ذكرتها أمهات الكتب التاريخية . يتبين لنا أن الحجر الأسود لم ينزل من الجنة . وانما هو من احجار جبل أبى قبيس أراد الله أن يوضع فى ركن من أركان بيته الحرام ليكون علما . أى علامة يبدأ منها الطواف وينتهى اليها . فلما أذن ابراهيم فى الناس بالحج كان الحجر الأسود موضع بدء الطواف ونهايته . وكان الطائفون يبدأون باستلامه وكأنهم يسجلون أنفسهم فى هذا السجل الخالد . ويقترن ذلك فى نفوسهم بأجل الذكريات عن خليل الرحمن عليه السلام ، فيزداد حبهم لهـذا الحجر المبارك وينتقل ذلك من شعب الى شعب ، ومن جيل الى جيل .

وقد فرض الله الحج على كل مسـلم مستطيع وجعله الركن الخامس من أركان الاسلام ، وجعل من أركان الحج الطواف ببيت الله الحرام . وجعل من شروط الطواف أن يكون الحجر الأسود نقطة البدء ، ونقطة النهاية فى المطاف ، وفى السنن المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم — تقبيله واستلامه .

بيد أن بعض المسلمين على طول الزمن وبعد العهد بالرسول صلى الله عليه وسلم قد تغير تفكيرهم فأصبحوا يغالون فى تعظيم هذا الحجر حتى لقد خيل اليهم ان الحج لا ينفع الا بتقبيله ووضـع الجباه عليه .

لقد كان الرسول يستلم الحجر ويقبله ، ولكن ليس ذلك شرطا فى صحة الطواف ولا فى صحة الحج والعمرة ، وانما هى لحـكمة

يعلمها الله . وان خفيت علينا . وليس لنا وقد آمنا بهذا الدين عن بينة الا ان نؤمن بهذه الجزئيات ولو لم يذكر لها تعليل .

والعرب كانت تحج من تسعة عشر قرنا واكثر الى الكعبة ، لأنهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ماكانوا عليه من اختلاف الالهة وتعدد الديانات وتغاير المذاهب . وكانوا يقصدونها سنويا للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين لأنها كانت عندهم بيتا لله الذى هو اله العالمين ، ورغما عن شيوع عبادة الأوثان فى سواد قبائل العرب فانه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة أو الحجر الأسود مع احترامهم لها ذلك الاحترام الذى لا يمكن تصويره . وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل من السماء وبه أخذ بعض الفقهاء . ونحن لا ندرى ان كان وصل اليهم من طريق النيازك أو من طريق آخر .

ان الحجر الأسود عند المسلمين محترم مكرم ، معظم لا لذاته ولكن لكونه شعارا لربوبيته تعالى ورمزا لسلطانه ، يعرض عليه المسلمون فيستلمونه ويقبلونه أو يسلمون عليه بكل احترام واحتشام ، وعليه فهو فى ذلك كأعلام الدول التى لا تحترم لكونها قطعة بسيطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أبسط منها . بل لأنها تمثل سلطان الدولة أو الجمهورية ، ولذلك فانهم يحنون رءوسهم وسيوفهم لها احتراما وخضوعا .

ان أمر تقبيل الحجر الأسود يكاد يكون راجعا فى جملته وتفصيله الى ماروى من أن عمر قبله ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال عبارته المشهورة .

روى ابن شيبة والدار قطنى فى العلل عن عيسى بن طلحة عن رجل راى الرسول عليه الصلاة والسلام واقفا عند الحجر فقال : « انى لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع » ثم قبله .

ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال :

— « انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا انى رايت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقبلك ما قبلتك » .

وقال عمر :

— « أما والله انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا انى رأيت رسول الله عليه الصـــلاة والسلام قبلك ما قبلتك » . ثم دنا فقبله (١) .

(١) رواه أبو بكر بن أبى شيبة والامام احمد والبخارى ومسلم وغيرهم . — زكريا هاشم زكريا — المستشرقون والاسلام ص ٢٢١ وما بعدها .

الفصـــل التاســـع

آثار مكـــة

ان ما يوجد بمكة اليوم من آثار باقية خالدة على مر الزمن ، تؤكد على سمو روحى ، وصفاء قلب ، وطهارة يد ، وعفة لسان الذين شيدوها واقاموا فيها ...

اوحى الله العلى القدير الى ابراهيم وهو بفلسطين ان خذ هاجر واسماعيل واخرج الى حيث اريك ، فحمل هاجر واســماعيل وهو رضيع وانطلق الى الجنوب ، الى الأرض التى أراد الله أن يبارك فيها للعالمين .

ونزل ابراهيم وهاجر واسماعيل بواد غير ذى زرع يطل عليه جبل قبيس ، لاماء ولا شجر ولا انفاس حياة ..

وفى هذا الوادى الذى ليس فيه انيس ولا شىء ... ترك ابراهيم هاجر واسماعيل .. وانطلق عائدا الى فلسطين .

ونفد المـــاء ، وعطشت هاجر وعطش ابنهـــا ، وفجر الله بئر زمزم لتشرب ، وقال لها الملك :

ــ لا تخافى الضيعة فان هذا بيت الله الحرام ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله .

وتحول الوادى القفر ، الى واد تدب فيه الحياة ....

بدات عمارة مكة ولم يكن لأحد فيها قبل ذلك قرار فســكنتها قبيلة جرهم رغبة فى مائها ، وقيل ان جرهما طمست البئر حين نفيت من مكة ، ولما كان زمن عبد المطلب بن هاشم جد الرسول

صلى الله عليه وسلم أرى فى المنام مكان زمزم فاستبانها وحفرها ...

قال عبد المطلب (١) : انى لنائم فى الحجر اذ اتانى آت فقال :

— احفر طيبة .

— قلت : وما طيبة ؟

ثم ذهب عنه ، فلما كان من الغد رجع عبد المطلب الى مضجعه ، فنام فيه .. فجاءه ، فقال :

— احفر برة .

— وما برة .

ثم ذهب عنه ، فلما كان من الغد رجع عبد المطلب الى مضجعه فنام فيه ، فجاءه .

فقال : احفر المضنونة .

قال : وما المضنونة ؟

ثم ذهب عنه ، وعاد اليه من الغد فقال :

— احفر زمزم .

— وما زمزم .

قال :

— لاتنزف أبدا ولا تزم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل .

فلما بين له شأنها ، ودل على موضعها ، وعرف أنه قد صدق ، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ، ليس له يومئذ ولد

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٥٤

غيره ، فحفر فيها ، فلما بدا لعبد المطلب الطى كبر ، فعرفت قريش انه قد ادرك حاجته ، فقاموا اليه ، فقالوا :

ـــ يا عبد المطلب ، إنها بئر أبينا اسماعيل ، وان لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها .

قال :

ـــ ما أنا بفاعل ، ان هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم .

فقالوا :

ـــ فأنصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها .

قال :

ـــ فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم اليه .

قالوا : كاهنة بنى سعد هذيم .

ـــ نعم .

وكانت بأشراف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أبيه من بنى عبد منـــاف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفــر ، والأرض اذ ذاك مفاوز ، فخـــرجوا حتى اذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فنى ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش ، فأبوا عليهم فقالوا :

ـــ انا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما اصابكم ، فلما راى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون ؟

قالوا :

ـــ ما رأينا الا تبع لرأيك ، فمرنا بما شئت .

قال :

— فانى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بمابكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ، ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلاً واحدا ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعا .

قالوا :

— نعم ماأمرت به ، فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا ، ثم ان عبد المطلب قال لأصحابه :
— والله أن القاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا لعجز ، فعسى الله ان يرزقنا ماء ببعض البلاد ، ارتحلوا .

فارتحلوا ، حتى اذا فرغوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون اليهم ما هم فاعلون تقدم عبد المطلب الى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب ، فكبر عبد المطلب ، وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش ، فقال : هلم الى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ، فجاءوا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك فى زمزم أبدا ، ان الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذى سقاك زمزم ، فارجع الى سقايتك راشدا ، فرجع ورجعوا معه ، ولم يصلوا الى الكاهنة ، وخلوا بينه وبينها .

وبعد مدة طويلة اخذ ماؤها يقل حتى كاد ينقطع فى سنة ٢٢٣ هـ . لأن البئر أهملت وهدم كثير من جوانبها فأخذ رجل من اهل الطائف يقال له محمد بن بشير يعمل فيها . قال الازرقى فى كتابه

« اخبار مكة » : وقد صليت فى قعرها وفيه ثلاث عيون : عين حذاء الركن الأسود وعين حذاء أبى قبيس والصفا وعين حذاء المروة . وكان ذرع غورها من أعلاها الى أسفلها ٦٩ ذراعا ، منها ٤٠ مبنية و٢٩ نقر فى الجبل من أسفلها ، وقال الفاسى (١) (أوائل القرن التاسع) وزمزم الان داخل بيت مربع فى جدرانه تسعة أحواض للماء تملأ من بئر زمزم ليتوضأ الناس منها ، وفى الحائط المقابل للكعبة شبابيك ، وفوق هذا البيت ظلة للمؤذنين ولم أدر من أقام ذلك على هذه الصفة ، ثم ذكر أنه فى سنة ٨٢٢ هـ ، أجرى اصلاح كبير بل عمارة جديدة فى هذا البيت واحواضه والظلة التى فوقه للمؤذنين وأن ذلك كان على نفقة الشيخ على بن محمد بن عبد الكريم الجيلانى نزيل مكة . وفى سنة ٩٣٣ هـ، عمل لدائر بيت زمزم طراز مذهب وكتب فيه اسم السلطان سليمان نخبة آل عثمان .

وفى سنة ٩٤٨ هـ . جدد بيت زمزم على يد الأمير خشقلدى فرخمت أرضه وجعل عليه سقف فوقه مظلة مسقوفة بالخشب المزخرف عليه جملي (جمالون) فى وسطه قبة مصفحة بالرصاص . وفى سنة ١٠٢٠ هـ . وضع بأمر السلطان أحمد خان شبكة من الحديد بداخل البئر ومنخفضة عن سطح الماء بمتر ، وتجد الآن — ١٣١٨ هـ — مكتوبا على الشباك الشمالى من جهة الباب « ماء زمزم شفاء من كل داء » (٢) « آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم (٣) » السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هـ. وتجد مكتوبا على بابها .

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام .
(٢) رواه الديلمي فى مسند الفردوس وهو حديث ضعيف .
(٣) رواه الحاكم وابن ماجه والبخاري فى تاريخه .

سرورلسلطان البسيطة والورا عبد الحميد البر بحر المكارم
ونصر له أيضا وفتح ورفعة بتعمير هـذا المآثر المتقـادم
حفيرة ابراهيم يوم ابن هاجر وركضه جبريل على عهد آدم

وعلى الشباك القبلى « ماء زمزم لما شرب له (١) » « لا يجمع ماء زمزم ونار جهنم فى جوف عبد » « السلطان عبد الحميد خان سنة ١٢٠١ هـ » .

وقد ورد كثير من الأحاديث فى فضل ماء زمزم ، فمن ذلك ما رواه الطبرانى فى معجمه بسند رجال ثقات ، وفى صحيح ابن حيان من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن الرســول صلى الله عليــه وسلم « خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم » . وذكر البخارى فى صحيحه : انه لما شق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم غسل بماء زمزم .

قال ابن القيم فى كتابه زاد المعاد فى باب الطب : ماء زمزم سيد المياه واشرفها واجلها قدرا وأحبها الى النفوس واغلاها ثمنا عند الناس ، وهو هزمة جبريل وسقيا اسماعيل . وثبت فى الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال لأبى ذر : وقد أقام بين الكعبة واستارها أربعين ما بين يوم وليلة وليس له طعام غيره ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « انها طعام طعم » .

وقد جرت عادة الناس بنقل هذا الماء الى الجهات النائية ، قال التقى الفاسى فى شفاء الغرام : والأصل فى جواز نقله ما رويناه فى جامع الترمذى عن عائشة رضى الله عنها انها حملت من ماء زمزم فى القوارير ، وقالت : حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه احمد فى مسنده والبيهقى فى سننه وشعبة وابن ابى شيبة عن جابر بن عبد الله بن عمرو .

فى الاداوى والقرب وكان يصب على المرضى ويسقيهم ، ورويناه فى شعب الايمان للبيهقى وفى سننه .

وقال : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه .

سقاية العباس :

سقاية العباس حجرة كبيرة شرقى الكعبة وجنوبى زمزم ذات نوافذ وسقفها جملى « جمالون » بارز عن جدرها ليستظل به الناس وقد وصفها الفاسى فى وقته فقال : انها بيت مربع فى أعلاه قبة كبيرة وفى جهاتها الأربع عدا الجنوبى منها شبابيك من حديد ، وفى جانبها الشمالى من الخارج حوضان بينهما الباب وفى وسط البيت بركة كبيرة تملأ بالماء من زمزم بواسطة قناة سماوية من زمزم الى جدر البيت ثم يسلك قناة أرضية الى البركة فيخرج منها الماء على شكل فوارة .

وقال : انها عمرت فى سنة ٨٠٧ هـ . وقد كان العباس بن عبد المطلب يسقى فيها الحجيج .

مولد الرسول صلى الله عليه وسلم :

مولد الرسول الكريم بشعب بنى عامر شرقى مكة وهو مكان قد ارتفع الطريق عنه بنحو متر ونصف وينزل اليه بواسطة درج من الحجر يوصل الى باب يفتح الى الشمال يدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترا فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الغربى باب يدخل منه الى قبة فى وسطها مقصورة من الخشب داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتعيين مولد الرسول الكريم ، وهذه القبة والفناء الذى خارجها يكونان الدار التى ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال الأزرقى فى كتابه تاريخ مكة : ان البيت الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم هو فى دار محمد بن يوسف الثقفى اخ الحجاج ، وكان عقيل بن أبى طالب اخذ من الرسول صلى الله عليه وسلم داره لما هاجر ، وفيها يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى عام حجة الوداع لما قيل له : اين تنزل يارسول الله « وهل ترك لنا عقيل من ظل » ولم تزل الدار بيد عقيل وولده حتى باعها ولده من محمد بن يوسف الثقفى فأدخلها فى داره التى يقال لها البيضاء وتعرف اليوم بدار ابن يوسف ، وبقيت الدار كذلك حتى حجت الخيزران أم الخليفتين موسى وهرون سنة ١٧١ هـ . فجعلت دار الرسول مسجدا يصلى فيه وفصلته من دار ابن يوسف واشرعته فى الزقاق الذى فى اصل تلك الدار ويقال له : زقاق المولد . قال أبو الوليد : انه سمع جده ويوسف بن محمد يثبتان أنه المولد وأنه ذلك البيت لا اختلاف فيه عند اهل مكة .

وجاء فى المواهب اللدنية انه اختلف فى مكان ولادته صلى الله عليه وسلم فقيل : ولد بمكة فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف

الثقفى ، ويقال بالشعب ــ شعب بنى هاشم ــ ويقال : بالردم ، ويقال : بعسفان .

وجاء برحلة العياشي (١) بعد ان ذكر خلاف اهل السير في مولده صلى الله عليه وسلم ما يأتى : والعجب انهم عينوا محلا من الدار مقدار مضجع وقالوا له : موضع ولادته صلى الله عليه وسلم ، ويبعد عندى كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لما تقدم من الخلاف فى كونه بمكة أو غيرها وعلى القول بأنه فيها ففى اى شعابها وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففى أى الدور ، وعلى القول بتعيين الدار ، فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصار وانقطاع الآثار والولادة وقعت فى زمن الجاهلية ، وليس هناك من يعنى بحفظ الأمكنة ولا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك، وبعد مجيء الاسلام قد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بتقييد الاماكن التى لم يتعلق بها عمل شرعى لصرفهم اعتناءهم رضوان الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة والذب عنها بالسنان واللسان ، وكان ذلك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة فى الاسلام من مساجده عليه السلام ومواضع غزواته ومدافن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك فى المشاعر الجليلة ، فما بالك بما وقع فى الجاهلية لا سيما ما لا يكاد يحضره أحد الا من وقع له كمولد على ومولد عمر ومولد فاطمة الزهراء ، فهذه الأماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان ، وفى ذلك من البعد ابعد من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم فقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات وان كانوا أهل جاهلية ، وأما مولد

---

(١) ج ١ ص ٢٢٥ .

غيره ممن ولد فى ذلك العصر فتكاد المادة تقطع بعدم معرفته الا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبهه او أحد من اهل بيته .

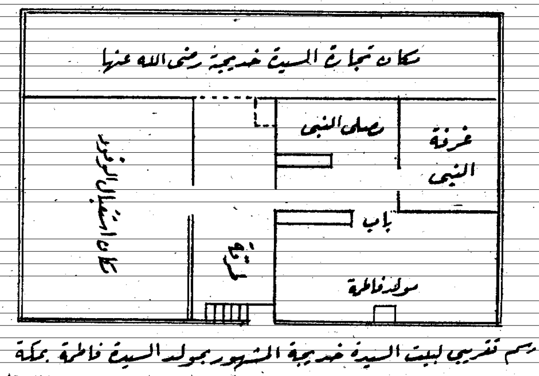
وجاء فى كتاب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » وصف مولد الرسول ، وقال بعد الوصف : وقد خفى علينا كثير من عمارته والذى علمته من ذلك أن الناصر العباسى عمره فى سنة ٥٧٦ هـ ثم الملك المظفر صاحب اليمن سنة ٦٦٦ هـ . ثم حفيده المجاهد سنة ٧٤٠ هـ . وفى سنة ٧٥٨ هـ . من قبل الأمير شيخون أحد كبار رجال الدولة فى مصر ، وفى عهد الملك الأشرف شعبان صاحب مصر سنة ٧٦٦ هـ . وفى آخر سنة ٨٠١ هـ . وفى اول التى بعدها من المال الذى انفذه الملك الظاهر برقوق صاحب مصر لعمارة المسجد الحرام وغيره بمكة ، وكانت عمارة هذا المولد بعد موته .

وقد جدد القبة التى على موضع الولادة السلطان سليمان خان سنة ٩٣٥ هـ . وفى سنة ٩٦٣ هـ . أهدى هو ايضا ثلاثة قناديل من الذهب منها اثنان للكعبة والثالث يعلق بالمولد .

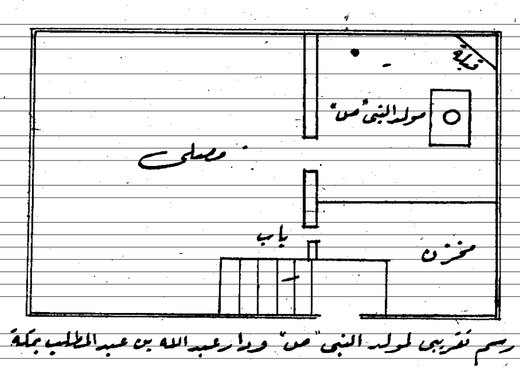
وفى سنة ١٠٠٩ هـ . أمر السلطان محمد خان بعمارة مولد الرسول الكريم ، وبنى فى أعلاه قبة عظيمة ومنارة .

دار خديجة بنت خويلد أو مولد فاطمة رضى الله عنهما :

هذه الدار بزقاق الحجر بمكة ويقال له ايضا : زقاق العطارين على ماذكره الأزرقى وتعرف بمولد فاطمة الزهراء لكونها ولدت فيها هى واخوتها أولاد خديجة من الرسول الكريم . وذكر الأزرقى : أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنى بخديجة فيها وانها توفيت فيها . ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم ساكنا بها حتى هاجر الى المدينة فأخذها عقيل بن ابى طالب ثم اشتراها منه معاوية وهو خليفة فجعلها مسجدا يصلى فيه ، ولكن ذكر فى موضع آخر أن معتبا بن أبى لهب أخذ بيت خديجه فباعه من معاوية بمائة



رسم تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة بمكة



رسم تقريبي لمولد النبي "ص" ودار عبد الله بن عبد المطلب بمكة

الف درهم وهذا يخالف ما ذكره من أن عقيلا أخذ بيتها وباعه من معاوية والله أعلم بالصواب .

وهذه الدار (١) الآن قد ارتفع عنها الطريق فينزل اليها بجملة درجات توصل الى طرقة على يسارها مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو ٣٠ سنتيمترا ومسطحها نحو عشرة أمتار طـولا فى أربعة عرضا ، وفيها مكتب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف ، وعلى يمينها باب صغير يصعد اليه بدرجتين يدخل منه الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين ، وفيها ثلاثة أبواب الذى على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولا فى أقل منها عرضا ، وهذا المكان كان معدا لعبادته صلى الله عليه وسلم ، وفيه كان ينزل الوحى عليه ، وعلى يمين الداخل اليه مكان منخفض عن الأرض يقال : انه كان محل وضوئه صلى الله عليه وسلم ، والباب الذى فى قبالة الداخل الى الطرقة يفتح على مكان أوسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار فى عرض أربعة وهو المكان الذى كان يسكنه الرسول صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضى الله عنها ، أما الباب الذى على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار فى طول نحو سبعة أمتار ونصف ، وفى وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذى ولدت فيه السيدة فاطمة الزهراء . وفى جدار هذه الغرفة الشرقى رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يقولون : انها من رحى السيدة فاطمـــة التى كانت تستعملها فى حياتها ، وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجة والمصطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر مترا ، وعرضه سبعة أمتار ، وأظن أنه المكان الذى كانت السيدة خديجة تخزن فيه تجارتها .

(١) الرحلة الحجازية ص ٥٣ .

وهذه الدار التى كانت مقرا له صلى الله عليه وسلم ومحل اقامته فى مكة ومبعثه الى الناس كافة اذا نعمت بها نظرك وامعنت فيها فكرك لاتراها الا « البساطة » بنفسها ، دار تحتوى على أربع غرف ، ثلاث داخلية منها : واحدة لبناته ، والثانية له ولزوجته ، والثالثة له ولربه والرابعة بمعزل عنها له ولعموم الناس ، يالله ما هذا الترتيب الجميل ، والنظام البديع !

وجاء فى كتاب « شفاء الغرام باخبار البلد الحرام » وصف لدار خديجة عن مشاهدته وهو مخالف للشكل الذى نراها عليه الان قال : غالب هذه الدار الآن على صفة المسجد لان فيها رواقا فيه سبعة عقود على ثمانى اساطين — اعمدة — فى وسط جداره القبلى ثلاثة محاريب وفيه ست وعشرون سلسلة فى صفين وامامه رواق فيه اربعة عقود على خمس اسطوانات ، وبين هذين الرواقين صحن ، والرواق الثانى اصغر من الرواق المقدم لان بقربه بعض المواضع التى يقصدها الناس بالزيارة فى هذه الدار وهى ثلاثة مواضع ، الموضع الذى يقال له : مولد فاطمة رضى الله عنها . والموضع الذى يقال له : قبة الوحى وهو ملاصق لمولد فاطمة ، والموضع الذى يقال له : المختبأ وهو ملاصق لقبة الوحى ، زعموا ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يختبىء فيه من الحجارة التى يرميه بها المشركون والله أعلم بحقيقة ذلك ، وذرع الموضع الذى يقال له : المختبأ اربعة اذرع وثلث ذراع ، وذلك من الجدار الذى فيه المحراب الى الجدار المقابل له وهو طرف جدار قبة الوحى الغربى هذا ذرعه طولا ، وذرعه عرضا ثلاثة اذرع وثلثا ذراع . وذلك من الجدار الذى فيه بابه الى الجدار المقابل له ، وذرع الموضع الذى يقال له : قبة الوحى من الجدار الذى فيه بابه الى الجدار المقابل له ثمانية اذرع وثلثا ذراع هذا ذرعه طولا ، وأما ذرعه عرضا

فثمانية أذرع ونصف بذراع الحديد المقدم ذكره ، والموضع الذى يقال له : مولد فاطمة طوله خمسة أذرع الا ثمن ، وعرضه من وسط جدره ثلاثة أذرع وثلاثة أثمان الذراع ، وفى هذا الموضع موضع يشبه بركة مدورة ، وسعتها طولا من داخل البنـــاء المحوط عليها ذراع وعرضها كذلك ، وفى وسطها حجر أسود يقال : انه مسقط رأسها ، وذرع الرواق المقدم من هـــذه الدار من وسط جدريه على الاستواء ثمانية وثلاثون ذراعا هذا ذرعه طولا ، وذرعه عرضا سبعة أذرع وربع ، وذرع مابين كل اسطوانتين منه خمسة أذرع وربع ، وذرع الرواق المؤخر من هذه الدار من جدر قبة الوحى الى الجدر المقابلة له ثلاثة وعشرون ذراعا ، هذا ذرعه طولا ، وذرعه عرضا عشرة أذرع وكان تحرير ما ذكرنا من ذرع المواضع بذراع الحديد (٥٧ سم تقريبا) كله بحضورى ، وعلى باب هذه الدار مكتوب أنها عمرت فى خلافه الناصر العباسى وفى زمن الملك الأشرف بن شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر ، وفى الرواق المقدم من هذه الدار أن المقتدى العباسى أمر بعمله ، وعمر بعض هذه الدار فى أول دولة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق من المال الذى انفذه أبوه لعمارة المســـجد الحرام وغيره ، ولم يعمر ذلك الا بعد موته فى آخر سنة احدى وثمانمائة أو فى التى بعدها ، ومما عمر فى هذا التاريخ من هـــذه الدار الموضع المعروف بقبة الوحى بعد سقوطه ، وبلغنى أن القبة الساقطة كانت من عمارة الملك المظفر صاحب اليمن ، والى جانب هذه الدار حوش كبير على بابه حجر مكتوب فيه : ان هذا الموضع مربد مولد فاطمة رضى الله عنها ، وان الناصر العباسى عمره ووقفه على مصالح دار خديجة التى الى جانبه .

وهذا الوصف فى العقد الثانى من المائة التاسعة بعد الهجرة .

هذا وتجد مكتوبا بالحروف البارزة على لوح من الرخام وضع فى حائط الطرقة الخارجية على يسار الداخل ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمارة مربد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الامام المفترض للطاعة على الخلق اجمعين الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله انصاره وضاعف اقتداره وجعل منافعه ومستغلاته وأجره عائدا على مصالحه ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوى على ما يرى الناظر المتولى له فى ذلك من الحظ الوافر والمصلحة لهذا المربد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى وطلبا لثواب الدار الاخرة ، تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين ، وذلك على يد العبد الفقير الى رحمة الله تعالى على بن أبى البركات الذورانى الانبارى فى سنة اربع وستمائة ، ومن غير ذلك أو بدله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الى يوم الدين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين » .

وقد عمر الدار السلطان سليمان فى سنة ٩٣٥ هـ . وفى هذه الدار صفيحة من حجارة مبنى عليها فى جدر البيت الذى كان يسكنه الرسول الكريم ، وقد اتخذ أمام الصفيحة مسجدا ، وهذه الصفيحة مرتفعة فى الجدر عن الأرض قدر ما يجلس تحتها الرجل ، وذرعها ذراع وشبر ، ويقولون : ان هذه الصفيحة كان يستتر بها الرسول من الحجارة التى ترمى عليه من دار أبى لهب ودار عدى بن الحمراء ، ولكن هذا لم يسمع من ثقة ، وأصح ما انتهى اليه الخبر ان أهل مكة كانوا يتخذون فى بيوتهم

صفائح من حجارة تكون شبه الرفاف يوضع عليها المتاع والشيء من الصينى والداجن يكون فى البيت ، فقل بيت يخلو من تلك الرفاف فالصفيحة التى فى دار خديجة من هذا القبيل (١) .

دار الارقم :

هــذه الدار فى زقاق على يسار الصاعد الى الصــفا وبابها يفتح الى الشرق ويدخل منه الى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار فى عرض أربعة وعلى يسارها « ايوان » مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار ، وفى وسط الحائط الذى على يمينها باب يدخل منه الى غرفة طولها ثمانية أمتار فى عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير وفى زاويتها الشرقية الجنوبية حجران من الصوان أحدهما فوق الآخر مكتوب فى أعلاهما بالحرف البارز :

(بسم الله الرحمن الرحيم « فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال » هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الاسلام ، أمر بتجديده الفقيرالى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله والله لا يضيع أجر المحسنين) .

ومكتوب فى الثانى :

(بسم الله الرحمن الرحيم : « هذا مختبأ رسول الله المعروف بدار الخيزران أمر بعمله وانشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الاســلام أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصــور الأصفهانى وزير الشام والموصل الطالب الوصول الى الله تعــالى الراجى لرحمته أطال الله فى الطاعة بقاءه وأناله فى الدارين مناه فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة (٢) .

وقد جاء فى كتاب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » : « ان

---

(١) الازرقى : أخبار مكة ص ٤٢٣ .
(٢) الرحلة الحجازية ص ٥٥ .

طول المسجد « الحجرة التى على اليمين » الذى فى هذه الدار ثمانية اذرع تقريبا ، وعرضه سبعة اذرع وثلث وانه مكتوب فيه (فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) هذا مختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الخيزران وفيه مبتدأ الاسلام أمر بتجديده الفقير الى مولاه أمير الملك مفلح سنة ست وذهب بقية التاريخ » فتجد فرقا فى هذه العبارة والعبارة السابقة ، وقال بعد ذلك ، وعمره أيضا الوزير الجواد ، وعمرته مجاورة يقال لها : مرة المعصمة ، وعمر أيضا فى سنة ٨٢١ هـ . والذى أمر بهذه العمارة ما عرفته ، والمتولى لصرف النفقة فيها علاء الدين على بن ناصر محمد بن الصارم المعروف بالقائد .

ودار الارقم بن أبى الارقم المخزومى كان يجتمع فيها المسلمون سرا يتعلمون الدين ويقيمون الشعائر حتى أسلم عمر بن الخطاب وعز به الاسلام وجهر المسلمون بدينهم الحق ، وكان اسلام عمر بدار الأرقم .

غار حراء « جبل النور » :

يقع فى شمالى مكة على يسار الذاهب الى عرفات بعيدا عن جادة الطريق بنحو ميل (١) ، ويقول ياقوت فى معجمه : انه على ثلاثة أميال من مكة وانه جبل شامخ أعلى من ثبير وفى أعلاه قمة شامخة زلوج — وفى ميسرة القمة نفس غار حراء . وفى ذروة الجبل بناء متين تعلوه قبة ، طوله ٦ أمتار فى مثلها عرضا فى ٨ ارتفاعا وفى أرض هذا البناء حجر أملس أسود به شق فى وسطه . ويقال : انه المكان الذى شق فيه صدر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن أخرج « البخارى » فى صحيحه عن مالك بن صعصعة قال : قال النبى

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ ١ ص ٥٧ .

صلى الله عليه وسلم : « بينا انا عند البيت بين النائم واليقظان — وذكر بين الرجلين — فأتيت بطست من ذهب ملىء حكمة وايمانا فشق من النحر الى مراق البطن ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء حكمة وايمانا» — الحديث . وجاء فى كتاب الشفاء : روى يونس عن ابن شهاب عن انس قال : كان ابو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فرج سقف بيتى فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست ... » الخ .. واكثر الأحاديث على أن شق الصدر كان فى صغره صلى الله عليه وسلم وهو عند حليمة السعدية وقد قالت فى ذكر قصة الشق لأمه آمنة بنت وهب : بينما هو واخوته فى بهم لنا خلف بيوتنا ... الخ .. فأين البيت الحرام أو سقف بيت الرسول الكريم أو ماوراء بيوت حليمة من قمة جبل حراء التى زعم الناس أن بها مكان شق صدر الرسول ؟ وقد توارث هذا الظن حتى بلغ من نفس السلطان عبد العزيز أن حركه لبناء قبة على هذا المكان فى سنة ١٢٧٩ . وكتب هذا على حجر فى جدارها الجنوبى محلى بماء الذهب . وفى الجهة الجنوبية من القبة غار حراء الذى كان يتعبد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة .

روى البخارى (١) فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها انها قالت: « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو « بغار حراء » فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق (٢) وهو فى « غار حراء »

(١) صحيح البخارى ج ١ ص ٣ .
(٢) الوحى .

فجاءه الملك فقال : اقرأ : قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعـدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر » — الحديث .

فنرى من هذا مكانة « غار حراء » وانه كان متعبدا للرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وانه به نزلت أول سورة من القرآن المجيد الذي هو نور وهدى للناس وفيه شفاء لمـا في الصدور .

جبل غار ثور :

يقع جبل ثور أسفل مكة ، وقد سمي ثورا لان ثور بن عبد مناة ولد عنده فنسب اليه (1) . والطريق من مكة الى الجبل (2) تحفه الجبال من الجانبين وبه عقبة صغيرة يرتفع اليها الانسان وينحدر منهـا .

وبالطريق سبعة أعلام مبنية بالحجر ومجصصة فوق نشوز من الأرض يبلغ ارتفاع الواحد منها ثلاثة أمتار وقاعدته متر مربع وتنتهي بشكل هرمي ، وهذه الأعلام على يسار القاصد للجبل ، وبين كل اثنين منها بعد يتراوح بين ٢٠٠ متر و ١٠٠٠ متر وكل واحد منها وضع عند تعريجة حتى لا يضل السالك عن الجبل .

(1) راجع معجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكري .
(2) مرآة الحرمين ج ١ ص ٦١ .

والغار صخرة مجوفة فى قمة الجبل اشبه بسفينة صغيرة ظهرها الى اعلى ولها فتحتان فى مقدمها واحدة وفى مؤخرهـا أخرى . والفتحة المغربية صغيرة عرضها ثلاثة اشبار فى شبرين تقريبا وهى الفتحة الأصلية التى دخل منها الرسول الكريم ، أما الفتحة الأخرى فهى فى الشرق ويقال : انها محدثة ليسهل على الناس الدخول الى الغار والخروج منه .

وغار ثور هو الغار الذى اختفى فيه الرسول الكريم يوم أن خرج مهاجرا لله .. قال تعالى فى سورة التوبة : (الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغـار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) .

واخرج البخارى فى باب « ثانى اثنين اذ هما فى الغار » من كتاب التفسير — عن انس قال : حدثنى ابو بكر الصديق رضى الله عنه قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الغار فرايت آثار المشركين قلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

وذكر الحاكم فى مستدركه عن عمر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغـار ومعه ابو بكر فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال له : يا رسول الله اذكر الطلب فأمشى خلفك ثم اذكر الرصد « من يرصدهم وينتظرهم » فأمشى بين يديك . فقال عليه السلام : يا ابا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دونى . قال : نعم والذى بعثك بالحق ، فلما انتهى الى الغار قال أبو بكر:

مكانك يا رسول الله حتى استبرىء لك الغار فدخل فاستبراه حتى اذا كان فى اعلاه ذكر انه لم يستبرىء الحجرة ، فقال : مكانك يا رسول الله حتى استبرىء الحجرة فدخل واستبرأ الحجرة فقال : انزل يا رسول الله ، فنزل فمكثا فى الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب فجاءهما عبد الله بن اريقط بالراحلتين فارتحلا .

فغار ثور هو الغار الذى اختفى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من دعاة الباطل واعداء الحق الذين مكروا به مكرا كبارا : (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) .

وان الرسول اختفى به مع ابى بكر ثلاثا حتى انقطعت عنهما نار الطلب ثم خرجوا منه الى المدينة حيث كانت عزة الاسلام واهله .

وبمكة عدد من المساجد سنتحدث عنها من بعد ...

مسجد الخيف :

هذا المسجد بمنى فى الجهة الجنوبية على يسار القادم من عرفات ويمين المقبل من مكة . وهو مسجد وسيع محكم البناء مستطيل الشكل طول ضلعه البحرية ١٣٠ مترا ، وضلعه الغربية طولها ١٠٠ متر بابه الأكبر فى واجهته البحرية وفوق هذا الباب مئذنة بنيت بالطوب الأحمر ارتفاعها ١٤ مترا ، وعلى يسار الداخل منه مقابر تعلوها قباب اقيمت على عقود ، وفى جهة المسجد الغربية اربعة اروقة ، وكل رواق يمتد من شمال المسجد الى جنوبه ، وعرض الاربعة ٣٧ مترا اى من صحن المسجد الى جداره الغربى ، وفى كل رواق ٢١ عقدا اعنى فى كل جدار يمتد من الشمال الى الجنوب ، والأروقة مسقوفة بقباب ظاهرة من الداخل أما سطح المسجد فمستو ، وعرض الرواق الفضاء ٤ر٥ مترا أما الجدران فضعف

ذلك ، وسمك الجدر التى اقيمت عليها قباب الأروقة ٥٥ر١ ، وفى وسط الرواق اللاصق للجدار الغربى منبر ومحراب عليهما قبـة فخمة ، وفى صحن المسجد قريب من جداره الشرقى قبة عظيمة اقيمت على ثمانية عقود وبها محراب وهى فى موضع خيمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، وقد صلى الرسول الكريم بمكانها الأوقات الخمسة أولها الظهر وآخرها الصبح لأن الرسول الكريم خرج من مكة فى الثامن من ذى الحجة ووصل الى منى ظهرا وبات بها ليلة التاسع ، ولما صلى الصبح رحل الى عرفة ، وبالجهة الشرقية من القبة مئذنة مبنية بالطوب الأحمر ارتفاعها ٦٠ر١٤ مترا ولها باب صغير خارج القبة يصعد منه اليها ودرجها ثلاث وسبعون ، وارتفاع الدرجة ٢٠ سم . والمسجد مكشوف ما عدا جهتيه الشمالية والغربية وجدره لها دعامات من الداخل والخارج وارتفاعه ٥ امتـار وعلى الجدر من الاعلى شرفات . وبالجهـة الشرقية من المئذنة الشرقية على علو اربعة أمتار مكتوب « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم جدد الملك المعظم ملك الملوك الملك المنصور عمر بن على بن رسول صاحب اليمن مسجد الخيف سنة ٦٧٤ هـ » وعلى بابه الشمالى مكتوب : « عمر مسجد الخيف السلطان الأشرف أو الناصر قايتباى سنة ٨٩٤ هـ » .

وقد عمر هذا المسجد فى زمن الخليفة المعتمد احمد بن المتوكل العباسى سنة ٢٥٦ هـ . وجدده الوزير محمد بن على المعروف بالجواد الأصفهانى سنة ٥٥٩ هـ . وكذلك أم الخليفة العباسى الناصر لدين الله واقام فيه عمارة الملك المظفر صاحب اليمن وهو الذى أقام المئذنة التى بجوار القبة .

وفى سنة ٧٢٠ هـ . أنفق عليه أحمد بن عمر المعروف بابن المرجانى

التاجر الدمشقى مايزيد على ٢٠٫٠٠٠ درهم . وفى سنة ٨٢٠ هـ عمر بمعرفة الشيخ على البغدادى ولم يعرف من قام بنفقة هذه العمارة . وفى سنة ٨٧٤ هـ . امر الملك الاشرف قايتباى ببناء هذا المسجد بناء محكما واقيمت القبة القائمة الآن على مصلى الرسول الكريم وبنى الى جانب القبة مئذنة ذات أدوار ثلاثة وكذلك اقام المئذنة التى على باب المسجد الشمالى وجعل بجانب هذا الباب دارا يسكنها أمراء الحج وجعل للمسجد بابا فى جهته الشرقية وخوخة صغيرة الى الجبل الجنوبى الذى فيه غار المرسلات وفى سنة ١٠٧٢ هـ . عمره السلطان محمد قزلار اغا وكان القائم بالعمارة والى جدة وشيخ الحرم سليمان . قال البخارى وهذه العمارة وغيرها من العمارات التى قام بها مكتوبة فى حجر بجدار المقام الحنفى . وفى سنة ١٠٩٢ هـ عمره سليمان أغا مرسلا من قبل السلطان محمد خان (١) .

مسجد الكوثر :

فى وسط منى على يمين القاصد الى عرفات مسجد صغير يبعد عن الطريق نحو ٤٠ مترا يسمى مسجد الكوثر ويقال ان سورة الكوثر نزلت فى مكانه على الرسول صلى الله عليه وسلم . وبالمسجد حجر نقشت فيه كتابة بالخط المغربى وبجواره بئر صالحة للشرب ويزوره اكثر الحجاج بقصد التبرك .

مسجد الكبش :

هذا المسجد بمنى على يسار الذاهب الى عرفات وهو فى شمال جمرة العقبة على نحو ٣٠٠ متر منها فى سفح جبل ثبير ، والكبش الذى اضيف اليه هو الذى فدى الله به نبيه اسماعيل

(١) مرآة الحرمين ج ١ ص ٣٢٥ .

لما شرع أبوه ابراهيم عليه السلام فى ذبحه وبجوار هذا المسجد الصخرة التى ذبح عليها الفداء . وذكر الفاكهى عن على بن أبى طالب ما يقتضى أن الذبح حدث فى غير هذا المكان وانه بين الجمرتين الأولى والوسطى فى سفح الجبل المقابل لثبير ويؤيده ما رواه المحب الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منحر ابراهيم الذى نحر فيه الكبش فاتخذوه منحرا وكل منى منحر ، ومنحر الرسول بين الجمرتين . وهذا المسجد وهذه الصخرة يتزاحم الحجاج على زيارتها تزاحما شديدا . والصخرة فى جوف الجبل فيها فلح كبير يزعمون أن السكين التى أراد أن يذبح بها ابراهيم ولده فاتت من يده رحمة بالذبيح فغاصت فى هذا الصخر ففلحته ، وبجوار الصخرة مغارة يزعمون أن ابراهيم عليه السلام سكن فيها مع هاجر ويبلغ طولها ٤ أمتار وعرضها مترين ونصفا وعلى يمين الداخل فيها كهف ثغر فى جوف الجبل .

غار المرسلات :

هذا الغار بسفح جبل جنوبى مسجد الخيف يقال له جبل الصفائح ، وهو غار صغير يبعد عن الطريق بنحو ٣٠٠ متر ، به موضع مستدير يقال انه محل راس الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان يستظل بالجبل وفيه نزلت عليه سورة المرسلات كما يقولون ، وزحام الحاج على هذا الغار بالغ أشده .

مسجد البيعة :

هذا المسجد بقرب العقبة التى هى حد منى من جهة مكة وهو وراء العقبة بيسير الى مكة فى شعب على يسار الذاهب الى منى وسمى بذلك لأن عنده حصلت البيعة التى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها الأنصار بحضرة عمه العباس بن عبد المطلب .

وقد ذكر التقى الفاسى فى شفاء الغرام أن طوله ٣٨ وسدس ذراعا بذراع الحديد ، وأن به رواقين كل منهما مسقوف بثلاث قبب على اربعة عقود ، وأن له بابين فى الجهة الشمالية والجهة الجنوبية وذكر انه متخرب وأن فيه حجرين مكتوب فى احدهما « أمر عبد الله امير المؤمنين اكرمه الله ببنيان هذا المسجد مسجد البيعة التى كانت أول بيعة بايع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عقده عقده له (؟) العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه، وفى الآخر تعريفه بمسجد البيعة وانه بنى فى سنة ٢٤٤ هـ . وأمير المؤمنين المشار اليه هو أبو جعفر المنصور العباسى » وعمره أيضا المستنصر العباسى قال : ووجدت ذلك فى حجر ملقى حول هذا المسجد لتخربه وفيه إن ذلك سنة ٦٢٩ هـ .

مسجد منى :

ويقال له مسجد المنحر ذكره الفاسى وقال : انه عند الدار المعروفة بدار المنحر بين الجمرة الأولى والوسطى على يمين الصاعد الى عرفة وفيه حجر مكتوب فيه (هذا مسجد سيد الأولين والآخرين صلى فيه الضحى ونحر هديه وفيه : ان الملك قطب الدين ابا بكر بن الملك المنصور عمر بن على بن رسول صاحب اليمن امر بتجديد عمارته بعد زيارته فى سنة ٦٤٥ هـ . وطول هذا المسجد من محرابه الى مؤخره ثمانية أذرع وعرضه سبعة أذرع بذراع الحديد (ذراع الحديد ٥٧ سم تقريبا) .

مسجد نمرة :

ويسمى مسجد عرفة وجامع ابراهيم ومصلى عرفة وهو جامع كبير طوله ٩٠ مترا وعرضه ٨٠ مترا . والحجاج يجمعون فى هذا المسجد بين صلاتى الظهر والعصر جمع تقديم يوم عرفة ، وقد جمع بينهما الرسول الكريم فى بطن عرفة فى حجة الوداع ، وهذا

المسجد يرجع انشاؤه الى العقد الخامس بعد المائة ، وقد عمر فى عصور مختلفة فمن ذلك عمارة للسلطان جقمق فى سنة ٨٤٣ هـ ، على يد الأمير سيدون وعمارة للسلطان قايتباى سنة ٨٧٤ هـ . وعمر فى سنة ١٠٧٢ هـ . فى زمن السلطان محمد على على يد سليمان والى جدة .

مسجد الصخرات :

هذا المسجد أسفل جبل الرحمة وهو مسجد صغير قيل ان الرسول صلى الله عليه وسلم صلى فى مكانه . وسمى بذلك لأن بأرضه صخورا كبيرة بعضها الى جانب بعض .

الفصـــل العـــاشر

الحج

الحج سنة قديمة فى الأمم ، والغرض منه أمر دينى محض ، وان كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دنيوية تزيد فى رقى الأمة ادبيا وماديا .

وقد كان المصريون قبل أربعين قرنا يحجون الى هيكل معبودهم ايزيس بمدينة سايس «صا» ، وفتاح فى منفيس ، وآمون فى طيبة .

واليونان كانوا يحجون قبل المسيح بخمسين قرنا الى هيكل ديانا فى افسوس ، ثم انتقلوا فى مبدأ القرن الثانى قبل المسيح الى حج معبد مينارفا فى أثينا ، وجوبيتر فى أولمبيا .

واليابان يحجون من عهد بعيد الى هيكل عظيم مشهور فى ولاية اسجى ، وتجب زيارته على كل فرد منهم فى عمره ولو مرة واحدة : فيتوجهون اليه بلباس أبيض على شكل مخصوص ، وسوادهم يقصدونه عراة ليس عليهم الا مايستر عورتهم ، ويقطعون اليه كل المسافة ركضا .

والصينيون يحجون الى هيكل المعبود تيان من زمن بعيد جدا . والهنود يحجون الى هيكل جاغرنات ، وكذلك يحجون الى هيكل بوذا بجزيرة منا قرب سيلان ، وهم يكثرون من الطواف حول هياكلهم ، ولهم بحيرات مقدسة يتبركون بمياهها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين .

واليهود كانوا يحجون فى القرن الرابع عشر قبل المسيح الى المكان الذى به تابوت العهد ، وكانوا يحجون اليه ثلاث مرات فى السنة ، وكان ذلك أكبر سبب لعمران القدس « أورشليم » حتى أحرقها الامبراطورتيطوس الرومانى وأجلى اليهود عنها سنة ٧٠ م ، ولما فتح العرب القدس سنة ٦٣٦ م وقع عمر بن الخطاب رضى الله عنه صكا كطلب البطريرك « صوفر وينوس » بألا يسمح لأحد من اليهود بالسكنى معهم فى القدس وان كان قد سمح لهم بزيارتها .

والنصارى يحجون الى القدس من سنة ٣٠٦ م أى منذ سارت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الى القدس وشيدت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة باسم كنيسة القيامة وكانوا يخرجون اليه من غرب أوربا باحتفال عظيم ، وكان رئيس الجهة الدينى يزود كلا منهم بعصا ورداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقته ، وكان لهم على طول طريقهم أديرة يأوون اليها مدة سفرهم ، وكان اذا وصل الحاج الى بيت المقدس يتطهر فى نهر الأردن الذى يبعد بنحو عشرين كيلو مترا شرقى القدس ويلتحف برداء يحمله معه ليكون له كفنا عند موته ، فلما استولى السلجوقيون على بيت المقدس قل الحجاج الأوربيون الى القدس وحولوا وجوههم الى كنيسة القديس بطرس وبولس فى روما ، وفى ترنيف بألمانيا ، يزعمون أن بالأخيرة قميص المسيح الذى كان يلبسه . وهم يحجون أيضا الى كنيسة لورده فى جنوب فرنسا بعد أن شاع فى أوربا أن السيدة مريم العذراء ظهرت لاثنين من رعاة هذه المدينة . والزائرون لهذه الكنيسة يشربون من ماء ينبع قريبا منها يسمى باسمها ويعتقدون بأن فيه شفاء للامراض .

وكانت العرب فى جاهليتها تحج الى البيت الحرام وكانوا على دينين حلة وحمس ، فالحمس (١) قريش ومن والاها من كنانة وخزاعة والأوس والخزرج وقضاعة وجديلة وغطفان وغيرهم من

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٢١٦ .

قبائل العرب سموا بذلك لتحمسهم فى دينهم ، والحماسة : الشجاعة ، والأحمس : الشديد الصلب أو لأنهم احتموا بالحمساء وهى الكعبة . وكانت قريش اذا زوجت عربيا من بناتهم شرطوا عليه أن كل من ولدت منه فهو احمس على دينهم يرون أن ذلك احفظ لشرفهم وابسط لسلطانهم ، وكانت لهم فى العرب ميزة لم تكن لغيرهم ومنشأ ذلك فضل فيهم وكمال فى أخلاقهم ، فقد كانوا حلفاء متآلفين وبكثير من شريعة ابراهيم متمسكين ، وكانوا يختنون أولادهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفنون موتاهم وكانوا يتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثا ، ولذلك قال عبد الله ابن عباس وقد سأله رجل عن طلاق العرب فقال : كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ثم هو أحق بها فان طلقها اثنتين فهو أحق بها أيضا فان طلقها ثلاثا فلا سبيل له اليها .

وكان من عادة الحمس اذا احرموا أن لا يأتقطوا الأقط (١) ولا يأكلوا السمن ولا يسلوه — لا يطبخوه ولا يعالجوه — ولا يمخضوا اللبن ولا يأكلوا الزبد ولا يلبسوا الوبر ولا الشعر ولا يغزلوه أو ينسجوه أو يستظلوا به ما داموا حرما . وما كانوا كذلك يأكلون شيئا من نبات الحرم ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون ، وكانوا يطوفون بالبيت عليهم لباسهم ، وكانوا اذا أحرم الرجل منهم فى الجاهلية وأول الاسلام فان كان من أهل البيوت نقب نقبا فى ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج . وما زالوا كذلك حتى أمرهم القرآن الكريم أن يأتوا البيوت من أبوابها . وقال الحمس لأنفسهم : لا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم فانكم ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم ، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على

---

(١) طعام يتخذ من المخيض الغنمى . والاقط مثلثه ويحرك ككتف ورجل وابل .

عرفة والافاضة منها وجعلوا موقفهم بطرف الحرم من جهة نمرة يظلون به عشية عرفة ويفيضون منه الى المزدلفة ، فاذا عمت الشمس رءوس الجبال وقفوا وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحمس ، فعلوا ذلك واقروا سائر العرب على الوقوف بعرفة والافاضة منها وتلك شريعة ابراهيم يعرفونها حق المعرفة ولكن ترفعهم ومغالاتهم تنكبت بهم عن سبيلها ، فشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، ومنشأ ذلك الغلو أن الله تعالى لما أهلك ابرهة الحبشى صاحب الفيل وسلط عليه الطير الأبابيل عظمت جميع العرب قريشا وأهل مكة ، فقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم فازدادوا فى تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر الحرام ووقروها، ورأوا أن دينهم خير الأديان وأحبها الى الله تعالى ، وقالت قريش وأهل مكة : نحن أهل الله وبنو ابراهيم خليل الله وولاة البيت الحرام وسكان حرمه وقطانه فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب لأحد مثل ما تعرف لنا ، فابتدعوا عند ذلك أحداثا فى دينهم أداروها بينهم فكان منها ما تقدم . ومنها أنهم ما كانوا يجيزون لأحد من الحلة — من ليسوا بحمس — أن يطوف بالبيت أول طوافه الا اذا لبس ثوبا أحمسيا يشتريه أو يستأجره أو يستعيره فاذا أتى الواحد منهم باب المسجد ، رجلا كان أو امرأة قال : من يعير مصونا من يعير ثوبا فان وفق لثوب أحمس لبسه وطاف به وان لم يوفق ألقى ثيابه بباب المسجد من الخارج ثم دخل للطواف عريانا فيبدأ بأساف — صنم — ليستلمه ثم يستلم الركن الأسود ثم يأخذ عن يمينه ويطوف جاعلا الكعبة عن يمينه فاذا ختم طوافه سبعا استلم الركن ثم استلم نائلة — صنم — فيتم بها طوافه ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها ويلبسها ولا يعود بعد ذلك الى الطواف عريانا وكان بعض النساء يلبسن درعا مفرج

المقاديم والمآخير ومنهن من تتخذ سيورا تعلقها فى حقوتها(١) وتستتر بها وتقول :

اليـوم يبدو بعضـه أو كله   فما بدا منـه فـلا أحلـه

وكانت العادة أن يطوف المراة من الرجال نهارا ومن النساء ليلا وكان من له فضل ثياب من الحلة ولم يجد ثوبا أحمسيا يطوف فيـه طاف فى ثيابه التى قدم بها من الحل ، فاذا ما أتم طوافه نزعها فجعلها لقا يطرح بين أسـلف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والمطر .

وكان من خبر الطواف عريا انه جاءت امراة يوما وكانت ذات هيبة وجمال فطلبت ثيابا فلم تجد وتحتم عليها الطواف عريانة فنزعت ثيابها بباب المسجد ثم دخلت عريانة وقد وضعت يديهـا على فرجها وجعلت تقول :

اليوم يبـدو بعضـه أو كلـه   وما بـدا منـه فـلا أحلـه

أخثم (٢) مثل القعب(٣) باد ظله   كـأن حمى خيـبر تمـله (٤)

فجعل فتيان مكة ينظرون اليها وتزوجت فى قريش ، وجاءت امراة أخرى تطوف عريانة وكان عليها مسحة من الجمال فرآها رجل فأعجبته فدخل الطواف وطاف فى جنبها لأن يمسها فأدنى عضده من عضدها فالتزقا فخرجا من المسجد من ناحية بنى سهم عاريين على وجوههما فزعين لما أصابهما من عقوبة ، فلقيهما شيخ من قريش خارجا من المسجد فسألهما عن شأنهما فأخبراه بقضيتهما فأفتاهما ان يعودا الى المكان الذى أصابهما فيه ماأصابهما ويدعوا

---

(١) الحقوة : معقد الازار .
(٢) عريض .
(٣) القدح الضخم .
(٤) تفرقه ، والملال والملة : عرق الحمى .

الله سبحانه مخلصين عازمين على ترك العود فرجعا ودعوا واخلصا فافترقت أعضاؤهما وذهب كل الى ناحية .

عادة سيئة وبدعة شنيعة ابى الاسلام الا هدمها والقضاء عليها ، فبعث الرسول الكريم فى سنة تسع على بن أبى طالب الى ابى بكر امير الحج ليؤذن فى الناس بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع مسلم ومشرك فى الحرم بعد عامهم هذا ، ومن كان له عند الرسول صلى الله عليه وسلم عهد فعهده الى مدته ومن لم يكن له عهد فعهده اربعة أشهر ، وذلك ما جاء فى الآيات من سورة الاعراف وسورة التوبة ففى الأولى : (يابنى آدم خذوا زينتكم — ثيابكم — عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) . وفى الثانية : (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الارض اربعة أشهر واعلموا انكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . — الى أن يقول — الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين) وفيها (ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم) وقال فى سورة المائدة (انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) .

وكان من عادة أهل الجاهلية أن يدخلوا الكعبة لابسى أحذيتهم حتى سن لهم الوليد بن المغيرة خلع الخف والنعل اذا ما دخلوا فاستن العرب بسنته اعظاما للكعبة واجلالا .

وكان من عاداتهم ايضا اذا اقترب موسم الحج أن يخرج مريدوه الذين يرجون اليه تجارة من ديارهم الى عكاظ فيوافوه مستهل ذى القعدة ويقيموا فيه عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم وتنفق سلعهم وتنحاز كل قبيلة الى منزل أعدوه للقرى فاقاموا عليه الرايات واستدعوا اليه الأضياف يستقبلهم القادة منهم والأشراف فينزلونهم أهلا وسهلا ومرعى خصبا ، وتختلط القبائل بعضها ببعض فى بطن السوق متناشدين ومتباعدين ، فاذا مضت العشرون انصرفوا الى مجنة فاقاموا بها عشرا أسواقهم فيها قائمة ، فاذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا الى ذى المجاز فاقاموا به ثمانى ليال يروجون فيها البضاعة ثم يخرجون من ذى المجاز الى عرفة يوم التروية ، وسموه بذلك لانه ينادى بعضهم بعضا بذى المجاز أن ترووا من الماء لأنه لاماء بعرفة ولا بالمزدلفة ولا بمنى ، وكان يحضر هذه المواسم من يبتغى من الحج التجارة ، أما من أراده فحسب فيخرج متى شاء . وكان أهل مكة يخرجون يوم التروية بعد أن يترووا من الماء فتنزل الحمس فى طرف الحرم من نمرة يوم عرفة ، والحلة تقف بعرفة وكذلك كان يفعل الرسول قبل الهجرة ، وكانوا لايتبايعون يوم عرفة ولا أيام منى ، فلما أن جاءت الحنيفية أحلت ذلك قال تعالى : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » وكانت الحلة تفيض من عرفة يوم عرفة اذا طفلت الشمس للغروب والحمس يفيضون من نمرة فى الوقت نفسه فيلتقون جميعا فى المزدلفة ويبيتون بها حتى اذا طلع الفجر واختلط بياض النهار بظلام الليل وقف الجميع على قزح حتى تطلع الشمس على رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال ، فيدفعون من المزدلفة الى منى وكانوا يقولون أشرق ثبير كيما نغير وفى افاضة الحمس نزل قوله تعالى : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور

رحيم » . فجعلت الافاضة للجميع من عرفة وخطب بذلك الرسول فى حجة الوداع يوم عرفة فكان مما قال : (وانا لا ندفع من عرفة حتى تغرب الشمس ويحل فطر الصائم وندفع من مزدلفة غدا ان شاء الله قبل طلوع الشمس ، هدينا مخالف لهدى أهل الشرك والأوثان) .

وكانوا يعظمون الحرم والأشهر الحرم فلا يعدو بعضهم على بعض فيها ، ويتلاقى الناس فى منطقة الحرم وفى خارجها فلا يكون بينهم شر ولا قتال بل لقد وصل تأثمهم لدرجة تحريم الصيد أثناءها لما فى ذلك من سفك الدماء .

والأشهر الحرم ليست معينة فى القرآن باسمائها ، وكل ما ذكرته الآيات أنها أربعة اشهر (١) . غير أن الروايات المتواترة التى لم تنقطع قد عينتها بصورة يقينة وهى : رجب ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم (٢) . والأشهر الثلاثة الأخيرة هى اشهر الحج — على الأقل فيما قبل الاسلام — أما شهر رجب فانه كان يسمى رجب مضر ، وهو الذى تسميه مضر « الأصم » (٣) وانه مشتق من الترحيب أى التعظيم ، وقد جاء فى الطبقات الكبرى ان أهل مكة كانوا يحتفلون بعيد دينى لهم فى رجب ، فلا يبعد ان يكون هذا العيد فى شهر رجب عيدا خاصا بقبائل مضر أو قبائل الحجاز أو بعضها وان يكون هذا أصل حرمته ليتمكنوا من الذهاب والاياب والقيام بمناسكهم فى ظل هدنة دينية مقدسة . ولكن مالبث رجب فى وقت لايمكن تحديده — أن صار جزءا لا يتجزأ من

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ ، التوبة ٥ ، ٣٦ .
(٢) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٩٩ ، الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٧ .
(٣) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٢٩ .

الاشهر الحرم (١) ، وقد ذكرتها الآيات دون تفريق بينها فى الحرمة والشمول .

وقد سن عمرو بن لحى شرائع خرقاء ، وغير دين الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام ، فهو الذى جاء بهبل من أرض الشام فجعله فى الكعبة ، وهو الذى غير تلبية ابراهيم ، فبينما هو يسير على راحلته فى بعض مواسم الحج وهو يلبى اذ تمثل له ابليس فى صورة شيخ نجدى على بعير فسايره ساعة ثم لبى ابليس فقال : لبيك اللهم لبيك ، فقال عمرو بن لحى مثل ذلك، فقال ابليس : لبيك لا شريك لك فقال عمرو مثله ، فقال ابليس : الا شريك هو لك ، فاستنكر ذلك عمرو ، فقال ابليس : بعده مايصلحه : الا شريك هولك تملكه وما ملك ، فقال عمرو: مارى بهذا بأسا فمازالت كذلك حتى ردها الاسلام الى ماكانت عليه فى شريعة ابراهيم : « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك . ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

وكانت الافاضة فى الجاهلية الى صوفة أخزم بن العاص ،وكان له ولد تصدق به على الكعبة يخدمها فجعل اليه حبشية بن سلول الخزاعى الافاضة بالناس من أجل نذره الذى نذر ، وكان الى حبشية حجابة الكعبة وامرة مكة فحينما يقف الناس فى الموقف يقول حبشية : أجز ياصوفة فيقول صوفة : أجيزوا أيها الناس فيجوزون ، وولى الافاضة بعده ولده أخزم الذى نذره للكعبة وقام بخدمتها مع أخواله من جرهم وأعقب أخزم على الافاضة ولده من بعده فى زمن جرهم وخزاعة حتى انقرضوا ، ثم صارت الافاضة فى عدوان بن عمرو بن قيس بن غيلان بن مضر فى زمن

---

(١) محمد عزة دروزة : عصر النبى ص ٢١٠ .

قريش فى عهد قصى ، وكانت من بنى عدوان فى آل زيد بن عدوان يتوارثونها حتى جاء الاسلام وكان عليها أبو سيارة العدوانى الذى افاض بالمشركين فى سنة ثمان ، وافاض أمير مكة عتاب بن اسيد بالمسلمين .

وكان حضنة البيت يكرمون الحجاج فى الجاهلية ، فروى عن هاشم بن عبد مناف أنه كان يقول لقريش اذا حضر الحاج : « يا معشر قريش ، انكم جيران الله وأهل بيته خصكم الله بذلك وأكرمكم به ثم حفظ منكم أفضل ماحفظ جار من جاره فأكرموا اضيافه وزوار بيته شعثا غبرا من كل بلد » .

وروى مثل هذا عن قصى بن كلاب بن مرة فكان كل قرشى يخرج خرجا من ماله فى كل موسم من مواسم الحج يعطيه لمن يقوم بالرفادة — اطعام الحاج — من قريش فيصنعه طعاما للحجاج أيام الموسم بمكة ومنى ، وبقى ذلك مدة فى عهد الاسلام .

انساء الشهور :

انساء الشهور تأخيرها عن أماكنها الفطرية ، والنسىء مصدر من قول القائل : نسأت فى أيامك ونسأ الله فى أجلك اى زاد الله فى أيام عمرك مدة حياتك حتى تبقى فيها حيا ، وكل زيادة حدثت فى شىء فالشىء الحادث فيه الزيادة بسبب ما حدث فيه نسىء ، ولذلك قيل للبن اذا كثر بالماء نسىء .

كان أهل الجاهلية اذا مارغبوا فى القتال فى شهر المحرم أخروه الى صفر وأحلوا القتال فى المحرم . وسموا صفر المحرم وربيع الأول صفر وهكذا حتى يكون ذو الحجة فى نهاية السنة الشهر المحرم ، وكانوا يفعلون هذا سنة ويتركونه سنة ، فكان ذو الحجة يعود الى مكانه الأول بعد أربع وعشرين سنة ، وأول من انسأ الشهور من مضر مالك بعد كنانه ثم ابنه ثعلبة ثم أخوه

الحرث بن مالك المعروف بالقلمس ثم سرير بن الحارث ، ثم كانت النساءة فى بنى نقيم من بنى ثعلبة حتى جاء الاسلام ، وكان آخر من نسأ منهم ابو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن عبد بن نقيم وهو الذى جاء فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى الركن الأسود فلما رأى الناس يزدحمون عليه قال : أيها الناس ، أنا له جار فأخروا عنه ، فخفقه عمر بالدرة ثم قال : أيها الجلف الجافى قد اذهب الله عزك بالاسلام ، وكان الذى اليه أمر النساءة يقوم بفناء الكعبة يوم الصدر والناس حوله متجمعون فيقول : اذا أراد ان لا يحلوا المحـــرم ، أيها الناس ! لا تحلوا حرماتكم وعظمـــوا شعائركم فانى اجاب ولا اعاب ولا يعاب لقول قلته فهنالك يحرمون المحرم ذلك العام ، واذا ما كانت السنة التى يريدون الانســـاء فيها يقول : أيها الناس قد انسأت العام صفر الأول يعنى المحرم — وكانوا يسمونه صفر الأول وصفر الثانى — فيطرحونه من الشهور ولا يعتدون به ويبتدئون العدة فيقولون لصفر وشهر ربيع الأول : صفرين ، ويقولون لشهر ربيع الآخر ولجمادى الأولى: شهرى ربيع ، ويقولون لجمادى الآخرة ولرجب : جماديين ، ويقولون لشعبان ، رجب ، ولرمضان : شعبان ، ولشوال : رمضـــان ، ولذى القعدة : شوال ، ولذى الحجة : ذو القعدة ، ولصفر الأول وهو المحرم الذى انسأه : ذا الحجة ، فيحجون تلك السنة فى المحرم ويبطل من هذه السنة شهرا ينسأه ، وكانوا ينسئون عاما ويتركون آخر ، فكان يقع فى كل شهر من شهور السنة حجتان فى عامين، وكانوا يحلون فى الأشهر الحرم دماء المحلين طيىء وخثعم لأنهم كانوا يعدون على الناس فيها من بين العرب فيغزونهم ويطلبون بثأرهم ولا يتقون عن حرماتها كما كان يفعل سائر العرب من الحلة والحمس فانهم ماكانوا يعتدون فى شهر حرام ولو لقى

أحدهم قاتل أبيه أو أخيه ولا يستاقون مالاً اعظاما لحرمة هذه الشهور .

بقى الأمر على هذا المنوال حتى كانت سنة ثمان من الهجرة فجاء الحج فى ذى القعدة وحج المسلمون والمشركون فى هذا العام فدفعا معا فكان المسلمون فى ناحية يدفع بهم عتاب بن أسيد ويقف بهم المواقف لأنه أمير مكة من قبل الرسول ، وكان المشركون ممن لهم عهد ومن ليس لهم عهد فى ناحية أخرى يدفع بهم أبو سيارة العدوانى .

فلما كانت سنة تسع وقع الحج فى ذى الحجة فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق الى مكة أميرا على الحج بعد أن أعلمه المناسك وامره بالوقوف على عرفة وعلى جمع — المزدلفة — ثم نزلت سورة براءة بعد سفر أبى بكر الى مكة بالحجيج فبعث بها الرسول مع على بن أبى طالب وامره اذا خطب أبو بكر وفرغ من خطبته قام فقرأ على الناس سورة براءة . ونبذ الى المشركين عهدهم — حسب ماقدمنا — وقال : لا يجتمعن مسلم ومشرك على هذا الموقف بعد عامهم هذا ، وكان أبو بكر الصديق يخطب الناس ويصلى بهم ويقف المواقف ويدفع منها الحجيج ، ومما تضمنته سورة التوبة ابطال النسىء قال الله تعالى فيه : (ان عدة الشهور عند الله اثنآ عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين ، انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) .

وقد فرض الحج على المسلمين فى السنة التاسعة من هجرة

الرسول الكريم . وأركان الحج أربعة : (١) الاحرام ، والوقوف بعرفة ، وطوائف الافاضة ، والسعى بين الصفا والمروة .

وعلى هذه الأركان تتوقف صحة الحج فمن ترك ركنا منهـــا لا يصح حجه .

للاحرام ميقات زمانى ، وميقات مكانى .

فميقاته الزمانى : يبدأ من أول يوم من شوال الى طلوع فجر يوم النحر ، فلو أحرم قبل هذا الوقت أعنى قبل شوال أو بعده أعنى بعد طلوع فجر يوم النحر فلا يصح حجا ، ولكن يصح عمرة .

وميقاته المكانى : يختلف باختلاف الجهات . فأهل مصر والشام والمغرب وبلاد الأندلس ميقاتهم الجحفة « رابغ » .

وميقات أهل المدينة ذو الحليفة « أبيار على » .

وميقات أهل العراق « ذات عرق » موضع فى الشمال الشرقى من مكة .

وميقات أهل الكويت وأهل نجد « قرن المنازل » وهو قريب من المكان المسمى الآن « بالسيل » . وميقات أهل اليمن والهند «يلملم» جبل جنوبى مكة .

وهذه المواقيت حددها الرسول صلي الله عليه وسلم لأصحاب البلاد التى ذكرناها ولمن مر عليها من غيرهم ممن أراد الحج أو العمرة ، ويحرم على المسلم الذى يريد الحج أن يتجاوزها بدون احرام سواء كان حجه برا أو بحرا أو جوا ، لقوله صلى الله عليه وسلم — لما وقت هذه المواقيت : « هن لهن ولمن أتى عليهن من

---

(١) للحج ركنان فقط عند الاحناف هما : الوقوف بعرفة وأكثر طواف الافاضة . وقال الشافعى أن أركان الحج ستة وهى الاربعة المذكورة وازالة ثلاث شعرات على الاقل كلا أو بعضا من الرأس وترتيب معظم الاركان بأن يقدم الاحرام على الجميع والوقوف على طواف الافاضة والحلق . والطواف على السعى ، ان لم يكن سعى بعد طواف القدوم .

غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة » . وإذا وصل الحاج الى مكة قصد البيت الحرام ، وحيا الله فيه بالطواف حوله سبعة أشواط . وهذا الطواف يعرف باسم طواف « التحية والقدوم» ويبدؤه الحاج من ركن الحجر الأسود .

واذا انتهى الحاج من طواف القدوم خرج الى الصفا وسعى بينه وبين المروة سبعة أشواط ، يبدأ بالصفا وينتهى بالمروة . والسعى بينهما مظهر من مظاهر الالتجاء والتردد بجانب بيت الله — بعد الطواف به — طلبا للمغفرة ، والتماسا للعفو . وفيه بعد ذلك ، استحضار لذكر الحالة التى كانت عليها هاجر أم اسماعيل وهى تطلب الماء والسقيا لها ولولدها ، فعرفت منبعه وقضت به حاجتها ، ثم كان سببا فى عمارة هذا الاقليم وامتلائه خيرا وبركة .

والوقوف بعرفة أهم مناسك الحج ، حتى ورد عن الرسول «الحج عرفة» فهو موقف الضراعة الصادقة ، موقف التجرد من الحول والقوة ، موقف البعد عن المظاهر المادية ، وفيه تشرق عليهم ذكرى الماضى بأنوارها الباهرة ، فيستمعون بآذان القلوب الى صوت الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، يخطب آباءهم فى أصلابهم ، يجعل لهم رسالته ، ويحثهم على صدق الايمان ، وكمال المعرفة بحقوق الله وحقوق العباد ، وفيه تتم رسالة السماء الأخيرة، وينزل عليه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (١) وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى ، لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » .

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

واذا اتم الحاج الوقوف بعرفة ، اتجه الى المزدلفة ، وهى المذكورة فى القرآن باسم « المشعر الحرام » ويصبح فى منى فى اليوم العاشر « يوم النحر » وفيه يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، يأخذها من اى مكان شاء ، ويحلق أو يقصر ، ويذبح ان كان عليه ذبح ، ويطوف طواف الافاضة ، والحاج مخير فى تقديم ايها شاء ، وقد ثبت أن الرسول الكريم لم يسأل عن تقديم شيء منها أو تأخيره ، الا كان جوابه « افعلوا ولا حرج » .

وله أن يؤخر طواف الافاضة الى ما بعد أيام النحر التى ترمى فيها الجمار الثلاث .

ورمى الجمار رمز عملى ، يعلن به الحاج تصميمه على ترك نوازع النفس الشريرة ، وتكريره تأكيد لهذا التصميم . يقول الإمام الغزالى : « وأما رمى الجمار فيقصد به الرامى الانقياد للامر ، اظهارا للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للنفس والعقل فى ذلك ، ثم يقصد به التشبه بابراهيم عليه السلام .... الى أن قال : فان خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لى . فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان .. ثم يقول : واعلم انك فى الظاهر ترمى الحصى .. وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم ظهره » .

واذا اكمل الحاج أعماله ، وطاف طواف الافاضة ، وأراد الرجوع الى بلده ، قصد البيت الحرام ، وطاف به طواف الوداع ، وهو بمثابة استئذان فى الانصراف وتجديد عهد الولاء ، والاقامة على تلبية الله فى شرعه ودينه ، وبه يكمل الحج .

الهدى من شعائر الله :

الهدى : اسم للحيوان الذى يهدى باسم الله الى الحرم ، يذبح فيه ، ويطعم منه الفقير والمسكين : « فاذا وجبت جنوبها فكلوا

منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (١) »

وقد أرشد القرآن الى الروح الذى يتقبل الله به الهدى ، وهو روح الاخلاص وتقوى الله ، شأن كل التكاليف لاتكفى صورتها : «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم » .

وقد عرض القرآن الهدى فى ثلاث سور : سـورة البقرة ، والمائدة ، والحج .

عرض له فى تلك السور من جهات ثلاث :

أولا : جهة التنويه بشأنه : طلبه وطلب الاخلاص فيه لله ، وجعله من شعائره التى تجب المحافظة عليها ، ويحرم اهمالها واحلالها، ففى سورة الحج : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير » وفى سورة المائدة : « ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد » .

ثانيا : جهة الحالات التى يطلب فيها ، وهى :

حالة الاحصار ، وهو المنع عن اتمام الحج ، وهى المذكورة بقوله تعالى فى سورة البقرة: « وأتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدى » . وقد طلب فيها عينا متى تيسر ، ولم يخير بينه وبين غيره ، كما لم يجعل له بدل عند العجز عنه .

وحالة الاعتداء على الاحرام بفعل محظور من محظوراته ،وهو المذكور بقوله تعالى: «فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية

(١) سورة الحج : ٣٦ .

من صيام أو صدقة أو نسك » وقد طلب هنا على سبيل التخيير بينه وبين غيره من صوم أو صدقة .

وحالة التمتع بالتحلل من العمرة الى الحج ، وهو المذكــور بقوله تعالى : « فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم » . وقد طلب هنا على أن يكون له بدل عند العجز .

وحالة الجناية على الحرم بقتل صيده ، أو قطع شجره ، وهو المذكور بقوله تعالى فى سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتــل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم ، هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مسكين أو عدل ذلك صياما » . وقد طلب هنا كما طالب فى الاعتداء على الاحرام ، على سبيل التخيير بينه وبين الطعام أو الصوم . وكما عرض القرآن للهدى من جهتى التنويه بشأنه والحالات التى يطلب فيها عينا أو تخييرا ، عرض له من جهة المكان الذى يذبح فيه : « ثم محلها الى البيت العتيق » ، « هديا بالغ الكعبة »، « حتى يبلغ الهدى محله » . والمراد ، الحرم كلية ، وقد صح عن الرسول أن منى كلها منحر ، وأن فجاج مكة كلها منحر .

اما الوقت الذى يذبح فيه ، فهو على العموم أيام النحر الثلاثة ، أو مع أيام التشريق كلها ، فيدخل اليوم الرابع ، وليلاحظ هنا أن تعيين الوقت انما هو لغير هدى الكفارات والنذر ، لانه لا يتقيد بوقت ، كما يلاحظ أن هدى التمتع يجوز أن يقدم ذبحه على الوقوف بعرفة بعد الاحرام بالحج أو قبله بعد التحلل من العمرة (١) .

---

(١) الاستاذ محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة ص ١١٩ — ١٢٠ .

حجة الوداع :

فى سنة عشر اذن الله عز وجل لرسوله فى الحج فحج رسول‌الله حجة الوداع .. وقبل أن يخرج من المدينة ، اعلم الناس ثم خطبهم خطبة علمهم فيها الاحرام ومايجب عليهم فى هذه الحال وصلى الظهر بهم فى مسجد المدينة أربعا ثم ادهن — تعطر واصلح شعره ومشطه — ولبس رداءه وازاره وخرج قبل العصر لست بقين من ذى الحجة فنزل بذى الحليفة (١) فصلى بها العصر ركعتين . ولما أراد الاحرام اغتسل وتطيب ثم لبس الازار والرداء وصلى الظهر ركعتين ثم اهل بالحج والعمرة فى مصلاه ، ولم ينقل عنه انه صلى للاحرام ركعتين غير فرض الظهر ، وقلد قبل الامام هديه ، وأشعره فى جانبه الأيمن فشق صفحة سنامه . وكان يقول: «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك ، والملك لاشريك لك » ورفع صوته بهذه التلبية حتى سمعها أصحابه وأمرهم ان يرفعوا أصواتهم بالتلبية ، وكان حجه على رحل ، لا فى محمل ولا هودج .

وولدت اسماء زوج أبى بكر بذى الحليفة محمد بن أبى بكر فأمرها الرسول أن تغتسل وتحرم وتهل ، فدل ذلك على ان الحائض تغتسل للاحرام ويصح منها ، ثم سار وهو يلبى حتى اذا كان بالروحاء (٢) ، اهدى اليه لحم حمار وحش صيد حلال فأمر بتقسيمه بين رفاقه فدل على جواز أكل المحرم من صيد الحلال اذا لم يصده لأجله ، ولما كان بسرف (٣) ، حاضت عائشة رضى الله عنها فقال لها : « افعلى ما يفعل الحاج غير الا تطوفى بالبيت » .

(١) عين على ستة أميال من المدينة .
(٢) موضع بين الحرمين على ثلاثين أو اربعين ميلا من المدينة المنورة .
(٣) موضع قريب من مكة .

ولما كان بمكة أمر من لا هدى معه أن يجعلها عمرة (١) فيطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ، ويحل من احرامه ، ومن معه هدى أن يقيم على احرامه ، ولم ينسخ من ذلك شيء البتة ، بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التى أمرهم بالفسخ اليها: هل هى لعامهم ذلك أم للابد ؟ فقال : بل للابد (٢) .

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم الأمر بفسخ الحج الى العمرة أربعة عشر من أصحابه ، وأحاديثهم كلها صحاح ، وفيها يقول : ولولا ان معى الهدي لاحللت كما تحلون ، أو فلولا انى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم به ولكن لا يحل من احرام حتى يبلغ الهدى محله ، وقد أجابوا فقصروا(٣) بعد أن طافوا بالبيت وبالصفا والمروة ثم أقاموا فى حل حتى اذا كان يوم التروية — اليوم الثامن من ذي الحجة — أهلوا بالحج ، ولما رأى البيت قال : « اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة . فلما دخل المسجد عمد الى البيت ولم يركع تحية المسجد ، اذ تحيته الطواف ، فلما حاذى الحجر الأسود استلمه ولم يزاحم عليه ، ولم يحاذه بجميع بدنه ، ولم يتقدم عنه الى الركن اليمانى ، ولم يرفع يديه ، ولم يقل نويت بطوافى هذا كذا ، ولا افتتحه بالتكبير كالصلاة كما يفعله من لا علم عنده ، بل هو من البدع المنكرات .

ولما استقبل الحجر واستلمه أخذ عن يمينه جاعلا البيت عن يساره ، وحفظ عنه بين الركنين « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ورمل (٤) فى طوافه هذا ثلاثة

---

(١) يعمل أعمال الحج كلها الا الوقوف بعرفة .
(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ١ ص ٢٠٩ — ٢٥٥ ◙
(٣) قصروا شعر الراس ، فتقصيره أو حلقه شعار الحل من الاحرام .
(٤) أسرع وهرول .

الأشواط : الأول وكان يسرع مشيه ويقارب بين خطاه واضطبع بردائه فجعله على أحد كتفيه وأبدى كتفه الآخر ومنكبه ، وكلما حاذى الحجر الأسود أشار اليه واستلمه بمحجنه وقبل المحجن — والمحجن : عصا محنية الرأس — وثبت عنه أنه قبل الحجر نفسه واستلمه بيده واستلم الركن اليمانى ولم يقبله وذكر الطبرانى انه كان اذا استلم الركن اليمانى قال « بسم الله والله أكبر » وكلما أتى على الحجر الأسود قال : « الله أكبر » ، ولما فرغ من أشواط الطواف السبعة جاء الى خلف المقام فقرأ « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » فصلى ركعتين والمقام بينه وبين البيت قرأ فيهما بعد الفاتحة سورة الاخلاص ثم خرج الى الصفا فلما قرب منه قرأ « ان الصفا والمروة من شعائر الله » « أبدأ بما بدأ الله به » ثم رقى عليه حتى رأى البيت استقبله ، وقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا اله الا الله وحده انجز وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » ، ثم نزل الى المروة يمشى ، قال ابن عباس : ولما كثر عليه الناس ركب وكان اذا وصل الى المروة رقى (١) عليها واستقبل البيت وكبر الله وحده وفعل كما فعل على الصفا حتى أتم السبعة أشواط سعيا من غير رمل فى الثلاثة الأولى خاصة على خلاف الطواف بالبيت .

وهناك أمر كل من لا هدى معه أن يحل حتما — كما تقدم — قارنا كان أو مفردا (٢) وأمرهم أن يحلوا الحل كله من وطء النساء

(١) صعد ، قال تعالى : « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » هما جبلان يمشى الحاج والمعتمر بينهما ويرقى عليهما .

(٢) المفرد من يحرم بالحج أو العمرة على حدة ، والقارن من يحرم بهما معا فاذا أدى أعمال العمرة وتحلل من احرامه الى أن جاء الحج فأحرم به سمى متمتعا ، قال تعالى : « فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم » .

والطيب ولبس المخيط ، وان يبقوا كذلك الى يوم التـروية ولم يحل هو من أجل هـديه ، وقال : « لو استقبلت من أمـرى ما استدبرت لـما سقت الهدى معى حتى اشتريه » ثم احل كما حلوا .

وكان يصلى مدة مقامه بمـكة بمنزله فأقام أربعة أيام يقصر الصلاة وتوجه يوم الخميس بمن معه الى منى فأحرم بالحج من كان احل منهم ولم يدخلوا الى المسجد فيحرموا منه بل احرموا ومكة خلف ظهورهم ثم نزل منى فصلى بها الظهر والعصر وبات فيها ليـلة الجمعة .

ولـما طلعت الشمس صار الى عرفة ، واصحابه منهم الملبى ومنهم المكبر وهو يسمع ولا ينكر على احد ، فلما اتى عرفة خطب الناس على راحلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الاسلام وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرر فيها تحريم المحرمات التى اتفقت الملل على تحريمها وهى : الدماء ، والأموال والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية وأوصاهم بالنساء خيرا ، وذكر الحق الذى لهن وعليهن ، واوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله وأخبر انهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ، ثم اخبرهم انهم مسئولون عنه واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون فقالوا : نشهد أنك قد بلغت واديت ونصحت فرفع اصبعه الى السماء واستشهد الله عليهم ثلاث مرات وامرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم ، ووقف بعرفة وخطب خطبة واحدة ولم تكن خطبتين جلس بينهما ، فلما أتمها امر بلالا فأذن ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ركعتين اسر فيهما بالقراءة وكان يوم الجمعة فدل على أن المسافر لا يصلى جمعة ، ثم اقام فصلى العصر ركعتين كذلك ومعه اهل مكة وصلوا بصلاته قصرا وجمعا بلا ريب ، ولم يأمرهم بالاتمام ولا بترك الجمع .

ومن قال انه قال لهم : اتموا صلاتكم فانا قوم سفر فقد غلط فيه غلطا بينا ووهم وهما قبيحا .

وانما قال لهم ذلك فى غزاة الفتح بجوف مكة حيث كانوا فى ديارهم مقيمين ، ولهذا كان أصح أقوال العلماء أن أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة كما فعلوا مع النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة ولا بأيام معلومة ولا تأثير للنسك فى قصر الصلاة البتة ، وانما التأثير لما جعله الله سببا وهو السفر ، هذا مقتضى السنة . فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فى ذيل الجبل عند الصخرات واستقبل القبلة على بعير . ثم أخذ فى الدعاء والتضرع الى غروب الشمس وأخبر الناس أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك بل قال : « وقفت ها هنا وعرفة كلها مواقف » .

وارسل الى الناس أن يكونوا على مشاعرهم ويقفوا بها فانها من ارث أبيهم ابراهيم عليه السلام .

وهناك أقبل ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج فقال : الحج يوم عرفة ومن أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج . أيام منى ثلاثة (فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى) . وأخبر أن خير الدعاء يوم عرفة ، وكان فى دعائه رافعا يديه الى صدره كاستطعام المسكين .

ومن دعائه فى الموقف : « اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيرا مما نقول ، اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى واليك ولك

تراثى ، اللهم انى اعوذ بك من عذاب القبر ، ووسوسة الصدر ، وشتات الأمر ، اللهم انى اعوذ بك من شر ما تجىء به الريح » — ذكره الترمذى .

ومما ذكر من دعائه هناك : اللهم انك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير والوجل المشفق المقر المعترف بذنوبى اسألك مسألة المسكين وابتهل اليك ابتهال المذنب الذليل وادعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه وذل جسده ورغم انفه لك ، اللهم لا تجعلنى بدعائك ربى شقيا وكن بى رءوفا رحيما يا خير المسئولين ويا خير المعطين — ذكره الطبرانى.

وهناك أنزلت عليه : « اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وسقط رجل من المسلمين عن راحلته هناك وهو محرم فمات فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكفن فى ثوبيه ولا يمس بطيب ، وان يغسل بماء وسدر ولا يغطى رأسه ولا وجهه ، وأخبر أن الله تعالى يبعثه يوم القيامة يلبى . ولما استحكم غروب الشمس افاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه وهو يقول: « أيها الناس عليكم السكينة فان البر ليس بالايضاع » — أى ليس بالاسراع — وأفاض من طريق المازمين وكان قد دخل من طريق حندب، وهكذا كانت عادته فى الأعياد أن يخالف الطريق . ثم جعل يسير سيرا ليس بالبطىء ولا السريع وهويلبى ولا يقطع التلبية حتى وصل المزدلفة فتوضأ للصلاة ثم أمر بالاذان فأذن وأقام وصلى المغرب قبل حط

الرحال فلما حطوها أمر فأقيمت الصلاة فصلى العشاء لم يفصل بينهما شيئا وصلاهما بأذان واقامتين كما فعل بعرفة ثم نام حتى أصبح ، ولم يحى تلك الليلة ولا صح عنه فى احياء ليلتى العيد شىء وأذن فى تلك الليلة لضعفة اهله أن يتقدموا الى منى قبل طلوع الفجر وأمرهم الا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس — فلما طلع الفجر صلاها ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ودعا الله وذكره حتى أسفر (١) وانطلق مردفا للفضل بن عباس وهو يلبى فى مسيره واسامة على رجليه فى سباق قريش . وفى طريقه هذا أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار بسبع حصيات فجعل ينفضهن فى كفه ويقول : أمثال هؤلاء فارموا واياكم والغلو فى الدين (٢) فانما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين ، وفى طريقه تلك عرضت له امرأة من خثعم جميلة فسألته عن الحج عن أبيها وكان شيخا كبيرا لا يستمسك على الراحلة فأمرها أن تحج عنه ،

فلما أتى وادى محسر (٣) حرك ناقته وأسرع كعادته فى المواضع التى نزل فيها بأس الله بأعدائه ، فان هنالك أصاب أصحاب الفيل ما قصه الله علينا اذ حسر الفيل وانقطع عن الذهاب .

---

(١) ظهر النهار .

(٢) المغالاة والاسراف ، قال تعالى : « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

(٣) موضع بمنى بين عرفات ومكة .

وسلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى اتى منى فاتى جمرة العقبة فوقف فى اسفل الوادى واستقبل الجمرة فرماها راكبا بعد الشمس واحدة بعد واحدة يكبر مع كل حصاة وحينئذ قطع التلبية ، وبلال واسامة معه احدهما آخذ بخطام ناقته ، والآخر يظله بثوب من الحر ، وفى هذا دليل على جواز استظلال المحرم .

ثم رجع الى منى فخطب الناس خطبة بليغة اعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وفضله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، وامر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله واخذ مناسكهم عنه . وقال : « لعلى لا احج بعد عامى هذا ، وعلمهم مناسكهم » . وامر الناس الا يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض وامر بالتبليغ عنه واخبر أنه « رب مبلغ أوعى من سامع » .

وقال : « لا يجنى جان الا على نفسه ، اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، واطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم » وودع حينئذ الناس فقالوا : حجة الوداع .

وهناك سئل عن تقديم الرمى والذبح والحلق بعضها على بعض فقال : لا حرج — ثم انصرف الى المنحر بمنى فنحر ثلاثا وستين بدنة (١) بيده — عدد سنى عمره — قائمة معقولة .

---

(١) ناقة سمينة ، قال تعالى : (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين) .

ثم امسك وامر عليا بن ابى طالب ان ينحر ما بقى من المائة وامره أن يتصدق بجلالها (١) ولحومها وجلودها فى المساكين ، ولا يعطى الجزار فى جزارتها شيئا منها ، وقال : نعطيه من عندنا ، وقل : من شاء اقتطع .

عن ابن عباس : « نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة » وعن جابر « انهم نحروا البدنة فى حجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشر » على شرط مسلم .

وثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم ضحى عن نسائه ، وهن تسع ببقرة ، ونحر صلى الله عليه وآله وسلم بمنى ، واعلمهم أن منى كلها منحر ، وأن فجاج مكة طريق ومنحر .

ولما أتم النحر استدعى الحلاق فأمره ان يأخذ جانبه الأيمن ثم الأيسر وحلق كثير من الصحابة وقصر بعضهم . قال تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين) وفى هذا دليل على أن الحلق نسك وليس باطلاق من محظور .

ثم أفاض الى مكة قبل الظهر راكبا فطاف طواف الافاضة ولم يطف غيره ولم يسع معه ولم يرمل فيه ولا فى طواف الوداع كما رمل فى طواف القدوم .

ولما قضى طوافه أتى الى زمزم وهم يسقون فقال : « لولا أن يغلبكم الناس لنزلت فسقيت معكم » . ثم ناولوه فشرب وهو قائم ثم رجع الى منى فبات بها .

(١) الجلال جمع جل وهو كساء يوضع على ظهور الابل .

ولما اصبح انتظر زوال الشمس ثم مشى الى الجمار فبدأ بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة يقول مع كل حصاة : الله اكبر ، ثم يقدم على الجمرة فيستقبل القبلة ويرفع يديه ويدعو الله طويلا ، وكذلك فعل فى الجمرة الثانية والثالثة وهى جمرة العقبة ، ولم يرمها من اعلاها كما يفعل بعض الناس ولا جعلها عن يمينه ، واستقبل البيت وقت الرمى .

ولما رمى جمرة العقبة رجع من فوره ولم يقف عندها يدعو، اذ دعاؤه كان كله فى نفس العبادة قبل الفراغ منها .

وخطب صلى الله عليه وسلم الناس بمنى خطبة ثانية اليوم الثانى من النحر كما ذكر ابو داود .

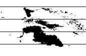
وعرف انه الوداع واخبر الناس — كما ذكر البيهقى — ولم يتعجل فى يومين بل تأخر حتى اكمل رمى أيام التشريق الثلاثة ، وافاض يوم الثلاثاء بعد الظهر .

ولما وصل مكة طاف طواف الوداع ليلا سحرا ولم يرمل فى هذا الطواف ، واخبرته صفية انها حائض فقال : أحابستنا ؟ فقالوا له انها قد افاضت . قال : فلتنفر اذا ، ورحل الى المدينة .

وقد رخص للعباس أن يبيت بمكة ليالى منى من أجل سقايته، ولرعاة الابل أن يبيتوا خارج منى عند ابلهم ، ورخص لهم أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمى يومين بعده يرمونه فى أحدهما .

وفى اثناء ارتحاله صلى الله عليه وسلم الى المدينة لقى ركبا بالروحاء فرفعت امرأة صبيا لها من محفة فقالت : يا رسول الله: ألهذا حج ؟ قال : نعم ، ولك أجر .

فلما أتى ذا الحليفة بات بها ، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال : « لا اله الا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ثم دخلها نهـــارا .



خطبة عـــرفة :

في حجة الوداع خطب الرسول صلى الله عليه وسلم خطبتـــه المشهورة بعرفة ، ولمـــا تضمنته هذه الخطبة من الشرائع الحكيمة والنصائح القيمة نوردها فيما يلي بنصها كما رواها ابن هشام في سيرته :

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمدا عبده ورسوله . اوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خـــير ، أيهـــا الناس ، اسمعوا قولى فانى لا أدرى لعلى لا القاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا .

أيها الناس ، ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقـــوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كان عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه وان كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله انه لا ربا وان ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله . وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع وان أول دمائكم

اضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعا في بنى ليث فقتلته هذيل) فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد ، أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ان النسىء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عـدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها اربعة حرم ثلاث متواليـة ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس ، فان لـكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا لكم عليهن الا يوطئن فرشـكم أحـدا تكرهونه وعليهن الا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وانكم انمـا أخذتموهن بأمـانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلغت وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم .

اللهم هل بلغت ؟ — فذكر لى ان الناس قالوا : اللهم نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد .

قال ابن اسحق : حدثنى ليث بن ابى سليم عن شهر بن حوشب الأشعرى عن عمرو بن خارجة قال : بعثنى عتاب بن اسيد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة فبلغته ثم وقفت تحت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لغامها ليقع على راسى فسمعته وهو يقول :

ايها الناس : ان الله قد ادى الى كل ذى حق حقه وانه لا تجوز وصية لوارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجــر ، ومن ادعى الى غير ابيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

الحج والعمرة فى القرآن المجيد :

● قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين (١) » .

● وقال تعالى : « واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا او به اذى من راسه ففدية من صيام او صدقة او نسك فاذا امنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك

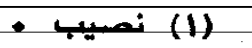
---

(١) سورة آل عمران : ٩٧ .

عشرة كاملة ذلك لمن يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب . الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب . ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين . ثم افيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق (١) ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب .

واذكروا الله فى أيام معدودات (٢) فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون(٣) » .

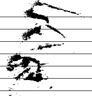
● وقال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم



(١) نصيب .
(٢) فى أيام الذبح والرمى وأيام التشريق .
(٣) سورة البقرة : ١٩٦ — ٢٠٣ .

وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه (١) » .

● وقال تعالى : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين (٢) » .



الحج والعمرة فى سنة الرسول :

● عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل افضل ؟

قال : ايمان بالله ورسوله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور . « رواه البخارى ومسلم » رواه ابن حيان فى صحيحه ولفظه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل الأعمال عند الله تعالى : ايمان لا شك فيه وغزو لا غلول فيه وحج مبرور قال أبو هريرة : حجة مبرورة .

وقد جاء من حديث جابر مرفوعا ان بر الحج اطعام الطعام وطيب الكلام وعند بعضهم اطعام الطعام وافشاء السلام .

● وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من حج فلم يرفث (١) ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

---

(١) سورة الحج : ٢٧ — ٣٠ .
(٢) سورة الحج : ٣٦ — ٣٧ .
(٣) الرفث : القول أو الفعل القبيح .

● وعنه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة .

(رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة والاصبهانى . وزاد : وما سبح الحاج تسبيحة ولا هلل من تهليلة ولا كبر من تكبيرة الا بشر بها تبشيرة) .

● وعن ابن شماسة رضي الله عنه قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت فبكى طويلا وقال : فلما جعل الله الاسلام فى قلبى اتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ابسط يمينك لأبايعك فبسط يده فقبضت يدى . فقال : مالك يا عمرو ؟

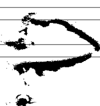
قال : أردت أن أشترط، قال : تشترط ماذا ؟ قال : ان يغفر لى قال : أما علمت يا عمرو أن الاسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله .

● عن الحسن بن على رضي الله عنهما قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انى جبان وانى ضعيف فقال : هلم الى جهاد لا شوكة فيه : الحج .

● وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : ترى الجهاد افضل الأعمال أفلا نجاهد ؟ فقال : ولكن أثقل الجهاد حج مبرور .

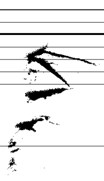
● روى عن على رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله الحرام فلم

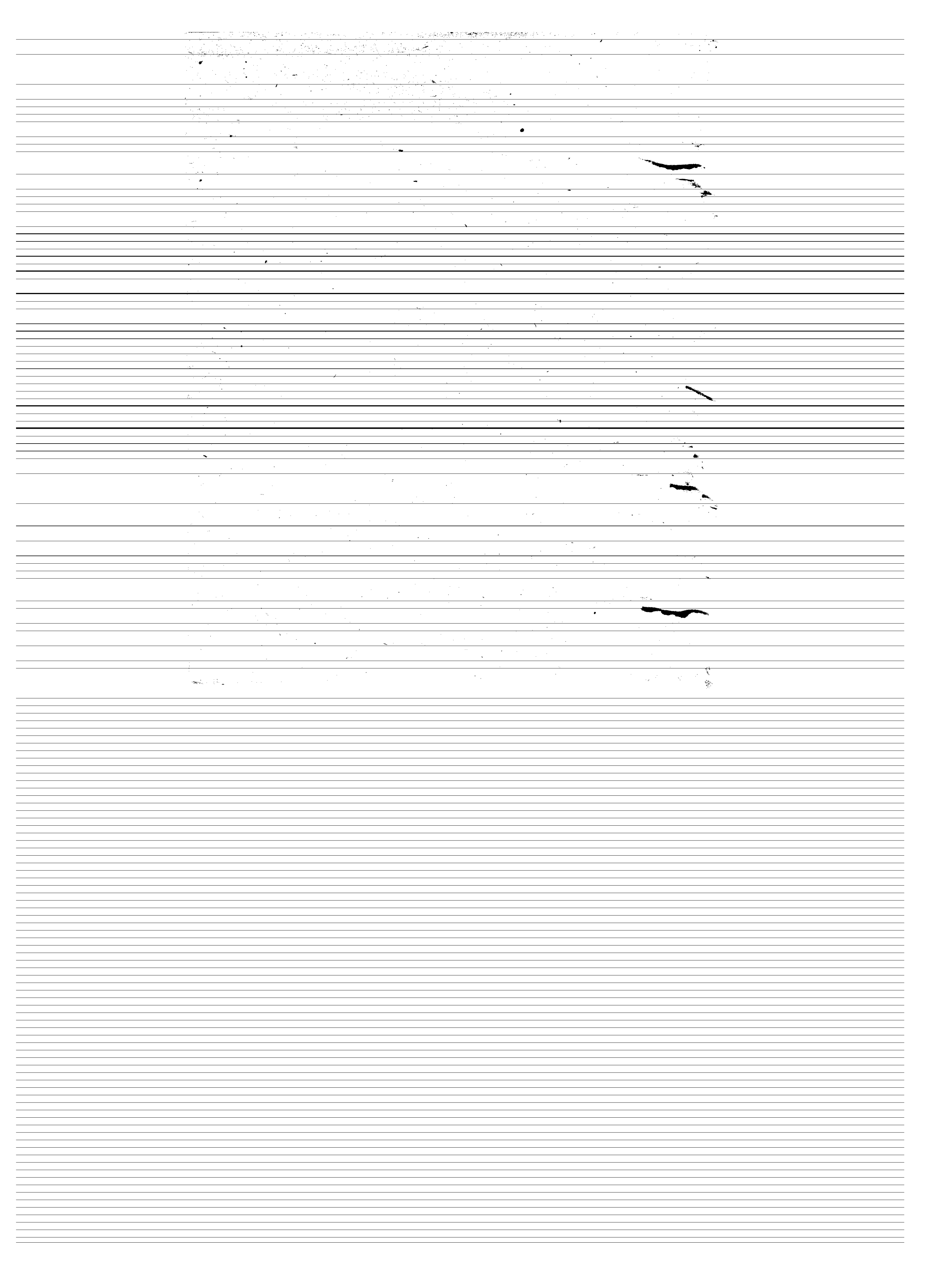
يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أن الله يقول :
« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » .

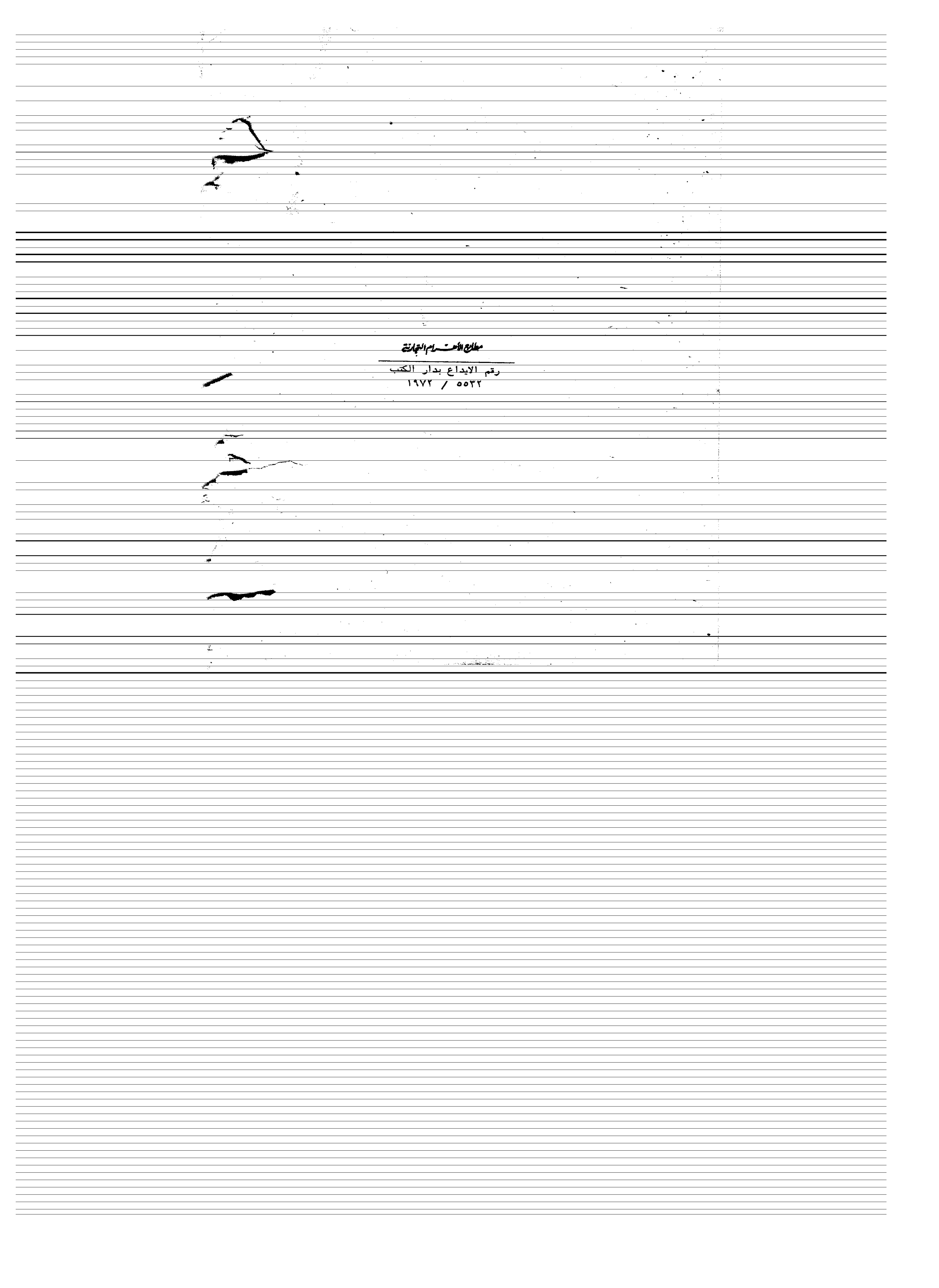


● عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل : ان عبدا صححت له جسده ووسعت عليه فى المعيشة تمضى عليه خمسة اعوام لا يغدو الى لمحروم .

● وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تابعوا بين الحج والعمرة فانهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب الا الجنة » .







مطابع الأهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٢ / ٥٥٣٢